

أَنَا وَالْآخَرُونَ

دراسة تأصيلية في أهمية الحوار

أَنَا وَالْإِخْوَانُ

دراسة تأصيلية في أهمية الحوار

الشيخ حبيب الخباز

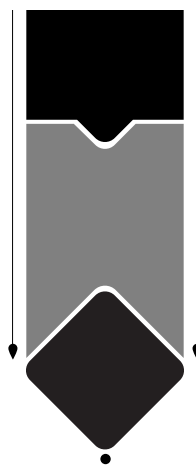
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

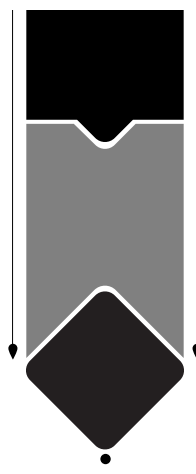
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ
أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]



الإهداء

إلى كل من يبحث وينشد الحقيقة، من
أجل الإنسان وبناء الأوطان وتكريس قيم
الحق والخير والصلاح واستثمار الوقت
والحياة لتحقيق الهدف المنشود للجميع
عبر الكلمة والحوار.



التعريف بالحوار

الحوار لغة وأسلوب يتميز به الإنسان عن سائر المخلوقات لتحقيق مصالح وغايات وأهداف مشتركة، والمقصود هو التفاهم والنقاش في ظل الاختلاف في الرأي والفكر والمبدأ أو النظريات، وهو يشمل الأديان والمذاهب والمدارس الفكرية في دائرة الإسلام، ولا يستبعد أيضًا تلك القضايا المهمة والمصيرية مثل السياسات والاقتصاد والأخلاق وغير ذلك.

ومصطلح الحوار لغة عربية أصيلة، والتحاور هو التراجع وهي المحاورة، يقال: «حاوره أي راجعه الكلام وتحاورا» انتهى، وقد وردت في القرآن كثيرًا، وعلى سبيل المثال في قصة المرأة التي جاءت إلى الرسول ﷺ تشتكي زوجها وتجادل الرسول في زوجها، ويقال: إنها خولة بنت ثعلبة، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١)، وآخر في قوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(٢).

لكن الطبيعة البشرية في الغالب وبسبب النفس الأمارة تميل إلى

(١) سورة المجادلة: ١.

(٢) سورة الكهف: ٣٤.

الصراعات والنزاعات والحروب، إما لتحقيق مصالح دنيوية أو لفرض القوة وترسيخ الهيمنة والسياسات والاستبداد، والسبب الرئيسي لا شك هو الجهل والتعصب ونتيجة لهذا المنطق تنعدم لغة الحوار والتفاهم أو يكون بلغة باهتة غير جادة ومجدية، وهذا من شأنه يفقد المجتمعات الأمن والاستقرار والتعايش، ويتم من خلال ذلك مصادرة الحقوق وهذا من أكبر الأسباب للتخلف والتأخر في الحياة البشرية، حيث نجد مجتمعات تتقدم وتتفوق وأخرى تقبع في الأسفل نتيجة للاستعمار واستغلال النفوذ، لكن هذه النظرة الاستعلائية افتقدت تلك الحضارة المادية والقوى الشريرة صوابها ومبادئها، لتتحول بدورها إلى أزمة حضارية. وبالرغم من شعور العالم بضرورة إيجاد الحلول والقوانين الدولية التي تحمي المجتمعات وتحقيق السلم العالمي عبر المراكز مثل مجلس الأمن وهيئة الأمم لتجنب الحروب والصراعات والتجاوزات، إلا أن ذلك لم يكن كافياً وتأثيره محدود؛ لأن هذه المراكز تابعة لمصالح تلك الدول العظمى، والأمر الآخر هو افتقاد هذه الحضارة الرؤية الصحيح لفلسفة الحياة وبعدها عن المبادئ والدين.

إن الإسلام يؤكد على أهمية التواصل الحضاري من أجل نقل المعرفة والاستفادة من تجارب الشعوب لتحقيق التكامل والتقدم والازدهار، وهذا ما يصطلح عليه (تكامل الحضارات)، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١) في مقابل (صراع الحضارات) الذي تتبناه القوى الشريرة في العالم لتستبيح فيه كل الأعراف والمحرّمات وسرقة الشعوب. وإن الاختلاف مهما كان شأنه ليس مُبرِّراً للتصادم لأنه لغة لا تنسجم مع الفطرة والمبادئ

(١) سورة الحجرات: ١٣.

الإنسانية المشتركة فضلاً عن الأهداف والمبادئ السامية من الحياة، ولذلك يؤكد على مبدأ قيمة السلام، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾^(١)، كما أنه يضع حدوداً صارمة للخلافات والنزاعات، وأن السبل المتبعة هو الإصلاح بين الجهات ما استطاع إليه سبيلاً، خصوصاً في المجتمع الإسلامي الذي يسعى لإقامة الدين والشرائع كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾^(٢)، ولا شك أن الحوار والتفاهم هو الطريق لإصلاح الأمور.

من هنا تأتي أهمية لغة الخطاب والحوار في كل القضايا الحياتية والاجتماعية وحتى في الأسرة الواحدة، لكن يتأكد الحوار في الشأن الديني سواء على مستوى الديانات أو ضمن الدائرة الإسلامية، حيث تعدد المذاهب وكذلك تعدد وجهات النظر حتى في المذهب الواحد، لما يحمل الدين من قدسية ومكانة في النفوس وقيم فاعلة في الحياة والمجتمعات. إذاً إن التأكيد على الحوار مهمة إنسانية وقيمة إسلامية وضرورة حضارية لتحقيق التواصل المعرفي والأخلاقي وتحقيق البنية الصالحة للتعايش بين الناس حتى في ظل التنوع والاختلاف، والحوار هو الخطوة الأولى والأساسية، الذي يهدف:

١- التعريف بالآخر ورفع الاختلاف ما أمكن، وليس بالضرورة الاتفاق والوفاق.

٢- تقريب وجهات النظر وتعزيز المشتركات.

(١) سورة البقرة: ٢٠٨.

(٢) سورة الحجرات: ٩.

٣- الحد من التأثيرات السلبية نتيجة الخلافات.

٤- التأكيد على اللحمة الوطنية والتعايش السلمي في الوطن الواحد.

٥- الاهتمام بسياسات البناء والتقدم والتنمية والازدهار، عبر المشاريع الوطنية. كما هو حال الشعوب الأخرى حيث يكون التنوع عاملاً للالتقاء وتسخير الطاقات، فالاختلافات في ظل تلك الشعوب لا يعتبر عقبة في الطريق، ولا إجحاف للحقوق ولا مصادرة للرأي، بل هو إثراء وتكامل.

إن الإسلام حينما يؤكّد على مبدأ الرحمة في حياة البشرية فإن الصراعات والحروب والنزاعات هو من أسباب نزع الرحمة وقساوة القلوب، وإذا كانت الاختلافات لها مبرراتها أحياناً بحيث لا تنفك عن طبيعة العيش والحياة والمصالح، فهو يؤكّد على ضرورة الحوار والتفاهم، وقد تكون الخلافات جانباً من فلسفة الحياة والابتلاء كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^(١)، إذاً إن مقتضى الرحمة الإلهية هو التواصل والتقارب حتى في ظل الاختلاف، وليس القطيعة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢)، فالله سبحانه خلقنا للرحمة وليس للشقاء والعذاب. يقول الإمام علي عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِلِ وَالتَّبَاذُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرِ»^(٣).

فهذا هو المقصود من العنوان: (أنا والآخر) المختلف (بكسر اللام)،

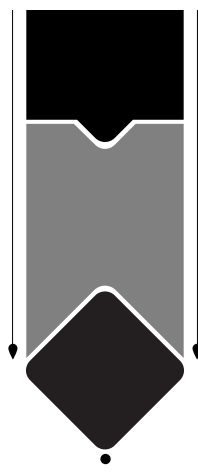
(١) سورة الفرقان: ٢٠.

(٢) سورة هود: ١١٨ - ١١٩.

(٣) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.

أي عندما يكون الاختلاف سبباً للقطيعة والنزاع مما يحتم علينا كأفراد أو جماعات ومجتمعات أو جهات متعددة هو الحوار، خصوصاً في أمر الدين والسبب هو ما نجده من استغلال الدين ومفاهيمه والمتاجرة به لأمر الدنيا، ولهذا حاولنا أن نقدّم رؤية تأصيلية من القرآن والإسلام على أهمية الحوار.

أخيراً نقول: إن الإيمان بلغة الحوار هو إيمان بقيمة وكرامة الإنسان أولاً، وثانياً بأهمية المبادئ والقيم ودورها في رسم الحياة الفاضلة، وبالخصوص في ظل المجتمعات الإسلامية لتحقيق النموذج الصحيح، وثالثاً من أجل التعايش بين الشعوب، وفي ظل الوطن الواحد التي تربطهم المصالح المشتركة والمصير الواحد من أجل تحقيق البناء وعجلة التقدم.



تمهيد

صراع الحضارات أم حوار

إن قصة قابيل وهابيل تُمثّل نموذجًا للصراع البدائي في مسيرة البشرية على الأرض، مع أنهما إخوة لكن طبيعة التفكير والمنطلقات مختلفة، فهابيل كان يطمع في القرب من الله وتحقيق رضاه، بالتزامه بالتقوى، في حين يُمثّل قابيل طبيعة الشر والإجرام وحب الذات، لكن هذا الصّراع بين الخير والشر استمر حتّى اتّخذ نماذج وأنماطًا ودوائر متشعّبة عبر مرور الزمن، واتّسعت رقعة الصّراع لتشمل كل الجوانب الحياتية والمصالح الدنيوية، وكذلك -وهو الأهم- الصّراع الفكري والثقافي والديني، ممّا يشير إلى حدة وعمق الخلافات والاختلافات بين أبناء البشر، ولن يتوقّف هذا الصّراع ما دامت السماوات والأرض ووجود الإنسان، حتّى يحكم الله أمره ويرث الأرض ومن عليها. ويشير القرآن إلى حتمية انتصار الحق على الباطل في الأخير وبالخصوص عند خروج المهدي المنتظر عليه السلام، ولقد أشار القرآن إلى ذلك حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

والصِّراعُ بين الحق والباطل هو جانبٌ من فلسفة الحياة والخلق، وهو الاختبار والابتلاء، أما الخلافات فهي قضية واقعية لا يمكن أن تزول، وربما تُمثِّل سنة في الحياة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١)، فظاهرة الصِّراع متجدِّرة ومتعمِّقة في النفوس وفي الطبيعة البشرية، لكن تتجلَّى في ظواهر مختلفة ومصالح كذلك.

ولقد أشار القرآنُ إلى عمق هذه القضية والمشكلة عبر الحديث عن النَّفس البشرية، إذ يقول الحق وفي سورة الشمس بالتحديد وبعد أن يُقسَم الله سبحانه بعدة أقسام عظيمة ليأتي جواب القسم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٢)، والجواب هو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٣)، إذاً هذا هو الجذر الحقيقي لكل ما يجري على الأرض من صراعات وخلافات.

وكما أشرنا فقد اتَّسعت رقعةُ الصِّراعات وتطوَّرت لتشمل كُلَّ الجوانب، فنجد الصِّراعَ الديني بين قابيل وهابيل حسب الظاهر، أو العقائدي أو السياسي وكذلك الصِّراع الحضاري، أي فرض النموذج من خلال القوة كما هو الحال اليوم والذي يتمثِّل في الاستكبار العالمي، ويتفرَّع على ذلك صراعُ النُّفوذ والأطماع ورسم خريطة العالم.

إذاً هناك جبهتان في هذا الصِّراع: جبهة الحق وجبهة الباطل، بين الخير والشر، بين الفضيلة والذيلة. نعم، قد تختلف حِدَّةُ الصِّراع ونسبته بين فترة

(١) سورة هود: ١١٨.

(٢) سورة الشمس: ٧ - ٨.

(٣) سورة الشمس: ٩ - ١٠.

وأخرى، وبين جبهة وأخرى أيضًا وفي مختلف بقاع العالم، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن جانب وجبهة الباطل ليس لها دعوة حق وأصالة في الحياة؛ لأنها تخالف الفطرة السوية والسُنن الحياتية والكونية، لكن تستمدُّ قوتها وتأثيرها واستمرارها من خلال وجود الفراغ أي غياب جبهة الحق التي تُمثِّل إرادة الله في الأرض وترسيخ قيم الحق والمبادئ والعدل والسلام. قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١). وهي إشارة إلى أنها (أي دعوة الباطل) لا يمكن تحقيق أهدافها وتطلُّعاتها غير المشروعة، ولكن أيضًا أبى الله إلا أن تجري الأمور بأسبابها، ومن أهمها هو وقوف جبهة الحق ضد كل ذلك من أجل إفشال كل المؤامرات والمخططات والمشاريع العدوانية، وليس من الصحيح أن يتكل أهل الحق فقط على الإرادة الإلهية دون عمل وموقف ودون تحريك ساكن، فهذا أمرٌ غيرٌ منطقي وبعيدٌ كل البعد عن السُنن الجارية والطبيعة الحياتية، فهل يمكن أن يرزق الله العباد من دون سعي وعمل وكدح؟ إذا لِمَ سَخَّرَ اللهُ الكونَ وما فيه؟ وفي الروايات المشهورة أن العبد لا يُستجاب إليه في الرزق وهو يدعو من دون عمل؛ ولذلك يستنكر القرآن على بني إسرائيل حيث قالوا لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢)، وصفهم بالفسق.

(١) سورة الرعد: ١٤.

(٢) سورة المائدة: ٢٤ - ٢٥.

إذاً، إن فلسفة الصِّراع تؤكد على المواجهة والتصدي لأهل الحق ضد أهل الباطل، والوقوف في مواجهتهم بكل الوسائل الممكنة من القدرات والإعداد. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١)، ثم يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، هذه الآيات التي ذكرت تُشير إلى حقائق مهمة في فلسفة الصِّراع، نشير إليها وهي:

١- إن الاتكالية منطق سخيّف ومرفوض، فضلاً عن أنه لا يُمثل الحق والإرادة الإنسانية التي تتطلع إلى الحياة الكريمة.

٢- إن القيادة الربانية لا تخضع إلى التأثيرات التي تُبنى على أساس المصلحة وعدم الشعور بالمسؤولية كما هم بنو إسرائيل.

٣- يجب على أهل الحق القيام بدورهم ومسؤولياتهم اتجاه دينهم وحياتهم، بالإعداد الكامل للقوة؛ لأن المنطق يقول: القوة في مقابل القوة، بمعنى مواجهة القوة والعدوان بالمثل. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن القوة المستخدمة تختلف من زمن إلى زمان، ففي العصر الحديث نجد التطوُّر في التكنولوجيا العسكرية التي وصلت إلى أقصى وسائل الحروب والدمار والقهر بحيث لا يمكن استيعاب ذلك أو التكهن، فأمام هذا التطوُّر في السلاح

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

عند الأعداء لا بُدَّ من مواجهته بالمثل أو أكثر أيضاً، فهذا هو السبيل لردع العدو، ومثال على ذلك حينما يتسلَّح العدو بالسلاح النووي، فمن غير المعقول أن نقف عاجزين أو مُحَرَّمين لامتلاك هذا السلاح دون وجه حق أو شرعي، فهو مصداقٌ للقوة والتأثير والردع كما هو حاصل عند إسرائيل لتصبح القوة التي لا تُجارى ولا يُضاهيها أحدٌ في المنطقة العربية والإسلامية. ولذلك مطلوب امتلاك هذه القوة بكل الوسائل والسبل ليس من أجل العدوان والبطش والقهر والغلبة والاستكبار كما هو في عصرنا الحاضر، حيث يسعى الاستكبار العالمي لتنامي هذه القوة العدوانية، والإسلام يؤكِّد على بناء القوة من أجل الردع أولاً وأخيراً، وهذا مبدأ ثابت، وهو الفارق كما قال تعالى: ﴿فَلَا عُدُوَانٍ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١)، ومصطلح (العدوان) في الآية للمشاكلة، وإلا فهو في الحقيقة لا يُعتبر عدواناً؛ لأنه دفاع عن الحق. بل ينبغي أن تكون هذه القوَّة للحق جاهزة و متمكِّنة في كل الأحوال والظروف، وهو ما يفهم من الإعداد للقوة، وكذلك أن يكون لها تأثيرٌ في هذا الصِّراع والرأي العام كما قال تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٢)، وعدو الله هو عدوكم، فالقضية مبدئية وليس من أجل مصالح شخصية. وحينما تكون قوة الحق مساوية للعدو أو أكثر خطورة فإنَّ العدوَّ سوف يتراجع ولا يفكر في ارتكاب الجرائم والقتل والسلب وغير ذلك.

ومن هنا نقول: لا يكفي أن نمتلك شعارات الحق والمبادئ دون أن نمتلك القوة في التأثير على الواقع، ومجارة الأعداء الذين برعوا في امتلاك

(١) سورة البقرة: ١٩٣.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

كل عوامل القوة والنفوذ والتوسع والسيطرة، فماذا كانت النتيجة لأمة الإسلام من المجتمعات العربية والإسلامية والمستضعفين في الأرض؟ حيث نعجز عن الوصف لواقع الحال للأمة الإسلامية من حيث مكانتها، وكذلك من حيث مقارنتها بتلك الدول الأخرى في كل المجالات، وليس فقط على مستوى الصراع والمواجهة العسكرية والميدانية. ويمكن أن نختصر ذلك في جملة واحدة من خلال الفوارق المختلفة، بين أمة قوية وأخرى ضعيفة، وأمة متقدمة ومتخلفة، فنحن في الحقيقة نقبع في أسفل مكانة بين الأمم.

وعودًا على بدء، وهو أن الحياة صراع وابتلاء، فيجب أن يكون الإنسان أو الجهة التي ينتمي إليها في موضع القوة والإعداد لكي يستطيع أن يقول كلمة الحق ويُعبر عن رأيه دون الشعور بالضعف أو الإحساس بالهزيمة. فهناك منطقتان في الحياة: منطق القوة، وهو السائد في الحياة، وهو الذي يفرض نفسه بالقوة والإكراه، ويتنزع الحق، ويفرض الشروط، ويستولي على كل المقدرات، وتجبر كل شيء لصالحه؛ وبين منطق الحق الذي يقف متفردًا ويكتفي بالاستماع والقبول لكل ما يُملى عليه، وكذلك يكون مطيعًا وتبعًا لتلك القوة الغاشمة، فما هي إذا قيمة الحق؟!

من هنا تأتي أهمية التفكير السوي والمنطق العقلاني خصوصًا لأتباع الحق ومن يسعون لتحقيق تلك المبادئ الإنسانية والإيمانية والحضارية والتطلعات المشروعة أن يعيشوا لغة الواقع ومفهوم الصراع كي يكون لهم تأثير في كل المواقع والمواجهات والحوارات، ولكي يحافظوا على هويتهم ومصالحهم، ولا يكونوا لقمة سائغة، يُشير القرآن إلى هذه المعادلة الربانية بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(١)، فالنصر لا يتحقق إلا بالدفاع عن الحق ونصرة المظلومين والمحرومين والمستضعفين، وليس بالتفرُّج والتَّقاعس أو التَّفكير في المصالح الشخصية والسياسية.

وحينما يثار أهل الحق ويهبوا لنصرة مبادئهم ونصرة الضعفاء والمساكين في كل بقاع العالم سوف يتحقق النصر المبين، وهو ما وعد الله به وهو قادرٌ على كلِّ شيء، ويتمكّنون من تغيير كل المعادلات، فالباطل مهما اتسعت رقعته، وتراكت قوته، وتحكّمت قدرته، واستطال جبروته فهو لا يُمثّل شيئاً أمام قدرة الله؛ لأن ﴿اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢)، وقال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾^(٣)، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٤). فالباطل ليس له أصولٌ في أعماق الحق والحقيقة والأصالة؛ من هنا يؤكّد الإسلام على أسس في خضم الصّراع بين الحق والباطل والخير والشر:

١ - التّأكيد على حق الله، أي يجب السعي لتحقيق الحق، من خلال السعي لتطبيق منهج الله في الأرض، وهذا ما يقتضيه الإيمان بالله وفلسفة الحياة والهدف الذي من أجله خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض، قال

(١) سورة الحج: ٣٩ - ٤٠.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٠.

(٤) سورة الإسراء: ٨١.

تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^(١)، ونصرة الله هو نصره الحق والقيم والمبادئ، ومنها نصره المظلومين والمحرومين؛ لأن الله «خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ»^(٢)، وفي وصية الإمام علي عليه السلام لولديه: «وقولا الحق، وأعمالا للأجر، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونًا»^(٣).

٢- تحقيق الأهداف الإنسانية والتطلعات المشروعة، فلا يمكن تحقيق ذلك إلا بنشر السلام والأمن، لتعيش البشرية في رخاء ورفاهية وتقدم وتطور، فكل ذلك يكفل لها السعادة، فهي إنما تكدح وتسعى لتأمين هذه الحياة، لكن في ظلّ العدوان والظلم والجور فإنها تفقد هذه السعادة وتعيش البؤس والشقاء، ومن أجل ذلك يقف الإسلام ضدّ هذا الظلم، فيدعو الناس للوقوف في وجه هذا العدوان على الحقوق البشرية دون تمييز. قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٤)، وقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥)، ولذلك لا بد من التأكيد على مبادئ أساسية في ذلك:

(١) سورة محمد: ٨.

(٢) نهج البلاغة، ص ٣٠٣.

(٣) نهج البلاغة، ص ٤٢١.

(٤) سورة البقرة: ١٩٤.

(٥) سورة الممتحنة: ٨-٩.

أولاً: الدَّعوة إلى السَّلام والكرامة:

فالدَّعوة للسَّلام مبدأ ثابتٌ ودائمٌ؛ لأنه دعوةٌ للخير، ويُجَنَّب النَّاسُ الكوارث بسبب الحروب والدمار والقتل والتشريد وكل عوامل الشرور والتخلف والتراجع عن البناء والإصلاح، وهذا لا يحتاج إلى أدلة وبراهين لإقناع الإنسان به، لكن ماذا نعمل إذا كان هناك من يستحلُّ الحرمات ولا يكثر ث لكل المبادئ والقيم، ويسعى للهيمنة أو السيطرة على العباد ومقدَّرات الشعوب بسبب الطُّغيان والتجبر في الأرض، كما كان فرعون وهامان وقارون وغيرهم في كل زمان ومكان، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(١)!

هنا تأتي ثقافة الرفض والمقاومة لكل عدوان وتجاوز للحدود كما أشرنا سابقاً، وإلا فالإسلام كرسالة وبما يُمثله من مبادئ عامَّة هو دعوة للسَّلام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾^(٢)، ولذلك يُؤكِّد في كل الصِّراعات وأمام العدوان وفي كل الحالات على الأخذ بالسَّلام إذا وجد له طريقاً: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣)، وتعير (لها) أي للحالة والقضية وهي السَّلم، وليس لأنهم يستحقُّون، فالسَّلام قضيةٌ ومبدأٌ من أجل صالح البشرية، فتأمل. وهذا ما كان عليه الرَّسول ﷺ وأهل بيته ﷺ في الظروف ومنه صلح الحديبية، وبسببه وحكمة الرَّسول ﷺ تحقَّق النصر والفتح فيما بعد، وهذا يفسِّر كل

(١) سورة الروم: ٤١.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٨.

(٣) سورة الأنفال: ٦١.

التعاليم والتوجيهات القرآنية والإسلامية في الحروب والقتال والجهاد، أن يكون كل ذلك أولاً نصرة لله، وثانياً من أجل الحياة الكريمة والعيش الرغيد كما قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

فالسَّلام في الحقيقة هو تأكيدٌ على قيم الكرامة الإنسانية، بينما العدوان هو انتهاك لهذه الكرامة، ولكن من المؤسف يرى بعض النَّاسِ وحتى من داخل دائرة الإسلام والإيمان أن ذلك ضعفٌ وهزيمةٌ، وهذا خلافٌ مفاهيم الإسلام ومقاصده وتطلُّعاته.

والمقصودُ بالجنَاح إما الهدنة أو السَّلام الدَّائم، وهذا لا يكون إلا ضمن تلك العهود والمواثيق التي تتضمَّن الشروط أو تُعبِّر عن القناعات الكافية، لضمان المصلحة، وليس من منطلق الضعف والضعف، كما هو الحال بين الدُّول الكُبرى والعُظمى وبين الدُّول الضعيفة والتابعة لها في سياستها، والتي لا تملك قرار نفسها أو لا تُعبِّر عن إرادة شعوبها، كما هو في أغلب الدول العربية والإسلامية، فهذه الدول هي نفسها ظالمة ومستبدَّة لا تُعترف بحقوق مواطنيها، ولذلك لا يمكن القبول بتعهداتها أمام العدو إلا عند الضرورة؛ لأنها جائرة وغير منصفة كما هو الحال بين إسرائيل المحتلة والغاصبة وبين فلسطين؛ فهل من الحق والإنصاف أن يتساوى الطرفان؟ أما حينما تتساوى الكفتان والإرادتان بما يضمن مصالح شعوبهما فهنا يصبح السَّلام والمسالمة مقدمة وأولوية في نظر الإسلام وأصحاب العقول الراجحة.

(١) سورة الصف: ١٣.

من هذا المنطلق؛ يجب نشر ثقافة المقاومة أمام كل عدوان أو غزو واستعمار أو تجاوز من أجل الردع وتحرير الأوطان، وكذلك إيقاع الرعب والهزيمة النفسية للعدو كي لا يُكرّر أو حتّى يُفكر في احتلال رقعة من أرض وهيمنة على مقدّرات. وهذا السبيل للقضاء على ظواهر الشرور في الحياة، وإذا خفقنا في تجربة فهذا لا يعني هزيمة مطلقة، بل هو إشارة لضعف أو أسباب وثغرات تحتاج إلى معالجة وتدارك ليكون الإعداد سليماً، فالحياة سجال وكرّات وتداول، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١).

ثانياً: ترسيخ قيمة الحرية والعدالة الإنسانية:

وإذا كنا نتحدّث عن مبدأ ونشر ثقافة السّلام في الأرض من أجل الرخاء والبناء والتنمية والتقدّم بما يكفل كرامة الإنسان ويحقّق التقدّم في كل مجال، فإنّ جوهر هذه الكرامة وأصلها لا يتحقّق إلّا عبر مبدأ الحرية والعدالة، وهو الطريق لتحقيق مبدأ السّلام في الأرض، من هنا نحتاج إلى تأصيل هذه القيم وإعلاء شأنها لتصبح ثقافة عامّة في الحياة، ومن كل المنطلقات الدينية والإنسانية والأخلاقية والعقلية التي تصوغ ثقافة الإنسان وسلوكه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢).

إن الانحراف عن هذا المبدأ في كل شأن هو سبب لكل المشكلات

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) سورة النساء: ٥٨.

والأزمات المختلفة في الحياة البشرية، على صعيد الأفراد والأسرة والمجتمعات والحضارات؛ لأن الظلم هو نتيجة لاتباع الأهواء، التي تقود الإنسان وكذلك البشر للطغيان وإيثار الدنيا، ليصبح الإنسان طاغوتاً ومادياً لا يكثر ث لكل القيم، ويسعى في الأرض فساداً وتدميرًا. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(١)، عرفنا أن الطغيان وإيثار الدنيا سببه الهوى، وهو من أخطر الانحرافات، فما نجده من ظلم على مستوى البشرية ما هو إلا نتيجة لذلك، وهو يشير إلى البعد عن الإيمان بالله سبحانه وعن الالتزام بالدين والشرع المقدس، بل إن الهوى هو الذي يقوده إلى هذا الظلم، ويُشرع له ليصبح هذا الهوى هو الإله. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(٢).

وما نشهده من كوارث وفسادٍ وجرائمٍ ضد الإنسانية في العالم ما هو إلا صورة من صور الظلم واتباع للأهواء والمصالح الأنانية. ومن المؤسف أن هذه الدول التي تتفنن في أنواع الظلم من السيطرة والهيمنة وانتهاك حقوق الإنسان في العالم هي التي أقامت وأنشأت المحاكم الدولية كمحكمة العدل ومراكز حقوق الإنسان، لكنها غير فاعلة ولا تصون شيئاً من ذلك إلا ما يُحقق مصالحها، فهي غير معنية بذلك! ونتيجة لذلك نجد الظلم والعدوان هو السائد في العالم، وهو المتفشي بين تلك الدول العظمى في علاقتها مع الدول الضعيفة، فأين هو الإنصاف؟!

(١) سورة النازعات: ٣٧-٤١.

(٢) سورة الفرقان: ٤٣.

إذاً، نحن كبشر بحاجة ماسة إلى ثقافة العدل في كل جوانب حياتنا ومع الآخرين، حتى يسود بيننا السلام وتحقيق الكرامة الإنسانية؛ ومن هنا نجد القرآن والإسلام يؤكد على قيمة العدالة وتجلياتها وأبعادها والتي تحكم العلاقات بين أبناء البشر، وصور تعاطيها في كل المجالات. يقول الحق: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(١)، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، وفي الخطاب للمؤمنين هو أكد. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، فانظر وتأمل هذه الآية وما تضمنته من قيم وتحذيرات شديدة العظة واللهجة في قضية العدالة نشير إلى بعضها وهي:

١ - كان الحديث قبل هذه الآية هو الحديث عن الميثاق والعهود، وأن من الواجب الالتزام به، ثم انتقل بعد ذلك إلى الخطاب المباشر للمؤمنين حيث يذكرهم بالالتزام بالعدل في كل الشؤون، وأن يكونوا شهداء على ذلك بالقسط وهو العدل.

٢ - إن العداوات بينكم وبين الآخرين، أو لسبب في الاختلاف لا يكون مبرراً للظلم والإجحاف، بل يجب الالتزام الكامل بالعدل.

٣ - إن العدل هو من أهم قيم التقوى وتجلياتها، ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾،

(١) سورة الشعراء: ١٨٣.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) سورة المائدة: ٨.

أي من التقوى، ولذلك فالقضية ليست هامشية، بل هي تعكس التزام الإنسان بالمبادئ.

٤- ونجد في آخر الآية تحذيرًا شديدًا لمن يخالف ذلك من العقاب: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٥- وبعد هذه الآية مباشرة تؤكد على جزاء الصادقين والملتزمين بالقيم الصالحة، ومن أهمها هو الإنصاف حسب مفهوم السياق. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

من هنا؛ نجد ذلك التحذير الشديد ليس في هذه الآية فقط وإنما في كل السياقات التي تُشير إلى الظلم والانحراف بسبب الأهواء المتبعة، والتي هي أساس في ذلك كما أشرنا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٢)، وهو تحذير من الميولات التي تتفق مع الأهواء والمصالح الشخصية تكون على حساب الإنصاف للآخرين. كما ذكر القرآن سورة كاملة تُعنى بأهمية العدل والإنصاف وهي سورة (المطففين)، ففيها تحذير صريح من الظلم وبخس الحقوق، وهو مثال ونموذج سيئ يعكس ضعف الإيمان بالله وباليوم الآخر. قال تعالى: ﴿وَيْلٌٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ

(١) سورة المائدة: ٩.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾،
والويل مكان في جهنم، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ
وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾.

وما أحوجنا إلى هذه الثقافة في الاهتمام بجوهر الدين وقيمه ومبادئه
التي تعكس البعد الحضاري وليس فقط الديني والشرعي، ولذلك فإنَّ العدلَ
أساسُ الحكم وإدارة العباد والبلاد، أي يُجسّد السياسات الصحيحة التي
تحكم، ومن دونها نفتقد الديناميكية في البناء والحركة والنشاط والإصلاح،
وهذا ما ميّز حكم الإمام علي عليه السلام عن غيره حيث جسّد معالم ومبادئ
السّياسة لنظام الحكم وإدارة الشعب والحفاظ على مقدرات الأمة، وإذا
نظرنا إلى تلك التوجيهات والرسوم التي وُجّهت إلى عمّاله في الحكم نجد
تلك الاهتمامات والأوليات في ترسيخ المبادئ، ومن أهمها هو العدالة،
وهذه ما نجده بكل وضوح في عهده لمالك الأشرر رضوان الله عليه في نهج
البلاغة، حيث يقول: «أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَلَا تَكُنْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا
ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّ النَّاسَ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرُكَ فِي
الْخَلْقِ» ﴿٣﴾، فهذه الوثيقة ترسّم الحدود في السياسات الحاكمة والبرامج
المنفذة والمشاريع المخططة، عبر التأكيد على العدل مع الرعية والناس
كلهم؛ وعلى هذا الأساس والسياسات فهو يحارب ويُجرّم كل الانحرافات،
مثل التمييز والعنصرية والطبقية والطائفية والمحسوبيات مثل الرشاوى

(١) سورة المطففين: ١ - ٦.

(٢) سورة البقرة: ١٨٨.

(٣) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمته الله لما ولّاه مصر، ص ٤٢٧.

والوساطة، فكل ذلك هي آفات مُدمِّرة وانحرافات وظلم بحق النَّاس. ومن جملة أقواله وهو في الحكم والخلافة: «أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، وَأَكُونُ لَهُمْ أُسْوَةً فِي جُشُوبَةِ الْعِيشِ، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِبَيْتِنِي وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنٌ إِلَى الْقَدِّ»^(١).
وحتى عند ضربه وقبل وفاته يُؤكِّد على أهمية العدالة والالتزام بذلك، أي لا تكون الجريمة البشعة في قتله ومكانته مُبرِّراً للتجاوز، وهو يخاطب أهل بيته: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، لَا أَلْفَيْنَكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا تَقُولُونَ: قَتَلَ عَلِيٌّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَلَا تُمَثِّلُوا»^(٢)، وفي كلام له أيضاً في هذا الجانب: «وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيِّتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لشيءٍ مِنَ الْحُطَامِ... وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(٣).

ولذلك نجد الفارق في السياسات بين من يحكم باسم الإسلام لكنه بعيد عن ذلك كله نتيجة المكر والخداع واتباع الأهواء والطمع، فيُسخر كل شيء لصالحه ومن معه، أما الآخر الذي يخشى الله في نملته يسلبها جلب

(١) نهج البلاغة، ص ٤١٨.

(٢) نهج البلاغة، من وصية له عليه السلام للحسن والحسين رضي الله عنهما لما ضربه ابن ملجم لعنه الله، ص ٤٢٢.

(٣) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام يتبرأ من الظلم، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

شعير يقال له: ضعيف الشخصية، أو ليس له حظٌّ في فهم السياسات، فيقال للأول: داهية! فإذا ابتليت الأمة أو غيرها بهذا الفهم السقيم والسياسات العقيمة التي توصف بالغدر والنفاق فلا يمكن أن نتوقع إلا الذل والعار والانحطاط والتخلف.

ثالثاً: الأخلاق الإسلامية:

إذا كانت العدالة والمساواة هي جوهر الكرامة فإن الأخلاق هي السِّياج والحصن الذي يصونها، فلا يمكن أن نتصور وجود العدالة من دون وجود الأخلاق التي تُعبّر عن الضمير الإنساني، وكذلك عن حقيقة الإيمان والتقوى عند كل إنسان، فالدين هو الذي يغرس الأخلاق ويُجذّرها ويعمّقها لتصبح جزءاً لا يتجزأ من الثقافة والسلوك، ولذلك نجد كثيراً من النزاعات والصِّراعات والاختلافات ليس بسبب اختلاف الرأي، ولكن بسبب سوء الأخلاق.

وتتأكّد قيمة الأخلاق في ظل الاختلافات بين الناس؛ لما لها من تأثير في النفوس وأسر العقول. من هنا نجد الإسلام يولي اهتماماً بالغاً للأخلاق في كل الأبعاد وال ميادين، بين الإنسان ونفسه، وداخل الأسرة، وفي المجتمع، وبين كافة أبناء البشر، وتتأكّد في الدّعوة للدين، حتّى قال الرّسول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١)، وهذا البُعد في الرّسالة كافٍ في الاهتمام بالأخلاق وفي الدّعوة كركيزة أساسية، وقد بالغ الإسلام في قيمة الأخلاق خصوصاً مع النّاس حيث يقول الرّسول ﷺ: وقد اشتهر «الدينُ

(١) نهج الفصاحة، ص ٣٤٥.

المعاملة»، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾^(١) مثل رائع ومستوى عالٍ للأخلاق.

ويقول الصادق عليه السلام: «كُونُوا دُعَاةً إِلَى أَنْفُسِكُمْ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ»^(٢)، فلا يفهم من ذلك أن نُبلِّغ الإسلام من دون كلام، ولكن المهم أن نلتزم بالأخلاق؛ لأن الكلام من دون أخلاق له انعكاس وتأثير ومردود سلبي، ولذلك «نجد الكثير من أبناء الأمة يولون اهتمامًا بالعبادات وأحكامها لكنهم في الجانب الآخر يكفرون بالأخلاق في حياتهم ومع الناس وفي ظل الاختلافات»^(٣)، ونجد بالغ الأهمية للأخلاق في سبيل الدعوة وتبليغ الرسالة. يقول تعالى في خطابه للرسول ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٤)، واللين جانبٌ مهم في الدعوة والأخلاق، ففي الحديث: «مَا خَالَطَ اللَّيْنُ شَيْئًا إِلَّا زَانَهُ»^(٥)، وفي موطن آخر وهو يتحدث عن موقف الرسول ﷺ من قومه الذين اعترضوا رسالته واتخذوا موقفاً مضاداً: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾^(٦).

وفي ظلّ الانفتاح على البشرية عبر وسائل التواصل الاجتماعي ينبغي الاهتمام بقيمة الأخلاق مع الجميع، وخصوصاً ممن يختلفون معنا، وأن

(١) سورة التوبة: ٦.

(٢) المحاسن، ج ١، ص ١٨.

(٣) كلام للمرجع السيد محمد حسين فضل الله (عالم لبناني). منقول من اليوتيوب.

(٤) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٥) نزهة الناظر و تنبيه الخاطر، ص ٣٧.

(٦) سورة ق: ٤٥.

نتجنب كل كلام وكلمة جارحة، فالكلمة هي جزء من الأخلاق، وتعبير عن كل ما يحمله ويتبناه الإنسان من قيم ومبادئ، ولذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١)، وفي المقابل ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢)، فتدبر أهمية الكلام والكلمة والخطاب والدعوة بشكل عام، والفارق بين الكلمتين الطيبة والخبيثة.

ولذلك من المهم -خصوصاً من يضع نفسه موضع المبلغ لتعاليم الإسلام من علماء وخطباء وحتى من المؤلفين للكتب أو الكاتبين في مجال الإعلام والصحف والمقالات- أن يلتزموا بهذا الخلق والسلوك؛ لأنهم محاسبون أمام الله سبحانه؛ من هنا جاء الخطاب العام من أجل التقيّد به في الحديث مع الجميع دون استثناء. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(٣)، فالكلمة النّابية والجارحة قد تُحرّم كثيراً من الناس من الدّخول في الإسلام أو تمنع الهداية وتحجب الحقيقة؛ لأن ردّة الفعل قد تكون قاسية، مثل الشتم والسباب، أو التعبير والتحقيق، أو الحديث عن الخصوصيات، أو التعرّض للأشخاص والرموز وغير ذلك، والنّاس يختلفون في مستوى طباعهم وتفكيرهم وردود فعلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٤)، والغالب يتأثرون بمن قال لا بما قيل،

(١) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٦.

(٣) سورة الإسراء: ٥٣.

(٤) سورة الأنعام: ١٠٨.

ولذلك يقول الشاعر:

جَرَّاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا التَّيَّامُ وَلَا يَلْتَأُمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

والمقصود أن هذه الكلمة البسيطة في عدد حروفها لكنها تحمل وتتضمن الإساءة للآخرين، ولا يمكن تحديد عواقبها.

خلاصة: إن الأخلاق الإسلامية ذات أثر كبير على مستوى حياتنا وشخصياتنا، وكذلك في سبيل الخطاب والدعوة للناس واكتسابهم واحتوائهم، فلا يكفي الزعم بأننا على حق ومبدأ، أو نرفع شعارات هنا وهناك، فالإسلام منظومة متكاملة الأبعاد والأضلاع، فهي بمثابة (بكج) أي دفعة واحدة، لا يستهان بجانب منه، خصوصاً الأخلاق التي وُصِفَ بها الرسول الأعظم ﷺ الذي جاء متمماً للأخلاق، والتزم بها فأصبح قدوة ومثالاً عظيماً، فعبر عنه القرآن والوحي ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، والرسول ﷺ كله عظمة في كل شأن، لكن الأخلاق لها شأن خاص وقيل: إن ما دخل في الإسلام أيام الدعوة كان من أثر أخلاق الرسول ﷺ أكثر منه ما دخل بسبب القوة التي تنامت وتأرجحت، وهذا يخالف ويعارض المفهوم الخاطيء بأن الإسلام جاء بالرعب! ونتيجة لذلك ممن تبنا هذا المفهوم أصبحوا وبالأعلى الإسلام والعالم من خلال أخلاقهم السيئة وعنفوانهم وإرهابهم للناس وقتل الناس على الهوية! فقدموا صورة سيئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم، وهذا السبب هو أحد العوامل في تأخر المسلمين عن ركب الحضارة والتقدم، وفي العصر الحديث بشكل خاص.

(١) سورة القلم: ٤.

ولذلك بالرغم من كل الإنجازات التي حققها الإسلام خصوصاً في العصر الأول من تحولات وإصلاحات وبناء للدول المدنية في المدينة المنورة، والتوسع في أرجاء العالم، لم يكن كافياً في استمراره وتأثيره، والسبب هو تخلي المسلمين عن ثقافتهم الإنسانية والحضارية، ومن أبرزها هي الأخلاق، فالأخلاق هي أساس الديمومة والاستمرار، كما قال الشاعر:

إِنَّمَا الْأُمُّ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وتشير الآية الثالثة والخمسين من سورة الإسراء الآنفه إلى حقيقة خطيرة في الخطاب الدعوي أو الحديث مع الناس بشكل عام، وهو أن سوء الأخلاق والتعبير بالكلمات السيئة قد تكون مدخلاً للنزاعات والصراعات، بل أحياناً تؤدي إلى الحروب والقتل وكل ما يمليه علينا الشيطان، فيجب أن نحذر ذلك؛ لأنَّ الشيطان هو العدو الذي يتحين الفرص ويستغلها ليقلب الطاولة على عقب، ويُحدث من الأمور ما لا يحمد عقباه.

رابعاً: الخطاب المعتدل:

يرتكز الخطاب المعتدل على ركائز وهي:

أ- تحري الحقيقة والموضوعية:

ففي ظل الاختلافات، أو الدَّعوة للإسلام، أو الحديث مع الناس والآخر المختلف، يتطلَّب الأمر إثبات المصدقية عند الحديث عن الإسلام أو أي قضية تُنسب إليه بالخصوص، وذلك من خلال التثبت في تقديم الحقيقة، وجمع كل المعلومات والأدلة التي تُحيط بها، فهذا هو السبيل لإقناع الآخرين وبلوغ الهدف، أمَّا التنصُّل أو الكذب والخداع والزيف

فيعكس جانب الضعف والهروب، والإسلام الذي يهدف إلى هداية البشر ينطلق من الحقيقة لأنها ترمز إلى تلك المبادئ والقيم والثقافة السليمة، وكذلك إلى الموضوعية في نشر التعاليم.

إن تأكيد القرآن على الحق والحقيقة يبعث الاطمئنان في النفوس، واحترام النَّاس وعقولهم، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾^(١)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٢)، ويقول الإمام الصادق عليه السلام - في سياق رد بعض ما روي عنه وعن آبائه عليهم السلام -: «فَلَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا خِلَافَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّا إِن تَحَدَّثْنَا حَدَّثْنَا بِمُوَافَقَةِ الْقُرْآنِ وَمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ، إِنَّا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ نَحْدُثُ، وَلَا نَقُولُ: قَالَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَيَتَنَاقَضُ كَلَامُنَا، إِنَّ كَلَامَ آخِرِنَا مِثْلُ كَلَامِ أَوَّلِنَا، وَكَلَامِ أَوَّلِنَا مُصَدِّقٌ لِكَلَامِ آخِرِنَا، وَإِذَا أَتَاكُمْ مَنْ يُحَدِّثُكُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَرُدُّوهُ عَلَيْهِ وَقُولُوا: أَنْتَ أَعْلَمُ وَمَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ مَعَ كُلِّ قَوْلٍ مِنَّا حَقِيقَةً وَعَلَيْهِ نُورٌ، فَمَا لَا حَقِيقَةَ مَعَهُ وَلَا نُورَ عَلَيْهِ فَذَلِكَ قَوْلُ الشَّيْطَانِ»^{(٣)(٤)}.

(١) سورة يونس: ٣٢.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

(٣) بحار الأنوار، ط - بيروت، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٤) وفي هذا الشأن يتهم البعض الأئمة المعصومين عليهم السلام بأن ليس لهم رأي مستقل واجتهاد كما هو حال الأئمة الأربعة (أي أئمة أهل السنة والجماعة)، والجواب عن ذلك: أولاً، بأن ذلك يؤكّد على عصمة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام وأنهم يتلقون أمر الدين من الوحي النازل على رسول الله، ويعبرون عنه، وهذا دليل صوابهم وسدادهم وأنهم يمثلون الحق في كل أمر، وحديث الثقلين المتواتر يثبت هذا الحقيقة المطلقة، كما أن الواقع يشهد بذلك، وثانياً نجد التفاوت والتعارض بين تلك المذاهب فيما بينها، وبينها وبين تعاليم الإسلام والقرآن، مما يدل عن بُعدهم عن الالتزام بأساس الدين والأخذ بوصية الرسول الكريم صلوات الله عليه وآله، بالرجوع إلى الثقل الآخر بعد القرآن،

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَوْضُوعِيَةِ هُوَ الْحَدِيثُ عَنِ الْاِعْتِدَالِ، وَلَيْسَ كَمَا يُصَوِّرُهُ الْبَعْضُ بِأَنَّهُ يَنْطَلِقُ مِنْ مَدَارَاةٍ أَوْ مَجَامَلَةٍ، وَبِذَلِكَ يَتَجَنَّبُ الْإِنْسَانُ التَّكَلُّفَ وَالتَّصَنُّعَ، أَمَّا الْكَذِبُ وَالْمَرَاوِغَةُ مِنْ أَجْلِ إِفْحَامِ الْخَصْمِ وَالْمُخَاطَبِ فَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْعِرَاقِيلُ دُونَ الْوَصُولِ إِلَى النَّتِيجَةِ، وَقَبُولُ وَتَسْلِيمُ الْآخَرِ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ تَوْخِيُّ الْحَذَرِ مِنْ تِلْكَ الْمَوْرُوثَاتِ الدِّينِيَةِ الْخَاطِئَةِ بِالْخُصُوصِ، وَالْمَكْذُوبَةِ، فَهِيَ مِنْ جِهَةٍ تَطْعَنُ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَذَلِكَ تَزِيدُ مِنْ حِدَّةِ الْاِخْتِلَافَاتِ أَوْ الرِّفْضِ، وَكَمَا قِيلَ: «تَزِيدُ الطِّينَ بِلَّةً»^(١).

الخلاصة: كما أننا نطلب النَّاسَ الدَّلِيلَ والمُصَدِّقَةَ؛ فَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنْ نَطَالِبَ أَنْفُسَنَا بِذَلِكَ وَنَعْكُسَ هُويَتَنَا وَأَخْلَاقَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢)، وَالصَّدَقُ مَعَ النَّفْسِ وَمَعَ الْآخَرِينَ مِنْ أَهَمِّ قِيمِ وَثِقَافَةِ الْإِسْلَامِ، بَيْنَمَا الْكَذِبُ هُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ.

ب - الأسلوب الحسن:

فَهُوَ جُزْءٌ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ أَهْمِيَةِ الْحَقِيقَةِ وَصَحَّةِ الْفِكْرَةِ، وَهِيَ تَمَثِّلُ الْأَخْلَاقَ، وَإِنَّ غِيَابَ هَذِهِ الْخُلُقِ يَمَثِّلُ فِي الْغَالِبِ مَشْكَلَةً كَبِيرَةً فِي الْحَدِيثِ مَعَ النَّاسِ وَفِي ظِلِّ التَّحَاوُرِ وَالْخُطَابِ أَوْ الدَّعْوَةِ. إِنَّ تَأْكِيدَ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ

فَلَا نَسْتَغْرِبُ وَجُودَ هَذَا الْاِنْحِرَافِ وَالضَّلَالِ فِي مَعْتَقَدَاتِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ. يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الشَّأْنِ:

ينجيك يوم الحشر من لهب النار	إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهبا
وأحمد والمروي عن كعب احبار	فدع عنك قول الشافعي ومالك
روى جدنا عن جبرئيل عن الباري	ووال اناساً قولهم وحديثهم

(١) ومثال على ذلك حديث (إرضاع الكبير) كما هو في الصحاح.
(٢) سورة النمل: ٦٤.

على أهمية الأسلوب الحسن هو تأكيد على:

١ - أهمية الحقيقة أو المبدأ الذي يتبنّاه الإنسان.

٢ - يمثل العناية بحفظ كرامة الإنسان واحترام حقوقه فيما يعتقد به من دين وعقيدة ورأي، فلا يصح انتهاك هذه الحقوق أو مصادرتها، وإذا كان المطلوب إقناع الآخرين بخطأ وانحراف في وجهتهم ومواقفهم فهذا لا يعني الاستخفاف بهم، بل يجب في الأساس قبول الآخر كما هو وما يمثله.

٣ - يمثل قوة في التأثير والجاذبية للقلوب والمشاعر، ولذلك نجد البعض يتبنّى فكرًا صحيحًا، ولكنه يفتقد الأسلوب لإيصال الفكرة والحقيقة، فلا يحظى بالاحترام والتقدير، فالقرآن صريح في أهمية الأسلوب للتأثير على الناس، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، فالنّاس فُطِروا على محبة مَنْ أحسن إليهم، وحينما يؤكّد القرآن على صيغة التفضيل، فهو يؤكّد في الواقع على الإعداد الجيد ليس فقط في إيصال الفكرة وإقناع الناس إنما أيضًا الاهتمام بالأسلوب الأفضل والأحسن.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأسلوب الحسن يتجسّد في كل حركة وطريقة تعبير اتّجاه الآخر، وبلغة العصر (لغة الجسد)، فهي التي تحكي وتعبّر عمّا يختلج في الصدور، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «مَا اضْمَرَ المرءُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَظَهَرَ عَلَى قَسَمَاتٍ وَجْهِهِ»^(٢)، وآخر: «تَكَلَّمُوا تُعَرَفُوا»^(٣).

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) نهج البلاغة.

(٣) نهج البلاغة، ص ٥٤٥.

إذاً، نحن بحاجة إلى الاهتمام بكل حركة وكلمة تُعبر عن شخصيتنا وقيمنا ومبادئنا وتقديرنا للآخرين، وحتى طريقة جلوسنا، فهنا حركات مختلفة منها حركة الكلمة والإشارة سواء باليد أو النظر أو بكامل الجسد، وبالخصوص عند الانفعال والغضب، فقد تكون الاستجابة مختلفة عن الوضع العادي، وكثيراً ما تصدر تصرفات غير عادية عند كثير من الناس عند الحوارات والنقاش، ولذلك فإن مقياس ردّات الفعل هي المحك والمؤشر والمعيار لضبط السلوك، ومن الأهمية وهنا نشير إلى بعدين أساسيين يجسّدان الأسلوب الحسن ولهما أهمية بالغة:

أ- الاهتمام بالآداب والسلوك:

وهنا نسترشد ببعض الروايات وهي كثيرة، نذكر منها ما يناسب المقام، يقول الإمام علي عليه السلام: «رَوْضُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(١)، وقال: «الْعِلْمُ وَرِاثَةُ كَرِيمَةٍ وَالْآدَابُ حُلٌّ مُجَدِّدَةٌ وَالْفِكْرُ مِرَاةٌ صَافِيَةٌ»^(٢)، وقال: «لَا نَسَبَ أَنْفَعُ مِنَ الْحِلْمِ، وَلَا حَسَبَ أَنْفَعُ مِنَ الْآدَبِ، وَلَا نَصَبَ أَوْجَعُ مِنَ الْغَضَبِ»^(٣). إن مثل هذه التوصيات والتوجيهات تُثبت لنا حقيقة وأهمية الآداب الإسلامية، فهي تعكس النموذج الصحيح في الالتزام بالدين والأخلاق.

(١) تحف العقول، ص ١١١.

(٢) نهج البلاغة، ص ٤٦٩.

(٣) كنز الفوائد، ج ١، ص ٣١٩.

ب- حسن الاستماع والإنصات:

كثيرٌ من النَّاسِ أيضًا يغفل عن هذا الجانب، فقد يكون من الطبيعي أن يُكثر الإنسان من الكلام، ولكن قد يعجز عن القدرة على الصمت والسكوت والاستماع إلى الآخر، إمَّا شعورًا بالتفوق أو جهلاً بآداب الحوار، بينما الصمت للاستماع موهبة وقدرة خلَّاقة كثير لا يجيدونها. إنها عادة حسنة وسلوك حضاري يتطلَّب مهارة ودبلوماسية حكيمة لتحقيق المراد. ولأنها مهارة فتحتاج إلى تربية واكتساب. فالصمت لغة جميلة وجذابة خصوصًا حينما يتحدَّث الآخرون، فهي تُحقِّق أمرين في الوقت نفسه: الأول القدرة على الفهم والاستيعاب، والثاني اكتساب تقدير الآخرين. يقول الشاعر أبو العتاهية:

يَخْوِضُ أَنَاْسٌ فِي الْكَلَامِ لِيُوجِزُوا وَلَلصَّمْتُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَوْجَزُ
إِذَا كُنْتَ عَنْ أَنْ تُحْسِنَ الصَّمْتَ عَاجِزًا فَأَنْتَ عَنِ الْإِبْلَاحِ فِي الْقَوْلِ أَعْجَزُ

إنَّ الحديثَ عن أهمية الاستماع في القرآن ذو أهمية، إذ يُشير إلى علاقة الاستماع بالعقل، والإنسان العاقل يعرف متى يتحدَّث ومتى ينصت، وكيف يستغل العقلاء سكوتهم في تحقيق الاستفادة الكاملة، والبحث عن الحقيقة المرجوة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)، أي أصحاب العقول.

وهناك فرق بين السمع والاستماع، فالأول يحدث اتِّفاقًا ومن دون

(١) سورة الزمر: ١٧ - ١٨.

التفات، أما الثاني فهو طلب وتحصيل للفهم، أي بإرادة. وعلى سبيل المثال فلقد أوصانا القرآن حين يُتلى وأثناء حضور النَّاس أن يصغوا ويستمعوا للذكر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١). وقال البعض: «الفرق بين الاستماع الذي هو طلب السماع مع حضور القلب والعقل، والإنصات هو السكوت وحسن الإصغاء وترك التحدث أو الانشغال». وهذا هو المطلوب في النقاشات والحوارات الجادة وفي ظل الاختلافات وتعدد وجهات النظر واختلاف الرأي. وسوف نشير إلى أهمية ذلك في الدراسة مع بقية الأمور والجوانب الأخرى المتعلقة بالأسلوب الحسن. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الشأن: «إِذَا أزدَحَمَ الصَّوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ»^(٢).

وتشير الآية إلى البشارة للعباد نتيجة الاستماع، أي طلب الحقيقة والاستفادة. لكن من الحكمة من الجمع بين طلب الاستماع والإنصات حيث لا يجتمعان، والجواب ربما تكون طائفة تستمع وأخرى تتحدث في مجلس واحد، وليس المقصود نفس الطائفة المستمعة، فالمطلوب من الجميع الاستماع والإنصات.

ج- روح التسامح:

المقصود من التسامح مراعاة ظروف الآخرين وما يتبنونه من عقيدة أو فكر أو عادات وثقافات، وكل العوامل التي تُحيط بهم والتي أفضت

(١) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٢) نهج البلاغة خطب الإمام علي عليه السلام ص ٥٤.

إلى الاختلافات أو البُعد عن الحقيقة والهدى، ومن أجل ذلك أرسل الله للناس الرُّسل للهداية وما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، فالانحرافات والاختلافات أمر طبيعي في حياة البشر، بمعنى قد تكون هناك ظروف بيئية فاسدة أو منحرفة أو تربوية، بل نجدها هي الغالبة في بعض المجتمعات، وحتى نجد بعض الانحرافات والاختلافات في الدول العربية والإسلامية فكيف غيرها، كما نجد الاختلاف في الرأي بين المؤمنين والصالحين، وعلى هذا الأساس ينبغي:

١ - أن نعي هذه الحقيقة، وأن نقبل الآخر كما هو وما يُمثله. بمعنى آخر أن تكون هناك قابلية في الحديث والحوار مع الآخر مهما كان هناك من اختلافات عميقة أو بُعد نفسي؛ لأن المطلوب في النهاية هو هداية الآخرين وإقناعهم، ومن كان له هدفٌ سامٌ مثل الدعوة للحق والدين فهو أولى بأن تكون له هذه الرؤية وسعة الصدر والأفق؛ ولذلك قد يتطلب الأمر في التأثير الاستمرار والتواصل وليس مرة واحدة، وقد يتطلب الأمر كذلك ليس الحوار المباشر، بل أحياناً يكون بالمراسلات، خصوصاً في عصرنا الحاضر حيث تعدد وسائل التواصل الاجتماعي.

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

٢- التسامح وتقديم الأعذار كمدخل لأي حوار ونقاش، فهذا أخرى بالقبول والتجاوب والتفاعل من الآخرين، فالتسامح يُشكّل أرضية مهمّة ومُهيّئة للنقاش أو الحوار والحديث، لكن نجد البعض يركّز على العيوب والنواقص والأخطاء أو الانحرافات في بدء الأمر عند الآخرين، ممّا يتسبّب في ردّات الفعل والنفور والمشاجرة، ويُفقد الحوار والنقاش بريقه وأهدافه، فمن هو الخاسر الأكبر؟

ولذلك يؤكّد مَنْ لهم فكر نيرّ وباع في الحوارات والنقاشات أن يتمّ التركيز على النقاط الإيجابية والمشاركات سواء في العقيدة والدّين أو القضايا المصيرية بالخصوص وما يرتبط بمصالح النّاس، وأن نغضّ النّظر عن كل الأسباب التي تعكّر الحوار. وليس المقصود -كما يُفهم- التنازل عن الحقيقة. ولقد أشرنا من قبل أن من أهم ركائز الخطاب المعتدل هو تحرّي الحقيقة، لكن الوصول للحق والحقيقة له كثير من الطرق والوسائل، من هنا يجب مراعاة الحكمة قبل كل شيء،

وأكد القرآن على قيمة الحكمة قبل الموعظة من أجل تجنّب الانحراف في الحوار أو الانعكاسات السلبية من ردود الفعل، فالحكمة مراعاة الظروف التي تُحيط بالآخرين -كما أشرنا- من حيث الأشخاص أو المجتمع أو المكان والزمان وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، والآية تُشير إلى حقائق

(١) سورة النحل: ١٢٥.

مهمّة في الدّعوة أو الحوار أو النقاش وفي غاية التأثير، وهي تُفضي في الواقع إلى قضية ومبدأ التسامح، فنجد:

أ - التّأكيد على مبدأ الحكمة قبل الدّعوة والحديث مع الآخرين.

ب - الموعظة الحسنة، والحسنة صفة وقيد للموعظة، بالأّ تكون الموعظة غير مناسبة لمقتضى الحال، وإلّا أصبحت مخالفة من نواح كثيرة شرعية أو أخلاقية وحتى عقلية وعرفية، وقد ينجم عن ذلك آثار عكسية وغير مرضيّة، ومن هنا نجد أن الخطاب في القرآن جاء مُتنوّعاً، حسب المخاطب (بالفتح)، فالحديث والخطاب مع الكفّار يختلف عن المنافقين، ومع النّاس كافة، ومع المؤمنين خاصة، فتأمّل رعاك الله.

ج - التّأكيد على الجدال الحَسَن، أي الهادف والإيجابي، وهو ما يُميّزه عن الجدال العقيم والسيّئ، الذي يهدف إلى تزيف الحقائق والانحراف عن هدف وموضوع النقاش والحديث، أو الصد عن تأثير الدّعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾^(١)، والآية وإن جاءت لدعوة أهل الكتاب، لكن من الواضح أن العبرة بالوارد وليس بالمورد، وحسب المصطلح «المورد لا يُخصّص الوارد»، فالجدال الحَسَن مطلوبٌ مع الجميع، ويتأكّد مع الدّيانات الأخرى، وهو يؤكّد على قضية التسامح.

وهنا وجهة نظر أخرى وهي مع أهمية الحوار والجدال الحسن لكن

(١) سورة الكهف: ٥٦

باستثناء المعاندين والجاحدين والمكذبين، فليس مطلقاً، أمثال الصهاينة أو المتشددين من السلفية، وقد أشار القرآن إلى ذلك قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢).

د- أن المطلوب في أي حوار بل في الدعوة للدين والهداية وفي النقاشات هو توصيل الفكرة والرسالة، ليس إلّا، أما إحداث التغيير في نفوس ومواقف الآخرين وتغيير معتقداتهم وأفكارهم، فهذه مهمة خارجة عن إرادة البشر؛ لأن مصير الناس بيد الله سبحانه، فهو الهادي إلى سواء السبيل وله المنة على ذلك، والقرآن صريح في ذلك. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤)، وقال بشكل لا لبس فيه وهو يخاطب الرسول ﷺ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٥)، لأن العقيدة محلها القلب، فهل يمكن أن يسيطر الإنسان على القلوب؟! وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ

(١) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٢.

(٤) سورة القصص: ٥٦.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٦.

الْأَكْبَرُ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١﴾، وقال أيضًا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٢﴾.

وخلاصة الكلام: وردنا كثير من الآيات على فكرة التسامح لتكون القضية حاسمة ويكون المنطلق واضحًا، وكذلك الوسيلة لتحقيق الغاية، وهنا نشير إلى أن الغاية لا تُبرّر الوسيلة في كل الشؤون والمجالات وحتى في قضية الحوار، لكن البعض لا يلتزم بذلك، فمن أجل هداية الناس أو التأثير عليهم يستخدم الأساليب غير المناسبة مُبرّرًا ذلك بالغاية الشريفة، وهذا خطأ كبير يقع فيه كثير من المحاورين ومن يُقدّمون أنفسهم دعاة ومُبلّغين وخطباء، فيتجاوزون الخطوط الحمراء، ويخالفون القرآن وسيرة الرسل وهم القدوة.

إن القرآن يُقدّم لنا دروسًا وعِظات في كل المجالات، وبالأخص في الدّعوة إلى الله سبحانه، فكما أن الغاية شريفة، يجب أن تكون الوسيلة كذلك، وإن النتائج بعد ذلك بيد الله، فله الأمر من قبل ومن بعد، ومن يتجاوز عن ذلك فهو متجاوز عن حدود الله، ومن يتعدّد حدود الله فلا شكّ سوف ينال عقابه. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ ﴿٣﴾، ولذلك العاقبة تكون للمتقين دائماً، أي الذين يخافون ربّهم ويلتزمون بقواعد الإسلام والدين، فتأمل.

(١) سورة الغاشية: ٢١ - ٢٦.

(٢) سورة ق: ٤٥.

(٣) سورة النجم: ٣٠.

خامساً: الحوار النّاجح:

الحوار النّاجح والإيجابي يرتكز على أمور أيضاً، منها:

أ- الإيمان بمبدأ الحوار:

أي أن تكون هناك قناعة كافية بأن الحوار من أهم الطرق والسُّبل في إصلاح المشكلات وسوء التفاهم، وكذلك في ظل الاختلافات المتشعبة والبينية وتعدد الآراء ووجهات النظر، وكلما كان الإنسان يحمل مبادئ وقيماً يدعو لها كان أحوج إلى الحوار والتفاهم مع الناس، أمّا مَنْ يعتقد بأن الحوار لا فائدة فيه، أو مضيعة للوقت، لأسباب معينة فهو يُجانب الصواب. وأحياناً البعض يعتقد بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة وأنه لا يحتاج أن يبرهن ذلك، أو يشارك الناس هذه الحقيقة، بسبب الجهل أو التعصّب، وهذا خطأ فادح وكبير، فمن يعتقد بأنه على صواب فمن الأرجح أن يبرهن ذلك للناس عبر كل السُّبل، ومن أهمها الحوارات والتفاهمات، ولذلك يُؤكّد القرآن على مسألة الحوار بكل جوانبه ومهامه ومع كل الجهات المختلفة، وذلك من أجل هداية الناس وتبيان الحق والحقيقة، فنجدّه يدعو الأديان للحوار ويبادر إلى ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)، فالإسلام كعقيدة ورسالة هو أحوج للحوار لهداية البشرية عبر الحوار وإزالة الاختلافات وتبيان الحقيقة ولكن بأسلوب حسن ورفيع ولغة تفاهم ممتازة وليس أيّ كلام.

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

يقول الفقيه الشيخ مغنية^(١): «إن العقيدة الحقّة هي أحوج للناس والأتباع أكثر من حاجة الناس إليها»، والمقصود هو ما ذكر من أجل الهداية، من هنا تأتي أهمية المبادرة والدعوة للحوار من قبل أهل الحق، ولا ينتظرون من الآخرين، فكلما كانت هناك حوارات مختلفة وتفاهات متعددة وعلى كل الصعد تحققت نجاحات وإنجازات خصوصاً على الصعيد الإنساني؛ لأن الإنسان هو حجر الزاوية كما يُقال، فهو المعني في الأساس.

ونجد بعض أهل الحق يكتفون بعقيدتهم أو مواقفهم ومن خلال الشعور بالعزّة أحياناً أو الشعور بعدم الحاجة والاكتفاء، ولا يشعرون بالواجب والمسؤولية، وهذا قد يكون سبباً للعزلة أو الإقصاء أو عدم الاعتراف بهم خصوصاً إذا كانوا قلة في بلاد ووطن، وهو يُشكّل عبئاً على هذه الطائفة أو تلك، وكان المطلوب والصحيح هو التعريف بالحق والاندماج والانسجام، ولذلك من الضروري وجود ثقافة عامة ووعي في هذا الطريق وكسب الناس وتحقيق المصالح الحياتية وحتى الدينية، فالانغلاق بذاته يُنتج مشكلة وأزمة لا يمكن حلّها إلّا بالانفتاح والتواصل والحوار والتفاهم وكذلك الأخلاق الحسنة.

ونرى التعصّب المقيت في تلك العقائد الفاسدة والمنحرفة التي لا تؤمن بالحوار فضلاً عن جدوائيته، فتسعى لإقصاء الآخرين أو عدم الاعتراف بهم وبحقوقهم، ويضرب القرآن مثلاً باليهود بعد تحريف كتبهم الأساسية، حيث تكرّست فيهم تلك العقائد والمفاهيم المغلوطة كإيمانهم بأنهم شعب

(١) عالم فقيه من جبل عامل، وسوف نأتي على ترجمته في باب سيرة العلماء في آخر الكتاب.

الله المختار وأن البشر ما هم إلا خدم وعبيد وكائنات تافهة، وأن الناس خُلقوا من أجل خدمة الشعب اليهودي، وقد فضحهم الله وكشف هذا الزيف والانحراف والضلال البعيد، فاجتمعت فيهم كل صفات الشر والخسة والندالة، لكن الله ابتلاهم بكثير من الأزمات والابتلاءات، ومنها أصبحوا أمة منبوذة حتى بين تلك الأمم والأديان الأخرى، فها هم شعب مشرد، وغير مرغوب فيه حتى من قبل تلك الدول التي سعت إلى توطينهم كما هو الحال في فلسطين، مثل الغرب وبالخصوص عند الأمة الألمانية، ممّا حدا بهم إلى التفكير باستيطانهم فلسطين المحتلة، خلاصاً منهم. وانظر ما فعل وارتكب المحتل بالمسلمين في فلسطين، والحديث في هذا الشأن ذو شجون.

وقد أشار القرآن إلى بعض عقائدهم المزيّفة فقال: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣)، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة: ١٣٥.

(٢) سورة البقرة: ٨٠.

(٣) سورة المائدة: ٦٤.

(٤) سورة البقرة: ١١١.

ولا شكَّ أنَّ مثل هذه التَّفكير والخطِرة والانحراف في العقيدة ينتج مثل تلك المواقف الرعنة من القتل والتدمير والفساد في الأرض وهلاك النسل ودون رحمة ولا اكتراث لقوانين وعهود ومواثيق وفي كل العصور. وفي عصرنا الحاضر وبسبب رعاية تلك الدول الاستكبارية التي تدعم هذا الكيان وبكل ما يحتاجه من قوة وعتاد وسلاح، بلغت إسرائيل ذروتها في الإجرام، وبلا حدود، ولذلك نجد التعصُّب والانحياز لمصالحها هو الطابع العام لكل سلوكها وسياساتها وثقافتها وتوسُّعها على حساب البشر والفلسطينيين بشكل خاص.

وذكر القرآن إلى جملة من مواقفهم وسلوكياتهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٢)، وتُشير الآية إلى حقائق مهمة في هذا الشأن بأن سبب كل هذه الانحرافات هم أولئك العلماء (الرهبان) الذي حرَّفوا الكتب من التوراة والإنجيل، ثم بعد ذلك كرَّسوا تلك الثقافة في المجتمعات اليهودية، ولذلك يعتبر الجهل في الأمة اليهودية سمة بارزة، وإن برعوا في المجالات الأخرى ومن خلال السيطرة والمكر والخداع والنصب، فاستولوا على أغلب المراكز المالية، وكذلك برعوا في سياسات الاستخبارات

(١) سورة آل عمران: ٧٥.

(٢) سورة البقرة: ١١٣.

بواسطة الجنس والدعارة، وقيل: هم من أسسوا البنوك الربوية في العالم، وسيطروا على المراكز والمناصب المهمة في تلك الدول التي تقود العالم اليوم بما فيها أمريكا. كما ينبغي هنا التفريق بين اليهود كأمة وبين الصهيونية العالمية ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾^(١)، فليس اليهود سواء. فهذه مسألة مهمة يجب الأخذ بها في ثقافتنا ورؤيتنا كي لا نظلم أحداً ولا نبخسه حقّه، وقد أثبتت الأحداث الأخيرة في فلسطين المحتلة بأن قسماً من اليهود سواء في الخارج أم الداخل ليسوا على قناعة كافية مع إسرائيل والصهيونية العالمية. فكثير من الشعب اليهودي غرّر به في مسألة الاحتلال من قبل الصهيونية والدول الاستكبارية. ونتيجة لذلك نجد أن الصهيونية وإسرائيل بشكل خاص لا ينفع معها الحوار؛ لأنها لا تُقيم وزناً وقيمة للإنسان أساساً فكيف يمكن أن تتقدّم وتتبنّى الحوار، إلّا إذا فُرض عليها من قبل تلك الدول الكبرى الحامية لها، ومع ذلك لا تفي بأيّ اتفاق أو عهود ومواثيق مهما كانت، فهذه طبيعة متأصلة في حياتهم ومسيرتهم وأطماعهم، فكما أسلفنا فهم يعتقدون بأنهم شعبُ الله المختار.

الخلاصة: إن مبدأ الحوار بحاجة ماسّة إلى إيمان وعقيدة وثقافة سليمة كي تدفع الإنسان نحو لغة التفاهم والمصالحة مع الآخرين، وهذه المصالحة تبدأ مع الإنسان نفسه أولاً، حتّى يستطيع تحقيق علاقة إيجابية مع الناس، ومن دون ذلك لا يمكن أن نقرب من هذا البُعد الحضاري.

وهذا التعصّب لا يقتصر على الأمة اليهودية أو النصرانية، بل ابتليت

(١) سورة آل عمران: ٧٥.

الأمة الإسلامية بمثل ذلك أو أشد، ولهذا تجد التناحر والقتال والصراعات والفتن تنخر في هذا الجسد، حيث تجد لغة التكفير والإرهاب من أكبر الظواهر والجرائم في العصر الحديث، فكيف يمكن أن تسود لغة الحوار والتفاهم؟ فلا بُدَّ أولاً من تصفية الموروثات الخاطئة وإزالة كل المَعَوَّقات الفكرية والعقدية التي أصابت رؤيتنا وثقافتنا اتجاه الآخر، ولقد صدق الرسول ﷺ حيث يقول: «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، وَسُئِلَ مِنْ هُمُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: نَعَمْ»^(١)، لذلك نقول: إن أيَّ مجتمع أو وطن يسعى لتحقيق السَّلام والتعايش لا بُدَّ له أن ينشر ثقافة الحوار والتسامح، ويساوي بين الجميع تحت مظلة العيش المشترك ووحدة المصير ومن أجل تحقيق التطلعات الكبرى من التقدم والازدهار.

وإذا ترسخت هذه الثقافة خصوصاً في ظل تعدُّد الهويات والديانات والاختلافات في الرأي أصبح ذلك التنوع مكسباً وثراءً وبناءً، ويكون هذا المجتمع أو الوطن مرشحاً لتحقيق ما يمكن تحقيقه، حيث ينصبُّ الاهتمام على الاهتمامات الحياتية والحضارية. وعكس ذلك تماماً حينما تكون هناك سياسة إقصائية أو استبدادية، وتنعدم فيه لغة التفاهم والحوار، فسوف يتعرَّض المجتمع إلى الانتكاسات بسبب الصراعات التي تُفضي إلى التراجع

(١) (لتتبعن سنن) الحديث أورده العلامة المجلسي في بحار الأنوار، وتفسير الميزان والقمي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وكذلك كتب ومصادر السنة البخاري ومسلم. وورد بعبارات أخرى مثل «لتحدوا حدوهم القذة بالقذة» وسائل الشيعة، ج١٧، ص ٧٣.

والتخلف، ويعيش في دوامة المشكلات التي تُعيق الحركة والنشاط والفاعلية والحيوية، فليست المشكلة في هذا التنوع وذلك الاختلاف، إنما في المفاهيم والرؤى، وكذلك غياب لغة الحوار والتفاهم والتواصل.

ب- الإرادة والطموحات العالية:

في الحديث عن الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»، فحينما تكون هناك قضايا مصيرية وأهداف سامية وتطلعات خيرة، سوف تُسخر كل الإمكانيات والطاقات لتحقيق ذلك، كما يتم تجاوز الصعوبات والمشكلات، أو ترحيلها إلى وقت آخر، فالطموحات العالية من شأنها أن تُذلل الصعوبات والتحديات كما أشرنا، فكيف إذا كانت هذه الطموحات تنصب في مصالح وقضايا المجتمعات والأمة، ولذلك نجد لغة القادة والمصلحين ومن يحملون همَّ الأمة يرتكزون على نقاط القوة في كل الجوانب وينظرون للأمور برؤية ثابتة وواسعة تتجاوز الأمور الآنية والظروف المحيطة، ويمتازون في حواراتهم وخطبهم وتوجيهاتهم بالحكمة والرؤية وسعة الأفق، فهم دائماً مُتقدِّمون على غيرهم من الناس في تفكيرهم وسياستهم وأدوارهم، فأصبحوا كما أرادوا قادة، ومن الطبيعي أن يثق بهم الناس ويتبنون رؤيتهم، ومواقفهم.

وهكذا نحتاج في الحوارات المختلفة خصوصاً الجادة والتي تتعلق بمصير الناس والمجتمعات والسياسات أن تنطلق من هذا البعد والأفق، كي تتحقق الآمال والتطلعات المشروعة. إن التردد أو التلكؤ أو ضعف الهمم هو من أسباب الفشل في كثير من الأمور والقضايا وليس فقط في الحوارات.

وفي هذا المجال يقول الإمام علي عليه السلام: «الإنسان بهمته كما يطير الطير بجناحيه»^(١)، «المرء حيث وضع نفسه»^(٢)، ويقول الشاعر:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفِ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ

خلاصة: إن الطموحات العالية هي من شيم الكبار والقادة والمصلحين، ولذلك من أهم صفاتهم هي الصبر على البلاء والظروف القاسية، ومواجهة التحديات فلا يملون ولا يكلون، بل هم في استمرار دائم نحو الهدف. كما قال تعالى في وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)، وعزم الأمور أي الطموحات العالية، فهي سبب للتسامي عن الخلافات والمشكلات.

ج- التأكيد على القواسم المشتركة:

نجد في القرآن الذي يمثل الحق والطرق والأساليب الناجعة التي لا تنفصل عن الغايات والأهداف، هو التأكيد في أي دعوة أو حوار جاد وفي ظل الاختلافات البينية؛ هو التأكيد على القواسم المشتركة والأساسية والرئيسية، لتكون هي الأرضية لانطلاق الحوارات والتفاهات، مما يعطي دفعة معنوية ونفسية عند الفرقاء والمتحاورين، مهما اتسعت رقعة الخلافات، فهذه القواسم تؤكد صحة المنطلقات والمبادئ، وليس التنازل عنها كما يظن

(١) نهج البلاغة والحياة من موقع الإمام الشيرازي.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ١٠٤.

(٣) سورة لقمان: ١٧.

البعض، فالمشتركات تُمثّل عجيبة يُراد منها الوصول إلى الأهداف المشتركة والتقارب وليس بالضرورة الاتفاق على كل شيء، وتُعتبر القواسم دائماً بادرة خير في معالجة الأزمات والمشكلات والصعوبات. أمّا الوقوف عند السلبيات أو العيوب وما يصحبه من مواقف وتشنّجات سوف ينعكس سلباً وردوداً، ولذلك القرآن وهو كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل بين يديه، وهو العالم بشأن العباد وما يُصلحهم، يُؤكّد على هذا البعد الحيوي والأخلاقي والإنساني وكذلك الإيمان، أي الإيمان قد يكون هو الدافع الأكبر لكل ذلك من الأمور والقيم.

وحريّ بنا أن نكتسب هذه المهارات والسلوكيات والحكم من القرآن والدين الإسلامي، فنجد في دعوة الإسلام لأهل الكتاب سلوكاً حضارياً وأسلوباً رائعاً وقيمة إنسانية رفيعة، وكذلك في سيرة الرسول الأعظم ﷺ فهو القدوة في تطبيق رسالة الإسلام في كل الأبعاد، ولذلك يأمرنا القرآن بالطاعة الكاملة للرسول ﷺ لأنها تُمثّل طاعة الله ومنهاجه في كل الجوانب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١)، فاتّباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به هو طريق الفلاح، وهكذا أيضاً اتّباع أهل بيته ﷺ الذي يُمثّلون امتداداً واقتداءً بالرسول الأكرم ﷺ ونص عليهم، فنجد الله سبحانه يُوجّه الخطاب إلى

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

الرَّسُول ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)، فهنا الخطاب إلى أهل الرسالات السماوية قبل أن تُحرّف، والتي تُؤكّد على وحدانية الله سبحانه، فهذا أهم أمر مرتكز وقاسم مشترك بين كل الرسالات، لا يشذ عنها أحد، ومعنى الكلمة أي مبدأ صريح وواضح لا يقبل الجدل والنقاش، وعلى هذا الأساس تُبنى كل الأفكار والرؤى والمسوّغات في الدّعوة.

ولذلك نجد الخطاب في الدّعوة يختلف حسب جهة المخاطب؛ لأن الفروقات لها مدخلية في تحديد لغة الحوار، فهناك لغة مشتركة كما هو الحال مع أهل الأديان السماوية إنسانياً وعقديّاً، ولغة تنعدم فيها كل القواسم المشتركة مثل الخطاب مع الكفار والمشرّكين، وهناك لغة عامّة مع النّاس، ولغة خاصة مع المسلمين كافة ومنهم المنافقون، ولغة أخص مع المؤمنين، وعلى أساس ذلك تختلف طبيعة الخطاب والأدوات والآليات المستعانة، فنجد الخطاب مع الكفار إبّان الدّعوة يتّخذ أسلوب الصرامة والقطع دون لين أو محاباة عند عنادهم وتكذيبهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢).

هذا في بداية الدّعوة وانطلاقها، أما مع مر العصور فإن الخطاب يختلف، فالزمان والمكان وكذلك الظروف والتحوّلات والمصالح المشتركة

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

(٢) سورة الكافرون: ١-٦.

الدنيوية التي يشهدها العالم لها مدخلية وتأثير، فلا بُدَّ من مراعاة الحكمة في ذلك، ولذلك يقول «بعض العلماء في حكم المرتد عن الإسلام بأنه يحقق في أمره، فربما يكون عن شبهات قد عرضت عليه، مما يحتاج إلى تأنٍّ في الحكم» المرجع الشيرازي رحمته الله. كذلك الحال في المنافقين حيث جاء الخطاب في حقهم شديداً ومُغلظاً، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١)، وهنا نفس الكلام إذ كانت الدَّعوة في الماضي تحتاج لمن ينصرها ويقوِّي شوكتها لا لمن يخذلها، كما أن طبيعة المكان والجغرافيا تعتبر فاصلة، وأما تطبيقه اليوم يختلف في التعامل والعلاقة، كما أشرنا، لا بُدَّ من الدراسة الموضوعية في إصدار الأحكام والقرارات والفتاوى.

عوداً على بدء، فنجد أن الخطاب الذي تشير إليه الآية يبدأ:

١ - بقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهو إشارة واضحة لترسيخ فكرة المبادئ المشتركة، وهو مبدأ التوحيد، فهو يشكِّل القاعدة الأساسية والمنطلق لكل الحوارات والاختلافات. وألف لام العهدية في الكتاب أي الرسالة قبل التحريف.

٢ - وكلمة ﴿تَعَالَوْا﴾ فيها من العطف والحنية وتأتي بمعنى (هلموا)، فهناك إحياء لجمع الكلمة وتحقيق الاتفاق والإيمان الراسخ وهو التوحيد، وكأن الرسول ﷺ يخاطب ضيفاً عزيزاً عليه حتَّى يقابل بالود والاستئناس. ولا يفهم منها الأمر قطعاً.

(١) سورة التحريم: ٩.

٣- وكلمة ﴿سَوَاءٌ﴾ أي عدل حسب كلام المفسرين، وهي كلمة حق لا يختلف فيها عاقلان واثنان. وليس يفهم من سواء التسوية بين الطرفين؛ لأن الفوارق كثيرة بين ملة الإسلام والملل والأديان الأخرى، فالمخاطبون هم من عاصروا الإسلام آنذاك، أي لمّا دخلوا في الإسلام. وعلى أساس ذلك تنطلق الحوارات والمحادثات في جوٍّ من التقارب والانسجام والتفاهم، من خلال التأكيد على القواسم، أي عبودية الله سبحانه وتحرير الإنسان من عتق الربوبية لغير الله سبحانه، وأما بقية التفاصيل فتأتي فيما بعد عبر الإقناع وأحقية الطاعة لله والالتزام بالمنهج الرباني الذي يكفل الخير والسعادة للبشر، أمّا حينما تكون هناك لغة جارحة أو تكفير أو إرهاب وغلظة لا يمكن بحال تحقيق مثل هذا التقارب فضلاً عن الحوار فتأمل.

ومن جانب آخر هو التأكيد على أهمية وأسلوب الدعوة خصوصاً لأهل الديانات مراعاة للفوارق حتّى مع وجود المشتركات. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، ومن جانب لأن الدعوة الإسلامية أيضاً جاءت متأخرة أولاً، أي هناك فاصل زمني بين الرسائل السابقة ورسالة الإسلام، وثانياً قد طالت هذه الرسائل يد التحريف، فاقترضت الحكمة أن يكون الخطاب والحوار يتطلّب الحكمة الموعظة الحسنة، والجدال الحسن أي الحوار والنقاشات والتفاهمات، وهو يختلف عن الموعظة التي تتضمن التبشير والتحذير من مغبة الكفر أو عدم الاستجابة، وتقديم الحكمة لأهميتها وأوليتها في الحوار، أي مراعاة الظروف

(١) سورة النحل: ١٢٥.

والمخاطبين (بالفتح)، ومما تعني أيضا المداراة، يقول الرسول ﷺ: «أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِالْفَرَائِضِ»^(١).

وصيغة التفضيل (أحسن) من التأكيدات المناسبة للحال، ومع ذلك نجد القرآن يتحدث عن عداوة اليهود، والمقصود هم الذين لم يستجيبوا للدعوة أو الحوار ولم يدخلوا في الإسلام، خصوصاً بعد أن رأوا وشاهدوا قوة وانتشار الإسلام آنذاك، فأصبحوا في مأزق، وهكذا هو حالهم في كل زمان ومكان لم يتغيروا، فقد توارثوا الأحقاد والضغائن والكره للإسلام ونبيه وأتباعه أعني المسلمين، إلا القليل منهم، في الماضي والحاضر، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

هذا حال النصاري في الماضي إبان الدعوة كما في قصة النجاشي ملك الحبشة، أما في الحاضر فالأمر مختلف بسبب تحريف الكتب. أمّا المشركون فأمرهم واضح؛ فهم غير أهل الكتاب، لا اختلاف العقيدة وعدم الإيمان، من هنا لا بُدَّ من التفريق بين أهل الكتاب والمشركين كما هو في سورة البينة. قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، الواو للمغايرة، فعند المفاصلة والمباهلة، التي جمعت الرسول ﷺ وأهل بيته دخل الكثير من النصاري الإسلام، والتي أشار إليها القرآن: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

(١) الكافي، ج ٢، ص ١١٧. البحار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٤٤٠.

(٢) سورة المائدة: ٨٢.

وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِّلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ^(١). وهذا المباهلة أسلوب في الحوار له خصوصية معينة وشروط سوف نأتي على ذكرها في الحوار في القرآن. ولا يفهم أن صيغة الأحسن خاصة بأهل الكتاب، كلاً، لأن إثبات الشيء لشيء أو جهة لا يقتضي نفيه عن غيره، بل قد يكون من باب أولى للمسلمين، فتأمل.

والخلاصة: ينبغي في هذا العصر الدعوة للحوار كما كان في الماضي، بل إن في العصر الحديث يتأكد الحوار والتقارب في ظل الانفتاح حيث أصبح العالم قرية واحدة وما فوقها، أضف إلى أن الحضارة المادية اليوم أصبحت وبالأعلى البشرية بسبب الانحرافات الكثيرة والانحطاط المتزايد التي أفقدت الإنسان المادي والغربي بالخصوص الثقة بهذه الحضارة برغم تفوقها في العلوم وميادين الحياة لكن في ظل انعدام القيم والمبادئ والكرامة الإنسانية، فهذه الحضارة تثبت يوماً بعد يوم فشلها في تحقيق السلام العالمي، وفشلها على صعيد الحقوق الإنسانية، وفشلها كذلك على صعيد إدارة الأزمات الحضارية.

وأكثر الصّراعات والحروب والدمار والفساد في العالم هو نتيجة قيم وسلوك وأطماع تلك الدول التي تدعي لنفسها الحق المطلق في التصرف في هذا الكون، فهي تمارس صلاحيات الإله في الأرض. وتدعي ذلك حتى ولو لم تعلن صراحة، لكن كل الحقائق والشواهد والأحداث والمواقف وكذلك السياسات تدل على حقيقتها ووجهها السافر أمام العالم، فهي لا تؤمن إلا

(١) سورة آل عمران: ٦١.

بالقوة والسيطرة والهيمنة على مقدرات الشعوب وخياراتها، وتضع لكل ذلك ما يكفل ويؤمن لها المصالح مثل محكمة العدل الدولية ومراكز حقوق الإنسان ومراكز الثروات المالية، فكل شيء تحت قبضتها؛ فهل مثل هذه الدول والسياسات تقبل بالحوار أو التقارب أو حتى الجلوس مع الآخرين باحترام وتقدير؟

د- المساواة والإنصاف:

يجب أن ينطلق الحوار من قاعدة المساواة، فلا يحق لأحد أن يفرض نفسه على الآخر، مهما كانت مكانة هذا الإنسان وما يمثله، لأن الحوار هو إثبات الحقيقة والصواب بالأدلة والبراهين. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، والمقصود أن يكون الفرقاء على مسافة واحدة بلا فواصل ولا تمييز، فهذا دأب القرآن ودعوته في الحوار مع الآخر المختلف. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، وتفسير الآية «أن الله أمر النبي ﷺ، أن يسألهم من يرزقهم من السماوات والأرض، والجواب عنه أنه الله سبحانه؛ لأن الرزق مخلوق في نفسه وهذا معلوم عند المشركين لكن يستكفون أن يعترفوا بأن لهذا الرزق إلهاً وهو الله فناب عنهم: قل الله، ثم يتبع الكلام بقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، بعد وضوح الحجة الدامغة والحق المبين في مبدأ الألوهية، فالآية تشير إلى طريقة في العدل والإنصاف والمساواة ومفاده «أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما

(١) سورة البقرة: ١١١

(٢) سورة سبأ: ٢٤

نفياً وإثباتاً، ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما نحن على الهدى وأنتم على الضلال، أو العكس فانظروا وفكروا؟»^(١) صاحب تفسير الميزان، وهناك تفاسير أخرى في الآية.

ونجد في هذا الأسلوب والتوجيه في ظل الحوار والمناظرة يركز على المساواة، مما يدعو للتفكير والموضوعية، كما أن الآية تشير إلى قضية مهمة وهي التأكيد على المسلمات والحقائق الفطرية التي لا يمكن أن ينكرها الآخر إلا إذا كان مكابراً ومعانداً كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢)، وعلى أساس هذه القاعدة والمبدأ في تبني لغة الحوار:

١ - يجب التواضع، بأن ينزل الإنسان نفسه منزلة الآخرين مهما اعتقد وتيقن بأنه على صواب وحق، فالرسول ﷺ لا يُشْكُ في عقيدته ولا صوابه لكنه مطالب أمام الخصم أن يكون على مسافة واحدة، فإن الحوارات الجادة ينصب اهتمامها حول الفكرة والموضوع وليس حول الأشخاص ومكانتهم أو نزاهتهم، أي الحكمة تقول: انظر إلى ما قيل وليس إلى من قال. والتواضع يرفع من شأن الإنسان ويعظم في النفوس، كما قال الشاعر:

تَوَاضَعُ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحٍ لِنَاطِرٍ عَلَى طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكُنْ كَالدُّخَانِ لَاحٍ لِنَاطِرٍ عَلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ

٢ - من الضروري أن تكون هناك إحاطة بالموضوع، أي الإحاطة

(١) تفسير الميزان، للعلامة الطباطبائي.

(٢) سورة النمل: ١٤.

بالمعلومات الكافية والأدلة، فإن كثرة الكلام لا تنفع ولا يكون لها قيمة ما لم تكن هناك أدلة مقنعة، فالبعض يمتلك أدلة على إثبات أمر ما أو ما يريد، لكن هل يملك الأدلة والقدرة على نفي الرأي الآخر؟ أي أن للحقيقة جانبيين: إثبات ونفي، فإثبات شيء لا يعني نفي غيره أو ضده، كما أشرنا سابقاً، وبمعنى آخر: إن النفي يحتاج أيضاً إلى دليل وهذا لا يتم إلا من خلال استقراء تام حتى يحكم الإنسان بالنفي والقطع. وهذا من القضايا الكثيرة الشائعة حيث نجد البعض ينفي بعض الأفكار والمواضيع المختلفة سواء دينية أو حياتية واجتماعية، لكنه لا يملك الدليل أو يعتمد على أقوال فيقول: سمعت، وهذا مخالف للحقيقة وللإنصاف، الذي يطالب الجميع بالأدلة، فلا عذر للإنسان أن يقحم نفسه في مسائل لا يمتلك ناصيتها، فيصبح جاهلاً مركباً. وأحياناً يكون تهوين وتهاون في تناول القضايا أو استخفاف بالعقول. إذاً، التحضير ضروري في أي حديث وحوار لإثبات حقيقة أو قضية مستجدة.

٣- أخلاقيات الحوار، فنجد في الآية التي تلي آية المساواة، أسلوباً أخلاقياً رفيعاً، قلّ من يلتزم به أو يقدمه على طاولة النقاش والحوارات، والمقصود التعبير عن ذلك من خلال المضمون. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فكأنما وُضع الرسول ﷺ وهو صاحب الدعوة والحق موضع الاتهام وعبر عن ذلك بقوله: ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾، في حين عبر عن الطرف الآخر في حقه بقوله: ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فمثل هذه التعبيرات والأساليب إنما تنبع عن أهمية الخطاب والحوار والقضية التي يحملها أو المشروع، وهذا له انعكاسات إيجابية وتأثير ووقع

(١) سورة سبأ: ٢٥.

في النَّفس والقلوب تجير لصاحب هذه الأخلاق ومصادقية المبدأ الذي يدعو إليه.

إننا - بحق - بعيدون عن هذه الأخلاقيات في طبيعة التعامل مع النَّاس ومع من نختلف معهم، فكثير من الدعاة يسعون للانتصار لأنفسهم، لكنهم يضحون بقضيتهم ومبادئهم حينما يسيئون التصرف والأخلاق، سواء بشعور فهذه مصيبة، أو يجهلون هذه الأخلاقيات فهذه مشكلة والمصيبة أكبر.

٤ - وهنا نصل إلى الختام في مشوار هذا الخطاب، حيث يقول الحق: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وهذه إشارة مهمة في قضية الحوار والدعوة، فمن خلال النظر إلى النتائج، نجد البعض يعول في الحوارات أو الدعوة والتبليغ على الخروج بنتائج ملموسة، عبر الإقناع أو إفحام الخصم وتغيير الواقع، وهذا غير صحيح، فليس النجاح دائماً يتوقف على النتائج الملموسة، فالنتائج قد تحصل بشكل مباشر، وأحياناً لا تحصل ولكن لا يعني ذلك انعدام التأثير، فقد يكون تأثيرها في المستقبل، وقد لا يحدث شيء أبداً، وربما حدث العكس بسبب العناد وتكذيب الرسل مثلاً كما هو حال المجتمعات الغابرة، بالرغم من الجهود التي يقوم بها الأنبياء والمدد الزمنية التي يقضونها في استمالة الأقوام وهدايتهم لكن لا يخرجون بنتائج؛ ونتيجة لذلك ينزل على أقوامهم العذاب، وهذه هي إحدى النتائج في الجملة، وهنا يشير القرآن إلى هذه الحقيقة تسلياً إلى قلب الرسول ﷺ. يقول الحق: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(١). المهم في الحوارات هو بعث الرسائل المهمة والمؤثرة، وهذا هو المطلوب، فقد يحدث التأثير في الآخرين لكن لا يعبرون ولا يظهرون ذلك، من هنا يشير القرآن إلى تأثير الكلمة الطيبة بأنها كشجرة تأتي أكلها كل حين بإذن ربها، أي أن الأمور بيد الله سبحانه، ويقول الشاعر:

على الإنسان أن يسعى بمقدار جهده وليس عليه أن يكون مؤفقا
فحتى الأنبياء والرسل مع ما يتبنونه من مبادئ حقة، ومؤهلات عظيمة
في شخصياتهم وإتقان أدوارهم لكنهم لا يعولون في إحداث التأثير، بل
يرجعون الأمر إلى الله والتوكل عليه فقط. يقول الباري على لسان أحد
أنبيائه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٢).

هـ- سياسة اللين وتنوع الخطاب:

ونقصد بالسياسة الحكمة في المعاملة، والجاذبية والاحتواء، لقد
أشرنا بأن الخطاب والحوار يختلف من جهة إلى جهة، فالخطاب مع الأديان
يختلف عن الخطاب للكفار وكذلك مع المسلمين، لكن القاعدة الأساسية
في الحديث مع الناس على اختلاف وجهتهم هو اللين، وهو من أهم مبادئ
الأخلاق وأسانيهه. إن القرآن والإسلام يؤكد على سياسة اللين في الخطاب

(١) سورة فاطر: ٤.

(٢) سورة هود: ٨٨.

أو الدَّعوة والحوار بالخصوص، واللّين لا يتعارض مع الحفاظ والتمسك والالتزام بالمبادئ، بل هو سلوك يعبر عن أخلاقيات والتزام اتجاه الآخرين، فهو من صميم الدين، وكذلك يعبر عن التقدير والاحترام للآخر، وهذا هو المطلوب إنسانياً ودينياً وأخلاقياً، كما أن سلوك اللين يكشف عن الاستقرار والاطمئنان النفسي والهدوء، أمّا الغضب أو رفع الصوت ورفض القنوات بالقوة هو تعبير عن الاضطراب والتشنج، كما نلاحظه أحياناً في بعض الحوارات الدينية والسياسية، مما ينعكس ذلك على سير النقاش وكذلك الانطباعات، والأهم أنه يترك آثاراً سلبية عند المشاهدين أو المستمعين، سواء المداخلات الفجائية من الفرقاء حين يُقطع الحديث دون أن تعرف أو تميز بين السؤال والجواب.

وعليه؛ فاللين سياسة أخلاقية وحكيمة تضيف جواً إيجابياً، وسيادة الهدوء والاحترام، وهو سبب في الاهتمام بالكلام الحسن. يؤكّد القرآن على الرسول ﷺ في دعوته على اللين مع الناس، وهو من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» فالرسول ﷺ كامل الأخلاق، وليس فقط الاهتمام في الدَّعوة والتبليغ، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١)، وهنا نتوقف عند التوجيه الرباني والحقائق من أجل أخذ الدروس والعبر والتأكيد على الأخلاقيات والركائز في الدَّعوة والخطاب أو الحوار وفي التعامل مع الناس بشكل عام وهو:

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

١- أن اللين يقابله الفظ وهو (غليظ القلب)، الذي هو سبب للنفور وحرمان الناس من الهداية، وفي التفسير الفظ الجافي، وغليظ القلب هو القساوة غير ذي رحمة ولا رأفة، والانفضاض هو التفرق، انتهى. وواضح أن السلوكين يعبران عن المكنون النفسي والقلبي، فهما يصدران من القلب، لينعكس ذلك في طبيعة السلوك، ولا شك أن الغلظة لا تنسجم مع المبادئ الإنسانية فكيف مع المبادئ الإيمانية والأخلاقية والرسالية؟ وهذا له ارتباط مهم فيما نحن فيه وهو الخطاب أو الحوار أو التعامل مع الناس، فيجب أن يكون إيجابياً ومعبّراً عن التفكير السوي، أو كذلك مع الأفق الرحب والتطلع لتحقيق الآمال والتطلعات، أما القسوة فتدل على الانحراف في الفطرة. وكذلك ما يحمله الناس من فكر عقيم وثقافة سقيمة، وصورة مشوهة، وطبيعة الناس تنفر وتتقزز من هذا السلوك؛ لأنهم فطروا على حُبٍّ من أحسن إليهم، ولذلك يعتبر اللين هو الصفة والسمة لكل عاقل أو داعية للدين أو متحدّث ومبلغ، فيكون محبوباً ومُقرَّباً للناس، وحينما يكون جافاً غليظاً فإن الناس لا يتأثرون كثيراً بما يحمل من علم أو حقائق.

٢- وتشير الآية إلى الآثار المهمة في جانب اللين الذي يعبر عن القلب السليم والرحمة والرأفة، لأن اللين أساسه تعبير عن الرحمة التي أودعها الله في قلوب البشر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، وهذا الرحمة واللين تتجلى في أمور:

- تجاوز أخطاء الناس: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ من أجل احتوائهم.
- ﴿وَاعْفِرْ لَهُمْ﴾، والمغفرة تعني التوبة والستر والطهارة، فلا تذكر عيوبهم.
- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وإذا كانت هذه الآية نزلة في واقعة وغزوة أحد، لكنها عامة تطبق في كل الأمور، وكما قيل فإن «المورد لا يخصص الوارد»، لأنها في الحقيقة تجسّد مبادئ في الأخلاق والسلوك والعلاقة الصحية مع الناس، ولا تحصر في واقعة معينة، لأن الأخلاق مبدأ عام، واللّين يمثل أهم جوانبه خصوصاً بما يرتبط بالحوار مع الناس وفي ظل الاختلافات، ولا يعني تطبيق كل الأمور التي ذكرت في الآية مثل الشورى، فهذه لها مناسبة، لكن أيضاً من اللّين احترام عقول الناس ومشاورتهم في الأمور الحياتية، فهذه من الآثار الطيبة، أمّا القسوة والجفاء ليس من الرحمة في شيء، والقسوة بالخصوص هي نتيجة تراكم من الانحرافات والمعاصي والذنوب. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(١).

٣- وتشير الآية إلى قضية مهمة وهي قضية (الحزم). قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢)، فالحزم من القرارات التي لا تتعارض مع قاعدة اللّين، لأنه جاء بعد مبدأ المشاورة، فمن حق القائد بعد ذلك أن يختار الأمر أو القرار الذي يصبُّ في المصلحة، حتّى لو خالف من معه، لأنه نتيجة موضوعية وعصارة للفكر ومشاركة للعقول، وهذا السلوك من القيادة يعدُّ حزمًا، وإلا سوف يحدث الاختلاف والفوضى والتفرق بدل التوحد والانسجام، المهم أن اللّين هو القاعدة في كل الأمور

(١) سورة الحديد: ١٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

والسياسات وفي اتخاذ القرارات الصائبة. الحزم يأتي في المواقف التي تكثر فيها الاختلافات أو وجهات النظر وبعض الظروف مثل الحروب أو سياسة الأوطان، خصوصاً لمن يمثلون الناس وفي المناصب الحساسة والمصيرية، وليس في كل الأمور.

وكثير من الناس يعتبرون اللين ضعفاً للشخصية، وأن الناس لا ترغب في ذلك وهذا خطأ ومخالف لسيرة القادة المصلحين وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل والأولياء، فهذا النبي الأكرم ﷺ يجسّد التعاليم الربانية وكذلك الرحمة، وفي الحديث «مَا دَخَلَ اللَّيْنُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ»^(١)، وآخر «حَزْمٌ فِي لَيْنٍ»، إذا، الحزم يأتي في ظروف استثنائية وحاسمة، خصوصاً في ظل التعدد واختلاف وجهات النظر مع وجود قيادة، مثل مدراء الأعمال والشركات، يُطلب منهم أحياناً اتخاذ القرارات الحاسمة وهَلُمَّ جَرّاً. فالقاعدة في التعامل والسلوك والعلاقة مع الناس جميعاً هو اللين والرفق، فهو يمثل الجذب والراحة النفسية بين الناس، والميول للقلوب، بل يشجع الناس على الحديث والسؤال من صاحب اللين والعريكة. ومن الضروري في هذا الجانب هو الالتزام والتخلُّق بهذا الخلق في الحوارات، كما أشرنا فهو خلق إنساني رفيع، بل مطلوب حتى مع المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وكل ما له روح، أي المطلوب الرفق بالحيوان. بأن تهتم بشأنه وتعرض عليه الماء عند ذبحه وتسكن السكين كي يعجل به، فهذا تعاليم الدين في كل شأن.

ولذلك فالإسلام يرفض كل الأخلاقيات والسلوكيات التي تحقّر

(١) الكافي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن المؤمن له قوة في لين وحزم في لين وإيمان في يقين».

النَّاسَ وَتَمَعْنُ فِي إِهَانَتِهِمْ، وَرَبَّمَا قَتَلْتَهُمْ وَالتَّضْيِيقَ عَلَيْهِمْ وَتَهْجِيرَهُمْ بِشَتَى السَّبْلِ، لَأَنْهَا لَا تَعْبُرَ عَنِ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالرَّأْفَةِ. وَنَجِدُ هَذَا الْمَعْنَى وَالْحَقِيقَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

ولذلك تعدُّ ظاهرةُ الإرهاب في العالم وبالخصوص في العالم العربي والإسلامي سلوكًا وحشيًا وإجراميًا وظلمًا محرّمًا ومجرّمًا، فهو يعبر عن قساوة وغلظة وجفاء لكل المبادئ والصفات الخيرة، فكيف يكون مسوغًا في الدِّين والعقل والأخلاق، والأدهى هو ما نجده من بعض التيارات والمذاهب الفكرية التي تدعي الحق وتحمل راية الإسلام وهي تقوم بكل ما يخالف الدِّين وسياسة اللين، فهو مخالفة صريحة للقرآن ولسيرة الدَّعوة التي تمثل بها الرسول الأكرم ﷺ، وبذلك قدّمت صورةً بشعةً ومنحرفة عن صورة الإسلام المشرقة ونبيها الأكرم الذي جاء للناس كافة بالرحمة، وكيف تكون هذه الرحمة مع المؤمنين والمسلمين، إن هؤلاء لا يمثلون الإنسانية فضلًا عن الرسائل السماوية، فليس لهم حظ في الدِّين ولا الحياة، فهم مرفوضون من قبل الجميع، كما أنهم منحرفون عن الهدى وجادة الحق، ويكفي أنهم رسموا صورة كاتمة وسوداء عند الآخرين، عن الإسلام حيث عرفوا به (فوييا الإسلام)، الإسلام المرعب، كما هم الإرهابيون الذين يعتقدون ذلك بأن الإسلام جاء بالرعب وانتصر بالرعب. فأين هي سياسة الإسلام والتأكيد على الرفق بالحيوان؛ فكيف الإنسان وبين هذه التيارات الفكرية المنحرفة والعقدية الباطلة والنفسية المريضة، وأقل ما يُوصف به

(١) سورة الممتحنة: ٨.

هؤلاء بأنهم مرضى القلوب والبصائر ومن أهل النفاق، انظر إلى حالهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾^(١)، والنفاق من النفاق أي الاختفاء، فهم يُظهرون الإيمان والأخلاق لكن لا عن قناعة، ومطلوب أن يتجسد هذا الخلق مع الجميع دون استثناء، خصوصاً مع أهل القبلة والمؤمنين.

وقد أشرنا إلى ذلك في قضية الجدل مع أهل الإسلام من باب مفهوم الأولوية، وهنا نشير إلى أن اللين في العلاقة بين المؤمنين بالخصوص للأهمية في التعامل والعلاقات أو الحوار وعند الاختلاف، فالتعامل باللين مع أبناء الإسلام هذا مفروغ منه ولا يحتاج إلى برهان، بل هناك إشارة في هذه العلاقة أن تكون في أعلى مراتبها، من التواضع والحب والرحمة والإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، فهنا استخدم القرآن مصطلح (أذلة) وهو تعبير في غاية الأهمية لتجسيد أرفع وأنبأ الأخلاق بين المؤمنين، أما (أعزة) أي المنع والرفعة والتعالي على الكفار حسب السياق القرآني، وحسب الظرف، وهذا لا يتعارض مع الأصل وهو اللين، وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤) فلقد وصف تعالى نبيه في علاقته مع الأمة والمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

(١) سورة البقرة: من آية (٨) - إلى وما كانوا مهتدين).

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

(٤) سورة الفتح: ٢٩.

بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ»^(١)، والرافة في القلب واللين في السلوك، والرحمة أعم وأشمل من الجميع. وهذه الرحمة في كل تجلياتها هي من صفات المجتمع الإيماني الذي يقدم الأخلاق على كل شيء. يقول الرسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٢)، فأين هي هذه القيم في عصرنا الحاضر؟

و- سياسة الانفتاح على العالم:

الانفتاح على البشرية والمسلمين خاصة من باب الأولى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣)، فتأكيد القرآن على المعرفة هو تأكيد على سياسة الانفتاح. بالطبع هذه السياسة له مبرراتها وأسبابها الإنسانية والثقافية والحضارية، وبها ترقى الشعوب وتتعرف على بعضها بعضاً، وتنقل تجاربها، وهذا بحد ذاته إثراء للعقول والعلوم والبناء والتقدم والتطور، لكن هناك شروط موضوعية وقيمية وحضارية أيضاً من ترسيخ وتعميق هذه المعرفة في ظل الانفتاح، أن تكون هذه العلاقة الإنسانية قائمة على أساس قيم ومبادئ صحيحة وهي:

١ - احترام كرامة الإنسان بما هو إنسان، دون النظر إلى ما يتبناه من قيم وآراء وأفكار. فسياسة الفصل العنصري والعرقية، وكل ما يعيق هذا التواصل مرفوضة.

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٥٨ ص ١٥٠.

(٣) سورة الحجرات: ١٣.

٢- أن تكون العلاقة متساوية من أجل تحقيق المصالح المشتركة للإنسان والمجتمعات والشعوب، أما منطق القوة الذي يفرض سياسات اقتصادية من الاحتلال أو الاستعمار من أجل نهب ثروات الشعوب وامتصاص خيراتها فهذا مرفوض أيضًا.

٣- ولذلك فإن دعوة القرآن والإسلام إلى الانفتاح ليس مطلقًا، ولا مفتوحًا، بل من أجل المعرفة والتعارف والارتقاء بالبشرية وليس من أجل ممارسة الظلم والقهر، وليس من أجل نشر القيم الفاسدة أو الثقافات المنحرفة والأخلاق الهدامة، كلاً. فما نشهده اليوم في العصر الحاضر كيف استغلت تلك الدول العظمى من حيث القوة، هذا الانفتاح من أجل ترسيخ قيمها وسطوتها وهيمنتها، ومن خلال ما تبثه من سموم وانحلال وأفكار شيطانية، فهو استعمار واحتلال للعقول والنفوس وتكريس الانحرافات، مما عمت بسببه الفوضى والمشكلات والأزمات المختلفة، فهو أكثر خطورة من الاستعمار العسكري حيث يواجهه، أما في عصرنا وفي ظل الانفتاح لا نملك أي مقاومة.

٤- من هنا فإن دعوة الإسلام إلى الانفتاح والمعرفة تصب في جانبين أساسيين وهما:

١- التعريف بالإسلام ومبادئه وثقافته.

وهذه مسؤولية تقع على العلماء والمفكرين والمثقفين بالدرجة الأولى، حيث يحملون هذه الأمانة الدينية ونشر تعاليم الإسلام بالشكل الصحيح، ويبلغون الناس الرسالة من أجل الهداية، ولكن مع مراعاة تلك

الضوابط والحقوق الإنسانية، التي تحفظ الكرامة، بأن تكون الدعوة حسنة، أي بعدم الإكراه أولاً، ولا بُدَّ من الدعوة الحسنة والحكمة التي أشرنا إليها ثانياً، فالدعوة للدين هو حق فطري وإنساني، لأنه دين الفطرة، أي فطرة التوحيد وعبادة الله الخالق وترسيخ الإيمان بالله سبحانه، ودعوة للتوحيد التي دعت إليه كل الرسل والرسالات السماوية، وتحرير الإنسان من عبودية غير الله، فهذا هو الأساس والمبدأ في الدعوة، ومن دونها تبقى المسائل والدعوات غير مجدية وقشرية وجانية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٢). وقد حذر القرآن من الانحراف عن هذه الجادة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)، فهو دين الفطرة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

٢- ترسيخ قيم الحضارة الإنسانية من العدل والحريّة والمساواة والسلام والأمن والأخلاق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٥)، لخصت هذه الآية

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) سورة يس: ٦١.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٤) سورة الروم: ٣٠.

(٥) سورة البقرة: ٢٠٨.

كل العوامل الحضارية بواسطة مفهوم السّلام، وإذا كان الخطاب للمؤمنين فهم المعوّل عليهم لنشر هذا التعاليم والالتزام بها وتطبيقها على أرض الواقع، فهم معنيون بالاستجابة والتفاعل في ظل الإيمان. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١)، فنشر تعاليم الدين لا يتعارض مع الإنسانية ولا حقها؛ فالدين في الحقيقة هو أساس الرّحمة، ولتحقيق تطلعات البشر، من السّعادة والرفاهية، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)، فهو دين الفطرة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وبسبب الجهل والتعتيم وإقصاء الإسلام والسياسات الظالمة التي حكمت بلاد المسلمين أدّى ذلك إلى انحسار الإسلام وسياسة الانغلاق، فنجد حتّى أبناء الإسلام يجهلون تعاليم الإسلام فكيف بغيرهم؛ من هنا تأتي أهمية الوعي والتسلّح بالثقافة الإسلامية الصحيحة والشاملة، والأهم هو الالتزام والقُدوة الحسنة، فدور الأمة في هذه الظروف والتحوّلات ربما يكون أكثر تأثيراً ووجوداً، بفضل وسائل التواصل، فهي تمثّل فرصة تاريخية. والذي ينبغي على المسلمين وشباب الأمة استغلال هذه الفرص الثمينة، لكن من المؤسف نجد الكثير أو الغالبية لا يدركون أهمية الدّين وقيمة الحياة في ظل

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

(٣) سورة الروم: ٣٠.

الإسلام، ولذلك أصبحوا فريسة سهلة ومحط للتأثيرات السلبية، فهم يفتقدون الحصانة والوقاية من هذا التأثيرات، وأصبحت وسائل التواصل وكذلك شبكات النت هي الشغل الشاغل، وسبباً لكثير من الانحرافات وضياح للأوقات ومصيدة، فنجد الكثير يتسامر مع هذه الأجهزة والدخول على المواقع الإباحية والتي أعدت لهذا الغرض، مما يزيد في الأعباء وتعميق الانحرافات في الأمة، وبالخصوص من جيل التسعينات حيث وُلد مع هذه الطفرة ودون سابق إنذار، فأين هو الدين في حياتنا؟ وأين هي الثقافة الإسلامية التي نتسلح بها؟ وما دور الأمة في هذه الظروف والتحديات؟ وغيرها من الأسئلة التي تدور في هذا الظرف الحساس.

مدرسة أهل البيت عليه السلام في ظل الانفتاح:

برعت مدرسة أهل البيت عليه السلام في الاضطلاع بهذه المهمة وبالتعريف بالإسلام ومفاهيم القرآن عبر الحوارات وعقد الندوات، خصوصاً في ظل الانفتاح الذي تميّز به عصر الإمام الصادق عليه السلام بعد أفول الدولة الأموية وبداية الحقبة العباسية، فأُسّس الجامعة الكبرى في مختلف العلوم، وكان لذلك تأثير كبير في ترسيخ المذهب الجعفري الذي نُسب إليه، لكثرة ما صدر عنه من علوم ومعالم، حتّى تخرج من هذه الجامعة أربعة آلاف عالم وفقه في كل المجالات، ولا شكّ أن أهل البيت عليه السلام يتميزون عن غيرهم بأمرين رئيسين هما:

الأول: أنهم يرثون العلم والدين من رسول الله صلّى الله عليه وآله. حتّى قال الرسول صلّى الله عليه وآله: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلَيَّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ

بَابِهَا»^(١)، فحصر الرسول ﷺ العلم عن طريقهم، فمن خلالهم يستدل على الحق والدين. ويقول الصادق عليه السلام: «نُورُهُ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ وَنُكُوزُهُ كَمَا يَكُنُزُونَ النَّاسَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ»^(٢).

ثانياً: يحيطون بفهم القرآن كاملاً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٣)، إذاً هذا العلم مورث وليس كسباً وتحصيلاً. والشيء الآخر أن الكتاب المعني به هو القرآن بدلالة اللام العهدية، وكذلك اللام تفيد الشمولية، أي يحيطون بالقرآن الذي يتضمن كل المعارف الإلهية والدينية، فمن غيرهم يحظى بذلك وبهذه المزية؟ ففي الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام «يَا سُدَيْرُ، أَلَمْ تَقْرَأِ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيْمَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾»^(٤) قُلْتُ: جعلت فداك قد قرأته. قال عليه السلام فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟" قلت: أخبرني به؟ قال عليه السلام: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟! قلت: جعلت فداك ما أقل هذا. فقال عليه السلام يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل أيضًا ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قلت: قد قرأته جعلت فداك قال: أفمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا. بل من عنده علم الكتاب كله. قال: فأوماً بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٤٠ ص ٢٠٣.

(٢) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، ص ٣٢٠.

(٣) سورة فاطر: ٣٢.

(٤) سورة النمل: ٤٢.

والله كله عندنا علم الكتاب كله عندنا»^(١).

ثالثاً: القدوة في الدَّعوة والأخلاق، فهم المعيار الذي من خلاله نعي حقيقة الدِّين وأهدافه الحضارية المنشودة وعلى كل المستويات. ومن أهم وأبرز مواقفهم ودعواتهم هو دعوتهم للانفتاح على العالم وبالخصوص على أمة الإسلام، وسوف نشير إلى ذلك في باب مستقل تحت عنوان الحوار في القرآن ومدرسة أهل البيت عليه السلام.

ترشيد الصَّحوة:

من أهم الشروط الموضوعية للنهوض والإصلاح في حياة الأمة هو الوعي بالمخاطر والتحديات، وأن السبيل هو السعي الحثيث نحو وحدة الأمة وانتشالها من الخلافات الدينية والمذهبية، فهذا الخطر الداخلي لا يقلُّ خطورة من العدو الخارجي الذي يُحْدق بالأمة ويستغل ظروفها ويكرِّس فيها عوامل التخلف، والسؤال المهم: كيف نواجه هذه الاختلافات الدينية الطائفية؟ والجواب: في ظل التحولات والانفتاح على العالم وعبر وسائل التواصل الاجتماعي علينا أن نتسلح بثقافة الحوار البناء والتواصل، ومن غير ذلك سوف تزداد المشكلات وتكثُر الفوارق.

ومن جهة أخرى فإن سياسات الاستبداد والظُّلم في داخل البلاد العربية والإسلامية تعمل على تمزيق الأمة وتفتيت وحدتها وتشتيت قوتها وقدراتها، فهي لا تميل ولا ترغب في احتواء هذه المشكلة ولا ترضى بالاهتمام بهذا الشأن من أجل استمرارها ومصالحها؛ من هنا يجب توحيد الصف الإسلامي

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٢٦ ص ١٩٧.

وتكريس ثقافة الحوار بين أبناء الأمة ليكون لغة حاضرة في كل المجالات ويسودها التفاهم والاحترام، ويكرس قيم المساواة التعايش والتسامح، فالحوار قيمة إنسانية قبل أن يكون لغة دينية وإسلامية وقرآنية، إذا نحن أمام مفصل حضاري لا يستهان به، من أجل إحداث إصلاح وتغيير في نهج الأمة وتدارك ما ضاع وخفي عنها، فهي تستحق الكثير من حياتنا، والتضحية بكل شيء كما كان الأولون.

إننا في الحاضر نشهد ثورة علمية وتكنولوجية مما يساعد أبناء الأمة على تجاوز كثير من الأزمات، لكن من أخطرها هو التمزق والتفرق والنزاعات والصراعات المختلفة، والتي تنشأ في الغالب بسبب المصالح الفئوية وبسبب الحكام وكذلك التعصب المقيت كما قال تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١). في حين يؤكد الإسلام والقرآن على هوية الأمة ووحدتها في كثير من الآيات الصريحة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة القصص: ٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٤) سورة الأنفال: ٤٦.

ولا يمكن التغافل أو التجاهل لهذه القيم والمبادئ، والسبيل والمخرج هو الحوار بشتى السبل والطرق التي تؤدي إلى تحقيق هذا الهدف، فلا يمكن للأمة أن تتوارث حقب الظلام والخلافات في عصره تسوده الثقافات والانحرافات والمفاهيم المغلوطة، بينما أمة الإسلام ما زالت تعيش بعقلية الماضي وتجتر المآسي وتضع الحدود الشاملة وتتناسى أهدافها الإنسانية والإيمانية والأخلاقية والحضارية التي مجدها القرآن حيث يقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، فلماذا الاستمرار في هذا الغي والانحراف؟ وهل هذا يساعد على البناء والتقدم والتنمية؟ كلا، بل مزيد من التراجع والتخلف. من هنا نشير إلى أهم الخطوات البناءة في سبيل الخروج من هذا المأزق مأزق الاختلافات والانشقاقات والتفرقة، وهي:

١ - التأكيد على الأمة الواحدة التي تختزل الكثير من المشتركات في الشؤون والمبادئ، فالرب واحد والرَّسول واحد والقرآن كذلك، كما أن أغلب التكاليف واحدة، فهذه المشتركات هي الأساس الأبرز، فهي تمثل الأصول العامة. وإن كان هناك اختلاف فلا يعني الإخلال والطعن في هذا المبدأ، إنما ينبغي الوصول إلى الحلول الناجعة من أجل الحفاظ على الهوية.

٢ - الإيمان بمبدأ الحوار في ظل الاختلافات؛ لأنه مبدأ قرآني وإسلامي وثقافة حضارية، ومن دون ذلك سوف نتخبط أو نلجأ إلى طرق ووسائل غير شرعية ومنطقية. خصوصاً في الدائرة الإسلامية، ومن جانب آخر لتحقيق التعايش بين الجميع، فهو الطريق للاستقرار والأمن والتقدم.

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

٣- تجنّب كل العوامل والأساليب التي تسعى إلى التفرقة وتكرّس الخلافات وباسم الدين والإسلام، وهنا تكمن الخطورة، مما يجب التصدي لكل الأفكار والمواقف الهدامة وتجريمها، لتصبح مكشوفة ومنبوذة.

٤- نبذ التعصب المقيت وسلوك الإرهاب التي تتبناه تلك التيارات السلفية المتطرفة والتي لا تجعل حرمة للحرمات وللدماء والمقدسات والتي قدّمت صورة بشعة عن الإسلام والمسلمين في العالم، حتّى عُرف (فويا الإسلام) أي الخوف من الإسلام، وهذا جرم وظلم للإسلام ورسوله ومبادئه. كما يجب الوقوف ضد تلك السياسات الجائرة التي تستغل مثل هذه التيارات وتكرّس الفتن، وكذلك يجب إصدار الفتاوى الواضحة والمعلنة من قبل العلماء من كل مكان ومذاهب بتجريم كل ذلك دون لبس أو تردّد.

٤- السعي لإيجاد بيئة صالحة وحواضن إيجابية تنطلق من ثقافة إسلامية وحضارية عبر:

أ- التشجيع على الحوار في كل الشؤون والمجالات وعند الضرورات.

ب- التشجيع على التواصل بين أبناء الأمة وبالأخص بين علمائها، ليكونوا قدوة ونموذجاً للتواصل، والحوار وإزالة كل المعوقات والحواجز النفسيّة أو الفكرية الخاطئة عن الآخر.

ج- التأكيد على الحوارات العلمية والدينية بالأخص بين المذاهب من أجل التقريب ووحدة المفاهيم، خصوصاً في المسائل التي تخضع للاجتهاد، وقابل للنقاش، من أجل الوصول للحقيقة التي تنسجم مع الدين والمنطق والعقل. مع التأكيد على الأدلة والبراهين.

د- إيجاد المشاريع والمؤسسات ذات الطابع الوحدوي وكذلك قابل للتطبيق والتنفيذ مما يعزز الثقة والقدرة على تجاوز الصعاب والتحديات، وليس مجرد وجود قنوات بذلك، إن الثمرة العملية هي أكثر تأثيراً من الأفكار أو الأقوال كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

هـ- التأكيد على الأخلاق البناءة التي تعكس القيم والشعور بالمسؤولية سواء عبر الكلمة أو المواقف أو الإعلام بشكل عام، وفي كل الأحوال والظروف، وليس حسب الصالح والأمزجة والسياسات، وتأكيد القرآن على الكلمة الطيبة لا ينحصر في مجالات محدودة، بل هو سلوك ونهج وعلاقة مع الآخرين، مهما كانت هناك من بُعد وخلافات، ومطلوب في كل الوسائل المختلفة الحديثة والعصرية وعبر الشبكات والقنوات والتواصل الاجتماعي، لما في ذلك من تأثير في الرأي العام والتفاعلات الاجتماعية.

الإعلام والمهمة الحضارية:

ومن هنا فإن مهمة الإعلام، سواء داخل الأوطان أو خارج الحدود، مهمة خطيرة ومسؤولية كبيرة، في نشر ثقافة السلام والأمن والاستقرار، وكذلك تكريس المفاهيم الإنسانية والإيمانية والأخلاقية، وبث روح الأخوة والإحساس بالمصير المشترك وحب الأوطان، وحينما يكون الإعلام وسيلة هدامة وتبعية للسياسات الظالمة ومنحازاً عن قضايا الأمة سوف ينعكس ذلك سلباً وانحرافاً في مسيرة الأمة والمجتمعات. وهنا نشير إلى من اتخذ من تلك الدول التي تتنفس الحرية مكاناً ومقرّاً ولجوءاً أليّساً للحرية عبر

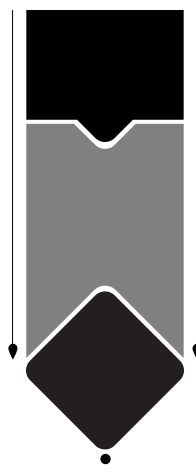
(١) سورة الصف: ٢.

بث السموم واستغلال الأوضاع والخطابات المسيئة، دون ضوابط وأخلاق، فهذا أمر غير لائق، فكما أن سياسات التكميم مرفوضة في كثير من البلاد العربية والإسلامية فكذلك الحرية المطلقة أو المزيفة، إذ نجد بعض الأبواق في الخارج تمتهن الخطاب الطائفي أو القومي أو الحزبي، وكذلك إثارة الفتن والشائعات لعدم الشعور بالرقابة والمساءلة. ولا نقصد التعميم، وكان من الأجدر الاستفادة الكاملة في ظل الحريات هناك، وتصحيح المسارات والسياسات، وليس تكريس التفاهات والانحرافات.

الخلاصة: أن ما تقدم يمثل الخطوط العريضة والمبادئ التي من شأنها أن ترسم لنا خريطة الطريق، ولحل كثير من الأزمات والمشكلات التي تعيشها أوطاننا وبلادنا، خصوصاً تلك الخلافات الحادة التي تؤرق الجميع والعلماء والمفكرين خصوصاً الدينية التي ما زالت تتربع على صدر الأمة، مما يكشف عن وجود خلل أولاً على صعيد ثقافتنا الإسلامية الصحيحة، وثانياً وجود انحرافات خطيرة على مستوى السياسات الحاكمة التي تستغل الأوضاع وتكرّس الفتن، فهذا هو التحدي الأكبر. أما التحدي الآخر هو الأعداء وتلك القوى الخارجية التي تعمّق مثل هذه الخلافات والسياسات كي تسيطر وتهيمن على مقدرات الأمة وخيراتها، حيث يشكل هذا الانحراف والأوضاع قابلية للعدو كي ينفذ سياساته ومخططاته، كما هي نظرية المفكر العربي المسلم (مالك بن نبي)^(١) «القابلية للاستعمار».

(١) هو المفكر الجزائري من أعلام الفكر الإسلامي في القرن العشرين، وهو أحد رواد النهضة ولد في ١ يناير ١٩٠٥ وتوفي ٣١ / أكتوبر ١٩٧٣ وقد أشار كثيراً في كتبه ومقالاته عن مشكلات الحضارة.

كما نؤكد في الحوار في بعده الحضاري كقيمة ضرورية لتحقيق كثير من المصالح وتفعيل المبادئ، على أوسع نطاق، خصوصاً في البلاد العربية حيث تنعدم فيها الحوارات الجادة والتي تهتم بشؤون السياسات والتنمية وليس فقط الخلافات الدينية. فالحوار يشكل عصب للحياة والحيوية والفاعلية، ويكرس الوعي ويبرز الحقائق وليس مجرد ديكور أو تنفيس أو أغراض وأهداف مصلحة. وإذا كان الخلافات مستمرة ولا تزول كالخلافات الدينية والمذهبية فينبغي أن تنحصر تحت مظلة البحوث والحوارات العلمية والخالصة من الميولات والتعصبات، بغية تحقيق رضا الله سبحانه والوصول إلى الحقيقة.



مقدمة

بيئة الحوار والثقافة:

لا تنفصل بيئة الحوار عن بيئة الثقافة، فكلما كانت بيئة الثقافة إيجابية وسليمة كانت منطلقات الحوار ونتائجه إيجابية، لأن الثقافة السليمة هي التي توفر المناخ الإيجابي، وكذلك تعكس النظرة والرؤية الإيجابية للآخر، وبذلك يسود الاحترام والتقدير المتبادل مهما كانت الآراء والخلافات بعيدة وشديدة وعميقة، لأنها (الثقافة السليمة) أيضاً تبرز وتؤكد على الأخلاق الحسنة في السلوك والمعاملة.

ومن أهم الأسس والمبادئ في إيجاد هذه الثقافة وتفعيلها هي مبدأ الحرية، وهو حرية التعبير عن الرأي والرأي الآخر، فالحرية يجب أن تكون متأصلة في الوجدان والإيمان والفكر والثقافة كي يخطو الإنسان إلى الإمام وينطلق بكل ثقة وأمان وشعور بالمسؤولية، وحينما تنعدم الحرية ويصبح الإنسان مقيداً ومكبلاً فلا يستطيع أن يتقدم في الحوار، أو يجيد كذلك لغة الحوار؛ ولذلك فإن الاستبداد من أي نوع جريمة وعقبة في طريق البناء والإصلاح والاستمرار وليس فقط في فشل الحوارات في أي مكان وفي أي زمان؛ من هنا يجب التأكيد على مسألة الحريات قبل كل شيء، إذا أردنا

إنجاح الحوار ومنطلقاته، خصوصاً الحوارات الجادة التي تتصل بالقضايا المصيرية على مستوى الفرد أو الجماعات والمجتمعات، سواء كانت دينية أو اقتصادية أو سياسية أو أخلاقية، لأن الحديث عن هذه الجوانب تحتاج إلى أمور من أهمها:

- ١ - الوصول إلى الحقيقة بكل تجلياتها ودون تحيز أو ميل.
- ٢ - ضرورة الحديث بصدق وموضوعية، أي مجرد عن العوامل التي تحرف الإنسان عن هذا الهدف وهو الحقيقة.
- ٣ - تتطلب الشجاعة والإرادة الكافية للتعبير عن الرأي ووجهة النظر وباستقلالية تامة، أي غير منحازة لطرف أو جهة.
- ٤ - يجب أن يكون التمثيل لأي حوار متناسبًا ومتكافئًا من كل الجهات، أي من ناحية الكفاءة والتخصص، سواء بين المتحاورين أو من يدير الحوار، وكذلك الإعداد الجيد. أما حينما تكون الفوارق كبيرة أو يفتقد إلى التخصص والأهلية فإن ذلك يفوّت فرص النجاح وهذا أمر طبيعي ومنطقي، والأهم من يدير ويقود هذا الحوار، بأن يكون عادلاً ومنصفًا وعلى مسافة واحدة بين الجميع، أقصد المتحاورين، ويتمتع بكاريزما أي شخصية قادرة على إدارة الحوار وضبط إيقاعه حتى لا ينفرط أو يخرج عن حدوده، فكما يقال إن نجاح أي حوار يعتمد كثيرًا وفي الأساس على إدارته، ولذلك يجب أن يكون مؤهلاً من كل النواحي التي ترتبط بمادة الحوار، وكذلك يتمتع بلغة وأسلوب حسن وجذاب، ولا يخضع للتأثيرات الجانبية، ويمتلك العقلية الفذة للوقوف عند المحاور الأساسية أو الأفكار المهمة وتوجيه الكلام، وكذلك إثارة

الأسئلة المطلوبة والمباشرة لبلورة الحديث والضلوع في استقصاء الحقائق، وأخيراً ضبط الكلام وكتابة الملاحظات عند الحاجة إليها، أما حينما يكون الحديث مفتوحاً للجميع وفي وقت واحد، من شأنه ضياع النتائج المطلوبة. وهنا يحضرني قول الإمام علي عليه السلام: «إِذَا أَرَدَحَمَ الْجَوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ»^(١)، أي بسبب اختلال النظام تضيع الحقائق والأجوبة. وحفظ النظام من جميع جهاته في الحوارات من أصعب الأمور وأعقدها، ولذلك تتطلب القيادة الحاسمة للأمور إذا تتطلب الأمر. ويمكن الاستناد في ذلك على حكمة مأثورة عن الإمام علي: «حَزْمٌ فِي لَيْنٍ»^(٢) فالأساس هو اللين في كل الأمور، لكن قد يتناول البعض أو يتجاوز الحدود فيتطلب إيقافه.

٥- المكان المناسب له دور في التأثير الإيجابي، حيث يضفي على الجميع السكون وراحة البال، وألاً يكون الحوار طويلاً فيسبب الإرهاق الذهني والجسدي، ويشتت التفكير وتضيع الأفكار دون الوصول إلى نتائج واضحة، ولذلك قد تحتاج بعض الحوارات الطويلة إلى وقفات للترويح.

٦- يحتاج في الحوارات إظهار الاحترام والتقدير بالسَّلام والتحية قبل الحوار وبعده، وكذلك في أثناءه بمفردات مناسبة من الكلام الطيب وكذلك التصرف وعند توجيه الكلام، فالكلمة الطيبة لها أثر بالغ ولها وقع على المشاعر والأحاسيس وشد الانتباه، مما يؤثر على جودة اللقاء والحوار. وكذلك الكلمة التي تخرج من القلب تكون صادقة وتدخل القلوب، فالكلمة هي رسول، فيجب اختيار الرسول المناسب، يقول علي عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ تَدُلُّ

(١) مر سابقاً، نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة من خطب الإمام عليه السلام.

عَلَى عُقُولِ أَرْبَابِهَا: الرَّسُولُ وَالْكِتَابُ وَالْهَدْيَةُ»^(١)، ولذلك يؤكّد القرآن على الكلمة الطيبة، ويحذر من ضررتها أي الكلمة السيئة والجارحة فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢)، والوقوف عند دلالة الآية والمثل يحتاج إلى كثير من الكلام والبحث، وفي الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فِي الْمَجْلِسِ لِيُضْحِكَهُمْ بِهَا فَيَهْوِي فِي جَهَنَّمَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٣)، ويقول الشاعر:

جَرَاحَاتُ السَّنَنِ لَهَا التِّثَامُ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

فهذه أخلاقيات ضرورية في حواراتنا وثقافتنا الإنسانية والدينية، بأن نبتعد عن لغة السباب والشتائم والكلام الفاحش والسخرية وكل ما يقلل من احترام وقيمة الإنسان، فالأخلاق ميزان العدل والإيمان.

والخلاصة هو التأكيد على البيئة الصالحة للحوار من خلال التأكيد على مبدأ الحُرِّيَّة من أجل ضمان روح الحوار وأهدافه وغاياته، وليس فقط الدَّعوة أو المبادرة إليه أو الاهتمام بالمظاهر والشكليات، فقد يعكس حالة وواقعاً سليماً، وهنا نشير إلى أهم الخطوات التي تساعد في دفع الحوار إلى الأمام وإنجاحه، وبتعبير آخر يكون موفقاً ومرشحاً للنجاح مهما كانت الظروف المصاحبة للحوار، وهي:

١- النوايا الحسنة (الإرادة): والمقصود هو العامل النفسي الذي يدفع الإنسان إلى الحوار، ويسعى لتجديد كل طاقاته وإمكانياته لإنجاحه، مما

(١) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٣ ص ٢٠٥١. غرر الحكم ٤٦٨١.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ١٢ ص ٢٥١.

ينعكس على سير الحوار والتعاطي مع الآخرين، فالإيمان بالحوار شيء، والاستعداد النفسي في تحقيق النجاح شيء آخر، أي أن تكون هناك إرادة للنجاح وتجاوز العقبات والعراقيل، فالإرادة والتصميم في إنجاح الحوار يمكن الإنسان من تحقيق الكثير، لكن حينما تكون النية سيئة أو الإرادة خائرة فسوف ينعكس ذلك سلبياً، فيكون الاهتمام بالجزئيات والتركيز على الهوامش.

ولذلك نقول إن الإرادة الحسنة عادة تذلل الصعوبات وتتجاوز السلبيات والأخطاء، من هنا جاء في الأثر «نِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»، فالعمل قد يكون خاطئاً لكن المهم هو الإنسان الذي يعكس المبدأ، وهنا تبرز الحكمة حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «لَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَصَابَهُ»^(١)، والمطلوب هو الإنسان الخير الذي يضمّر الخير للناس، ويسعى لهدايتهم وسعادتهم. أما الكلام الكثير أو المعسول والمصفف لا يدل دائماً على استقامة الأشخاص أو نزاهتهم، فقد وصف القرآن المنافقين بحسن الكلام والقول حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾^(٢).

٢- الإحاطة بموضوع الحوار، من خلال الاطلاع الواسع، بما عند الآخر. قد يسهل الوصول إلى مشتركات وقناعات واتفاق، فلا يكفي أن

(١) بحار الأنوار ٣٣/ ٤٣٤ قال ابن الحديد المراد من الكلام هم الخوارج ضلوا بسبب الشبهات وكانوا يطلبون الحق، أما معاوية فلا يطلب الحق وإنما يريد الباطل وقال الشريف الرضي يعني معاوية.

(٢) سورة المنافقون: ٤.

يكون الإنسان ضالعا بالمعرفة بما يؤمن به أو يعتقد أو متخصص في مذهبه ومدرسته، وإنما المطلوب أن يعرف خلفيات ما يتبنّاه الآخرون أو يقرأ الآخرون، وهذا ما يميز إنسان عن غيره، بينما من يجهل الآخر ولا يعرف شيئا عنه من الصعب أن تكون هناك لغة تفاهم بينهم، فقد يتفق أن يستدل طرف بحديث أو رواية، فيحتج عليه الطرف الآخر، لكن من خلال اطلاعه يثبت له أن الحديث هو موجود عند الجميع، فيكون ذلك إفحاما للخصم، ولا يستطيع إنكار ودفع ذلك. وهذا ما يقع فيه الكثير حيث يظهرون البراعة في الكلام وإطلاق الصراخ دون أدنى علم أو إحاطة بالفكرة. يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجُوهَ الْأَرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأِ»^(١)، وآخر «مَنْ جَهِلَ وَجُوهَ الْأَرَاءِ أَغْيَتْهُ الْحِيلُ»^(٢).

٣- الحوار الهادئ الذي ينطلق من رحابة الصدر، فإن الصراخ المتعالي ينم على وجود نقص وشعور بالضعف في النفس، وإرادة قهر الآخرين، وهذه لغة بائسة لا يجيدها إلا الجهال والمتكبرون، بينما التواضع هو لغة احترام وتقدير للآخرين والاهتمام بالمشاركة الفعلية. إذا التواضع في حقيقته هو إيمان بالشراكة في كل الأمور، مما يضيف على الحوار السمة الإيجابية.

٤- ينبغي تخصيص الوقت الكافي للتعبير عن الفكرة والمطلوب، والاهتمام بالإنصاف والمساواة في الوقت أمام الجميع، دون محاباة أو مجاملة.

(١) ميزان الحكمة (العلم والحكمة) في الكتاب والسنة ص ٢٤٤. الكافي ٨ / ٢٢ / ٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٥٨٤.

٥- يجب تحرير النقاش والموضوع الذي يصب حول الاهتمام بأصل الحوار أو الخلاف، أما الحديث المبعثر أو المشتت من شأنه ضياع الوقت والغاية والهدف.

٦- الاهتمام بمخرجات الحوار من القرارات أو الأفكار وكذلك وضع آليات للتطبيق والتنفيذ، فإن كثيرًا من الحوارات تضيع من دون فائدة تذكر، أو مجرد كلام غير قابل للتطبيق والالتزام، ولذلك لا ترجو منها صيغة عملية وإلزامية. طبعًا هذا لا يقلل من قيمة الحوار نفسه، لكن من المهم أن يكون له انعكاسات إيجابية على مستوى العمل.

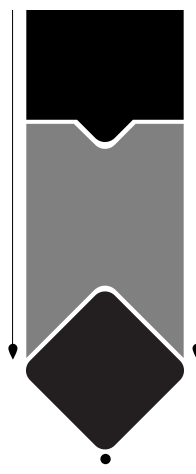
والخلاصة: إن التأكيد على أهمية الحوار في كل شأن هو تأكيد على لغة التعايش والتفاهم بما يحقق المستوى المطلوب في دفع عجلة البناء والإصلاح والتنمية، فالحوار نتيجة طبيعية للتفاعل مع القضايا والمساهمة في خلق بيئة إيجابية قادرة لتجاوز المشكلات وإدارة الأزمات؛ من هنا نحتاج قبل كل شيء إلى ترسيخ ثقافة المشاركة النظرية والفعالية، كي نرتقي إلى الأسلوب الأمثل في التعامل مع بعضنا بعضًا، والحوار هو جانب مهم في التعامل والعلاقة مع الآخر، بغية الوصول إلى شراكة تفضي إلى التعاون في كل الأبعاد وجوانب الخير في نفس الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١).

أما لغة الإقصاء أو التجريح والتهميش فهي في الحقيقة تنتج عكس ذلك، أي تعاون على الهدم: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢)، وما

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) سورة المائدة: ٢.

أحوج المجتمعات والأوطان إلى تحقيق البنية الأساسية في عجلة التقدم وهي الشراكة، والتعايش، والأمن والاستقرار، عبر التفاهم والمعرفة والحوار البناء. وهنا نقدم محاولة متواضعة كخطوات تساهم في تحقيق لغة مشتركة تأصيلية في أهمية الحوار، تحت عنوان: (أنا والآخر). ولا ندعي الإحاطة بهذا الموضوع.



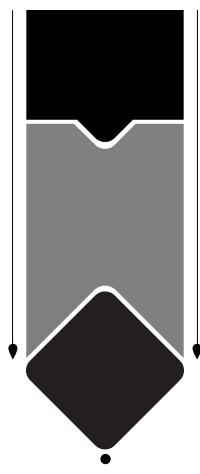
إضاءة

من الخطأ أن يدّعي أحد أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، وأن الآخرين على خطأ وباطل إلا إذا أثبت ذلك عبر الأدلة والبراهين كما قال تعالى في رده على اليهود: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن من أهم السبل هو الحوار الإيجابي، الذي يعكس قدسية الحقيقة والمبدأ، وكذلك الأخلاق الحسنة، وليس مجرد إيصال الفكرة والرّسالة.

وتتجسّد الأخلاق في الحوار في الكلام الحسن والأسلوب والاحترام والتقدير وكذلك في النوايا الحسنة وحسن الظن بالآخرين، فهذا الأساس حقٌّ مكفولٌ لكل إنسان. والجدال الحسن الذي نص عليه وأشار إليه القرآن يتضمن كل المعايير الحضارية والإنسانية التي تساهم في إنجاح أي حوار وتحقيق أهدافه، إذا المطلوب ليس فقط الرّسالة والحقيقة في ظل الحوار، وإنما المصداقية والقدوة، ومن دونهما نفتقد إلى رسالة الدين والقرآن، وكذلك ثقة الآخرين وعامل الجذب، وهذه حقيقة يغفل عنها كثير من الناس وفي الحوارات بالخصوص، حيث ينصبّ الاهتمام على إفحام الخصم والظهور بشخصية المنتصر، أو تسقيط شخصية الآخرين، أو التشفي

والانتقام، أو ننطلق من التعصب المقيت أو حب الشهرة، وغير ذلك، وكل تلك العوامل والميولات تتسبب في فشل كثير من حواراتنا وعدم الظهور بنتائج إيجابية ومؤثرة، ولها انعكاسات سلبية حادة؛ لذلك نجد أن أغلب هذه الحوارات يكثر فيها الكلام البذيء والسباب والشتم والاتهامات والكلمات النَّابية والتخوين، التي لا تراعى فيها المشاعر والأحاسيس والحرمان وحفظ الكرامة، فهي محكوم عليها بالفشل، لأنها بعيدة عن النزاهة، مهما تعالت فيها الأصوات وبُذلت فيها الجهود والإعدادات، لأن الحوار ليس حلبة مصارعة ومبارزة أو استعراض للقوة.

من هنا نجد أهل البيت عليه السلام، وهم القدوة في كل شأن، يُولون اهتماماً بالغاً بالمعاملة الحسنة مع الإنسان، ويؤكدون على الأخلاق أولاً. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كُونُوا دُعَاةَ لَنَا بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ»، وكلمة (لنا)، أي ممن يمثل مذهب الحق وأهل البيت عليه السلام، بالأخص، فالأخلاق هي المعيار للتقدم والحضارة والنجاح فلا يمكن أن نتصور علاقة إيجابية بين شخصين، أو في مجتمع وأمة، أو بين الأمم التي تسعى للبناء والازدهار والنجاح، لا يمكن ذلك من دون الأخلاق، مهما امتلكت من مقومات ومؤهلات، وهذه حقيقة يرشدنا إليها القرآن ببيان أسباب الفشل والانحطاط والهدم للأمم الماضية السحيقة، فهل نعي ذلك ونتعظ؟



مبادئ الحوار

موضوع الحوار من أهم المبادئ في العلاقات الإنسانية على مختلف أصعدتها ومستوياتها وتوجهاتها، فهو ممارسة لحرية الإنسان في التعبير عن آرائه وما يتبنّاه من معتقدات وقناعات سواء تجاه الآخرين أو الواقع الذي يعيشه، ولقد أكّد الإسلام على هذه القضية المهمة لأنها:

أولاً: حق مشروع لكل إنسان في ممارسة حريته. والحُرِّيَّةُ تعبيرٌ عن الكرامة التي حباها الله للإنسان وميزها بها عن سائر المخلوقات، ومن دونها يفقد الإنسان مبرر وجوده وخلافته قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)، فهذا التفضيل لم يكن عبثاً، إلا من أجل حكمة يقتضيها دور الإنسان في الحياة.

ثانياً: من أجل الاهتداء والوصول إلى الحقيقة والمعرفة، مما يساهم في رفع مستوى الإنسان، وتوسيع مداركه وتحقيق التكامل من خلال الآراء المختلفة والمتنوعة، وإثراء الحياة الاجتماعية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١) سورة الإسراء: ٧٠.

أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾.

ثالثاً: وكذلك تحقيق الأهم وهو التعايش السلمي بين أبناء البشر على اختلاف تنوعهم واختلافهم في الآراء والأديان والمذاهب. مما يفضي إلى العيش المشترك ووحدة المصير.

رابعاً: الاهتداء كذلك إلى القيم البناءة وترسيخ القيم الإنسانية من المبادئ والحضارة، التي تساهم في تحقيق التطلعات بدل القيم المزيفة التي تعيق حركة الإنسان ودور المجتمعات، وهذا هو الفارق بين الحضارة المادية وبين الحضارة الربانية والإنسانية، من هنا يؤكّد القرآن على ذلك ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

وبالرغم من تأكيد الإسلام على هذا الجانب كما هو ملحوظ في القرآن الكريم بشكل خاص وفي المبادئ الإسلامية بشكل عام، إلا أن الكثير يجهل هذه القضية وأهدافها الإنسانية والاجتماعية والحضارية، إما بسبب الجهل، أو التعصب، أو الحزبية الضيقة أو الأهواء المتبعة. ومن هنا ينشأ الانحراف والتخبط في كثير من الحوارات التي تنعقد هنا وهناك فتفقد مصداقيتها وأهدافها لتتحول إلى حلبة صراع وتصادم لا ينتج منه سوى الانتكاس وتعميق الهوة بين الأطراف والجهات وشحن النفوس بالكراهية والتباغض؛ لتصبح في الاتجاه المعاكس أي ضد المصالح والأهداف المنشودة.

ومن هنا لابد أن نؤكد على قضية الحوار كقضية رئيسية في حياتنا فمن

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

دونها لا يمكن أن نمارس حريتنا في أبسط الأمور، ولا نستطيع أن نؤسس إلى بيئة صالحة للحاضر وللأجيال القادمة والمستقبل. ومع أهمية هذه القضية في وقتنا الحاضر بسبب الانفتاح على العالم وتأثير هذا الانفتاح على كل مجالات الحياة التي نعيشها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة التطور والتقدم الهائل في مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصالات وتدفق المعلومات، كان لا بُدَّ من الاهتمام بهذا الموضوع والاستفادة من هذه المعطيات الحياتية والحضارية بشكل يحقق هويتنا الإسلامية ويساهم في بناء واقع أفضل أمام التحديات والتأثيرات. ومع وجود بواذر وخطى في تحقيق الآلية في مجتمعنا الحبيب من خلال مواقع الإنترنت والاهتمام بهذا الموضوع (قضية الحوار) عبر المنتديات الثقافية، فقد وقفت على بعض هذه الحوارات فتأثرت كثيراً من طريقة وأسلوب الحوار وكيفية معالجة الموضوعات؛ فهناك انحراف سافر لا يدل بالتأكيد على وجود وعي ودراية بأبعاد الحوار وأهميته ولا يتفق مع الروح الإسلامية التي تنص على الالتزام بكل القيم الإيمانية والأخلاق السامية ومع الخلق العام لمجتمعنا الحبيب. حينها سألت نفسي: هل هذه حوارات أم حلبة ملاكمة وصراع؟! وهل هذه طريقة حضارية أم تخلف؟! والسؤال الآخر الذي تمثل به الكثير من خلال المداخلات: ماذا يجني الإنسان أو المجتمع من هذه الطريقة في الحوار؟ وكل ذلك يحصل من وراء الستار والغرف المغلقة.

أهم مبادئ الحوار في الإسلام:

كان لابد من التذكير بأهمية الحوار ومبادئه من الرؤية الإسلامية والتي ترسم الخطوط العريضة في أي قضية للحوار، مع مراعاة اختلاف الجهات المحاورة فهناك الحوار الديني واللاديني، والحوار الديني والديني (الحوار

مع أهل الرسالات السماوية كالمسيحية واليهودية)، والحوار بين المذاهب المتعددة في إطار الإسلام، والحوار بين التيارات والتوجهات ضمن المذهب الواحد، فتتعدد الأساليب، فالمدخل للحوار وأسلوب عرض الفكرة يختلف نظرًا للقواسم المشتركة والثوابت وبين نقاط الاختلاف فهذا بحث آخر في الأساليب، لكن هنا نريد أن نؤكد على أهم المبادئ العامة والأساسية والتي يركز عليها الحوار كقاعدة لإنجاحه والظهور بنتيجة إيجابية على كل حال.

أولاً: الحق الإنساني:

فمن حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه وبكل صراحة لأن ذلك هو مقتضى الحرية التي أنعم الله بها على الإنسان، ولا يختلف في هذا الحق إنسان عن آخر ولا رجل أو امرأة، كما له الحرية فيما يعتقد ويتبنى من أفكار ومعتقدات فلأنه إنسان حر، وهذا مقتضى المسؤولية، ومن دونها يفقد الإنسان أي مبرر للمسؤولية تجاه أعماله ومعتقداته. يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١)، لأن الاستبداد وهو فرض الرأي أو المبدأ أو النظام بالقوة وتكميم أفواه الناس دون التعبير عن آرائهم ومواقفهم بأي أسلوب كان خطأ كبيراً في حق الإنسان وظلماً للمجتمع وسدّاً منيعاً للحضارة في أي تجربة بشرية طوال التاريخ، وقد يتخذ الاستبداد أطباعاً مختلفة وأساليب متعددة؛ فهناك الاستبداد الديني والسياسي والاجتماعي (العادات والتقاليد)، وكل ذلك له تأثير في العلاقة الإنسانية على مختلف مستوياتها، لأنها تعبر عن فكرة واحدة وهي فكرة الرفض للآخر أو المشاركة في القرار. من هنا نجد مقاومة الاستبداد لا تنحصر في الفكر الديني أو فكر معين، بل كل ما كان هناك وعي بالحق

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

الإنساني وشعور بالكيان الاجتماعي ورؤية واستشراف للمستقبل والدور الحضاري، كان هناك رفض لهذا الاستبداد وأشكاله من المقاومة والأساليب. وإننا نجد كيف أن المجتمعات التي تطبعت بهذا الحس ومارست دور الحرية ووعت لحقوقها كيف تحرص على تكريسها والتفاني من أجلها ليس بالمقاومة فقط وإنما بأخذ كل التدابير والاحتياطات لمنع ظهور ما يهدد أو يستبيح شيئاً من هذا المبدأ ألا وهي الحرية. إن التفكير الجدّي من قبل الإنسان والمجتمعات لمبدأ الحرية، وممارسته في الحياة على مستوى التفكير والسلوك هو مؤشر حضاري ودليل وعيها لأهدافها ومستقبلها ومصيرها وحققها الإنساني المشروع.

ثانياً: مبدأ الأخوة الإسلامية:

وإذا كان الإسلام أرسى قاعدة الاحترام مع جميع البشر ومع من نختلف معهم خصوصاً من أهل الديانات السماوية (أهل الكتاب) بالطريقة المثلى والحضارية والأسلوب الرفيع حيث قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)؛ فإن من الحق الواجب المؤكد إفشاء هذا الاحترام والحفاظ على مبدأ الأخوة الإسلامية مع أهل ديننا وعقيدتنا مهما كان هناك من اختلاف في الرأي، ولا يجوز بأي حال تجاوز هذا المبدأ تحت أي مبرر ووسيلة. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، وفي الحديث: «المُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعَرَضُهُ وَمَالُهُ»^(٣).

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

(٣) نهج الفصاحة، ص ٦١١.

وإذا كان الحوار في إطار الإسلام ضرورةً تقتضيها المصلحة ويفرضها الواقع وعند الاختلاف في وجهات النظر والقضايا فمن الواجب والضروري الالتزام بمبدأ الأخوة الإيمانية وألاً نختلف على ذلك. إن الإخلال بهذا المبدأ يكون سبباً للتفرقة والتنازع والتشتت وإضعاف وحدتنا وقوتنا. يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، ويقول أمير المؤمنين محدّراً: «وَيَاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّرَاحُمِ»^(٢)، فهذا التقارب والتواصل مدخل للتفاهم والحوار والتعريف بالآخر، وتكريس للثقة وتقريب للنفوس وإزالة الحواجز النفسية المصطنعة، أمّا التَّدَابُرُ والتَّقَاطُعُ فإنه تكريس للهوة وتعميقها والحذر من الآخر وسوء الفهم.

ثالثاً: لا قداسة في الحوار:

وإذا كنا تحدثنا عن المبدئين: الإنساني والإيماني، فهذا لا يعني ألا يكون هناك اختلاف، بل قد يكون ضرورة، كما أشرنا، وللوصول للحقيقة والهدف السامي، وهذا يعني ألا يكون هناك قداسة في موضوع الحوار، وبعبارة واضحة ليس هناك موضوع أو جهة أو رأي أو عقيدة أو فكر يتعالى على الحوار والمناقشة. صحيح أن كل ما نعتقده ونعتبره مقدساً هو الذي يفرض علينا قدسية الحوار، ويؤكد علينا الالتزام بكل المعايير والآداب التي تليق وتناسب مع هذه القدسية، لكن هذا أمر والحوار فيها أمر آخر.

(١) سورة الأنفال: ٥٦.

(٢) نهج البلاغة في خطبته لولديه الحسن والحسين عليهما السلام.

وأشار القرآن إلى نماذج مختلفة تشير من جهة إلى أهمية الحوار وأنه لا قداسة وخصوصية لموضوع، فهناك الحوار بين الإنسان والإنسان، الخالق والملائكة، الأنبياء والإنسان، الشيطان والإنسان، الشيطان والخالق...، ولا شك أن في هذه الحوارات المختلفة الأبعاد عبرًا ودروسًا لمن أراد أن يتدبر فيها ويقف عندها، والشاهد فيها أنها تؤكد مشروعية الحوار وأنه لا أحد يعلو عليه، وإذا كان هناك قدسية لطبيعة الموضوع فهو يؤكد على أهمية الأسلوب والطريقة المتبعة في الحوار والارتقاء بالآداب والأخلاق وليس المنع والصد أو الاستبداد. نعم هناك خط أحمر كما تشير إليه الكثير من الأحاديث والروايات هو التفكير في ذات الله ففي الرواية: «فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَقَدْ تَزَنَّدَقَ»^(١)، أي كفر، والعلة أن العقل محدود وليس له قابلية فيمتنع عن الإحاطة والخصوصية الإلهية، كما أن التفكير والاختلاف في ذات الله ليس له نتيجة وثمره إلا الحيرة والتهيه، فتأمل.

رابعًا: مبدأ الأخلاق عند الاختلاف:

الأخلاق في الإسلام هي مؤشر الوعي وكمال الدين وسمو الشخصية^(٢)، والغفلة عن تقمُّص هذا الدور يعني الشيء الكثير وعلامة

(١) كنز العمال رقم ٥٧٠٤، باب النهي عن التفكير في ذات الله، ميزان الحكمة ج ٣.
(٢) ولا أدل على ذلك من الأدلة الكثيرة، من أهمها: «لا يُوضَع شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»، وفي خطبة الرسول قبيل شهر رمضان: «... من حسن في هذا الشهر خُلِقَهُ كان له بذلك جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام»، وفي الحديث الآخر: «لا تنظروا إلى كثرة صلاة الرجل ولا إلى صيامه وقيامه ودننته في الليل، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأدائه للأمانة»، وأيضًا: «التَّقَى رَئِيسُ الْأَخْلَاقِ»، وهل نتصور رئاسة التقى من دون الأخلاق؟ وأخيرًا يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ فَقَدْ عَذَبَ نَفْسَهُ».

استفهام. لكن قد يبرر البعض عدم التزامه هذا المبدأ تحت أي ذريعة ووسيلة من أجل تحقيق أهدافه الشخصية أو أغراضه الدنيوية أو أطماعه التوسعية فيتجاوز الحدود ويسيء الأخلاق. وأكد الإسلام على الأخلاق كمبدأ ثابت لا يخضع للميول والرغبات والحسابات، ولا يقرُّ بتجاوزه تحت أي ذريعة أو منطلقات. وفي هذا الشأن نجد أن قضية الاختلاف أمرٌ طبيعيٌّ في الحياة الإنسانية، وهذه القضية قد لا تحتاج إلى إثبات ولها مبرراتها الشرعية والعقلية والطبيعية^(١)، لكن ليس هناك مبرر أن يكون هذا الاختلاف مصدرًا للإساءة وسوء الأخلاق ضد الآخرين. وإذا كان الحوار ضرورةً حضاريةً عند الاختلاف وخطوةً متقدمةً في معالجة أمر الاختلاف وما ينشأ عنه من التباين في المواقف ووجهات النظر، فيجب الالتزام بالأخلاق كمبدأ ثابت لا يمكن تجاوزه بحال.

ويحرص الإسلام أن تكون الأخلاق ركيزةً أساسيةً في شخصية الإنسان المؤمن وسمة بارزة في المجتمع الإسلامي؛ ولذلك جاء التركيز على تزكية النفس والتخلص من سلبياتها والتحلي بمكارم الأخلاق والتطلع إلى الفضائل والإيمان والتقوى، وليس فقط التظاهر بالإيمان والصالح

(١) المبرر عقلي لاختلاف مدارك الناس ومستوى تفكيرهم، وشرعاً هو سيرة العلماء والفقهاء وطبيعة اختلافهم في مسائل الأحكام الفقهية والقول بفتح باب الاجتهاد. وأما الطبيعية في الحياة كاختلاف الأذواق والأمزجة والعادات والتي لها تأثير في الحكم على كثير من المسائل الحياتية. ويرى بعض العلماء أن للعرف وللعادات مدخلة في بعض الأحكام، على سبيل المثال لا للحصر، في تحديد المكيل والموزون، فبعض المجتمعات تباع البيض بالعدد وأخرى بالوزن، ومن العادات لو شك الإنسان في الصلاة هل توضع أم لا، فإذا كانت هناك عادة راسخة قبل الوضوء تدل على إتيانه يعمل على ذلك. فتأمل.

والالتزام بالقشور، فإذا ما تعرض الإنسان إلى مواجهه أو شدة أو مواقف حرجة ترى حقيقة هذا الإنسان وضعف شخصيته. وهنا لا بد أن نشير إلى مستويات الأخلاق في الإسلام فقد تقتضي طبيعة النفس الانزعاج والاضطراب بسبب الاختلاف فتبادر لتحقيق مطالبها أو تسعى للتشفي والانتقام عند ردة الفعل أو التعصب أحياناً.

المستوى الأول: احترام الآخر:

فلا نتجاهل الآخرين، بل لا بُدَّ من احترامهم وتقديرهم والحفاظ على حقهم المشروع بالتعبير عن آرائهم وأنصافهم، من هنا نهى الإسلام عن التحقير والاستهزاء والسخرية، وأمر بإفشاء السلام وإظهار التحية، ويمكن الاستفادة ذلك من كثير من الآيات والتأكيد على هذا الأمر. قال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾^(٢)، فمقتضى الإنصاف والمبرة هو الاحترام والتقدير كما في الآية، فكيف الحال مع أهل ديننا وعقيدتنا.

المستوى الثاني: الثبات أمام أخطاء الآخرين:

بألا تكون هناك ردة فعل معاكسة للرد بالمثل، لأن ذلك ليس مبرراً أن نقع في الخطأ نفسه. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٣)، «أي لا ترتب الأثر على ذلك كردة فعل ونسيء الأخلاق، وليس أن نتظاهر له

(١) سورة الممتحنة: ٨.

(٢) سورة التوبة: ٦.

(٣) سورة الفرقان: ٦٣.

بالتحية وهو السلام»^(١). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢)، فهذه الآية أكثر وضوحاً وتأكيذاً. لكن البعض ومن منطلق التشفي لا يُعير اهتماماً لذلك، فيتجاوز الحدود ويكيل الصاع بصاعين والكيل بكيلين كما يقال.

ولقد نهى الإسلام عن الشتم والسباب واللعن لئلا يكون سبباً ومبرراً لردة فعل الآخرين. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٣).

ومن وصايا الإسلام حتى في أثناء الحروب «أن لا تقطع الشجرة ولا تهدم البيوت ولا يرفعوا الأطفال ولا يتعرضوا للشيخ الكبير ولا يؤخذ القوم على غرة...»^(٤)، وقد أوصى الرسول بذلك في غزواته وحروبه ضد العدو؛ فانتصر الخير على الشر وعلت كلمة الله وأصبحت راية الإسلام خفاقة ومبادئه رمزاً للحضارة.

المستوى الثالث: التغاضي والاستغفار للآخرين:

إن التأمل في سيرة الرسول ﷺ تبرز لنا هذه المعاني الأخلاقية في أرفع درجاتها، حيث رفع يديه إلى السماء وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٥)، مع ما لاقاه من الأذى والضيم من قومه. فالقلب المشحون

(١) القول للشيخ العلامة الوائلي إحدى إحدى محاضراته القيمة في إذاعة إيران الإسلامية.

(٢) سورة فصلت: ٣٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٨.

(٤) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، ج ٣ ص ١٢٠.

(٥) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٩٥ ص ١٦٧.

بالكراهية والأحقاد أو بذكر أخطاء الآخرين وبقايا آثارها في النفس تتحول شيئاً فشيئاً إلى حواجز نفسية وأحياناً تفقد الإنسان التركيز في مهامه وقضاياها، وإذا كان الإنسان يحمل هدفاً كبيراً وتطلعات سامية ومرامي بعيدة كان أحوج إلى سعة الصدر ورحابة الأفق وطهارة القلب للقيام بالأعباء والمسؤوليات الجسام والتي تتطلب التركيز والتفرغ لما يهتف به.

من هنا خاطب الله سبحانه نبيه بهذا الخطاب: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١). والمغفرة في اللغة هي الستر. أما حقيقتها فهي ذهاب ما في النفس من هيئة الذنب كما جاء في تفسير الميزان، وهذا يعني أن المغفرة والاستغفار للآخرين تُطهِّر قلب الإنسان من كل أثر يحجب نور الهداية والمعرفة والإيمان، وهو ما يتطلع إليه ذوو الفضائل الرفيعة وهم المتقون: «فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا أَهْلُ الْفَضَائِلِ»^(٢) كما وصفهم الإمام علي في خطبة المتقين. والسؤال كيف نقنع الآخرين؟

وهنا مسألة تتصل بالأخلاق والحوار وهي قد يتصور البعض بأنه لا بدّ من الوصول في الحوار إلى نتائج حاسمة بين الأطراف، وهذه قناعة لا تخلو من تأثيراتها السلبية وانعكاساتها النفسية على أسلوب الحوار، وكمبدأ عام فهذا تصور خاطئ.. صحيح أنه قد يكون مهماً خصوصاً في الحالات الضرورية، ولكن السؤال العام في الحوارات: هل الهدف هو إقناع الآخرين فقط ولفظ؟ فهذا قد يحصل وقد لا يحصل، ولكن الأهم هو أن نقنع الآخرين بأننا أصحاب مبادئ وأخلاق، فالأفكار والحقائق ليست حبيسة أحد، بل

(١) سورة الحجر: ٩٧.

(٢) نهج البلاغة خطبة المتقين.

ربما جرت وتلجلجت في صدور أعدائها من الكافرين كما جاء في الأثر.

خامساً: لا بد أن يكون للحوار هدف:

فمن دون تحديد الهدف تكون العشوائية ويحدث التَّخْبُطُ، وقد نهى الله سبحانه عباده المؤمنين عن ذلك وقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(١)، وللآية أقوال في معنى اللغو فمنها الكذب، ومنها الكلام الباطل. وقيمة الأهداف تُحدَّد بمصالحها المختلفة القريبة والبعيدة، لكن من الحكمة أن تكون هناك أولويات، فما أهمية الحديث عن السياحة في بلد يفقد إلى الحُرِّيَّة والتنقُّل بأمان؟ وهذا لا يعني بالضرورة حصر الحديث والكلام في زاوية واحدة من دون الاستفادة من الأمثلة والشواهد الأخرى، لكن ما أردت توضيحه والإشارة إليه هو: «من الحكمة عدم إقحام المجتمع في قضايا قد تُفقد تشخيص قضاياها الراهنة أو الرئيسية في الحاضر والمستقبل». إن تحديد الهدف وتخصيص الموضوع له أهمية كبيرة في مسيرة الحوار والخروج منه بالفائدة والمصلحة، وإذا كان الموضوع له أولوية خاصة سواء من حيث الزمان أو المكان كان أكثر فائدة وأقرب إلى النجاح.

سادساً: الاستقلالية في التفكير:

فليس من الصحيح الدفاع المستميت عن الرأي أو المذهب أو وجهة النظر إلّا إذا كان عن دليل واقتناع، فكثير من النَّاس يدافعون عن عقيدتهم وتوجهاتهم بسبب ما ورثوه من علم ودون دراية، لتصبح عقيدة راسخة مع مرور الأزمان والأجيال بحيث لا تقبل المساس أو التشكيك، وهذه تعدُّ

(١) سورة المؤمنون: ٣.

مشكلة في قبول النقد من جهة وكذلك عدم قبول الرأي الآخر، بل يسعى لمصادرته، مما يفقد هذا الإنسان (المحاور) القدرة على معرفة الآخر، وكذلك كشف الحقيقة، وهذا تعصب مقيت لا ينفع الإنسان، ولذلك يشير القرآن إلى العقبة في هداية البشر والمجتمعات أمام دعوات الرسل وأمواج الهداية بسبب العناد والتعصب لدين الآباء أي الأجيال الماضية. يقول تعالى عن ذلك: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾.

وهنا نشير إلى نقاط مهمة تفصيلية تتعلق بالحوار وتساعد على إنجاحه، وقد أشرنا إلى بعضها في التمهيد، لكن بشكل عام وكخطوط عريضة. والآن نضع النقاط على الحروف كي تتضح الصورة، وهي:

١ - الاستعداد النفسي والتهيئة:

بأن يقصد من الحوار النجاح والاستفادة، أما إذا كان له سوابق سلبية ومشحون بالأفكار المضادة والنوايا السيئة، فإنه سوف يفتقد القدرة على الحوار والمداواة، وعدم تحمل وتفهم الآخر كما هو وطبيعته.

٢ - الإحاطة بموضوع الحوار:

أي الإلمام بالمعلومات والحقائق والتثبت منها وليس ارتجالاً أو نقلاً عن الآخرين، وهاتان النقطتان مرتبطتان أشد الارتباط، فقد يتخذ الحوار طابع النقد والمساءلة فهذا جانب من حرية الحوار. فهل نمتلك الاستعداد النفسي، كما أن النقد يجب أن يكون من منطلق المسؤولية والتثبت، أي عن علم ودراية وليس من منطلق الاتهام والإسقاط، فالنقد البناء مطلوب لأنه يضع الأمور في نصابها. وقد أشار الإمام علي إلى خصوصية هذا النقد

والمساءلة حيث قال: «أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد»^(١)، ولتقريب المعنى وبخصوص ما نحن فيه يشير سلام الله عليه إلى نقطتين رئيسيتين: النقطة الأولى تتعلق بالجملة الأولى (بورع واجتهاد) وهي تتضمن ركيزتين وهما:

أولاً: الورع أي الدقة في الحديث أو نقل الكلام والأقوال، وأمانة النقل. خصوصاً في أمر الدين، وهذا يتطلب:

أ- صحوة الضمير والخوف من الله في كل ما يقوله الإنسان وما ينقله؛ لأنَّ الله رقيبٌ عليه في السر والعلن وفي كل كلمة ولفظ. يقول تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٢)، يعني حاضر، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٣). يتحرى الحقيقة ويسعى من أجل تثبيتها وهو ما عبر عنه الإمام بـ(الورع).

ب- (اجتهاد) أي بذل الجهد والتقصي، وكذلك التفكير في محتوى الكلام والأقوال وليس الحديث على عنانه، وهو ما عبر عنه بـ(اجتهاد).

ثانياً: أما النقطة الثانية (وعفة وسداد)، ومن أجل أن تكون آراؤنا صحيحة وسديدة ويكون انتقادنا بناءً لا بد من مهمتين:

أ- التخلص من كل النوازع الذاتية والمصالح الشخصية ومطامع الأهواء، وهو ما عبّر عنه الإمام بـ(العفة).

(١) شرح نهج البلاغة لابن حديد ج ١٦ ص ٢٠٥.

(٢) سورة ق: ١٨.

(٣) سورة الإسراء: ٣٦.

ب- أن يطلب التوفيق ويكون قصده والدافع هو الحقيقة ليس إلّا. فهناك علاقة بين النقطتين: الورع والاجتهاد، وبين العفة والسداد علاقة تلازمية، فلا يمكن أن نحصل على واحدة دون الالتزام بالأخرى. فلا نتعصب لفكرة، أو لشخصية أو لحزب أو جهة، بل ينصبُّ الحوار على هدف سامٍ ونبيل، ويشير الإمام عليه السلام إلى أخلاق عالية بغية الالتزام بالحق وهو طلب الإعانة حيث قال: «أعينوني»، وهذا هو سبيل الإنسان العاقل والمؤمن ومن يسعى إلى التكامل والهداية وتحقيق الهدف، وليس الحوار للحوار والتسلية أو شهوة الانتقام أو التشهير وإسقاط شخصية الآخر وتحقيق الغلبة.

٣- النظرة الموضوعية:

حينما يفتقد الحوار إلى النظرة الموضوعية والتقييم السليم للقضايا فسوف تكون الأحكام عليها خاطئة وجائرة؛ لأنها تفتقد إلى أهم عنصر وأساس في الحكم على الأشياء وهو العدل والإنصاف، فالإنصاف من أهم المبادئ وأشدها على الإنسان، وأكد الإسلام على العدل والإنصاف في كل حكم وفي مطلق التعامل مع الناس وألّا نبخسهم حقهم في أي مجال. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(١) من هنا نجد أن منشأ الكثير من الاختلافات والصراعات والانطباعات الخاطئة يعود لسببين رئيسيين:

١- الجهل.

٢- عدم الإنصاف والعدل.

وهنا نتساءل: لماذا نجد إنساناً يقف ضد إنسان آخر، وطائفة ضد

(١) سورة الأعراف: ٨٥. سورة هود: ٨٥.

أخرى، وجهة ضد أخرى، هل لمجرد الاختلاف؟ وهل الاختلاف مبرر للعداوة والصراع؟ وهل من حكمة الباري أن تكون سنة الاختلاف من أجل الصراعات والتناحر والحروب والفساد في الأرض، أم من أجل الرحمة لما للاختلاف في الأمور من فوائد ومحفزات على القدرة في التفكير والتأمل كما قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١)؟ إذا، الاختلاف قد يكون رحمة للبشر، بشرط أن يتخلوا عن الأهواء والتعصب، ولهذا قال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾^(٢).

من هنا أكد الإسلام على الالتزام بالعدل والإنصاف مع الناس مهما كانت الأسباب واتسعت هوة الاختلاف وتعمقت حدة الصراع والعداء، فذلك ليس مبرراً للظلم والإجحاف. يقول تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ومن سماحة الإسلام وعدالته أنه راعى في قضية الحوار إنصاف الآخر ومن دون انحياز حتى مع العلم بأحقية وعدم صدق الآخر، كما كان الرسول ﷺ في دعوته، بل جعل نفسه مع الآخر في منزلة سواء تأكيداً لمبدأ العدالة وإنصاف الآخر ونزاهة الإسلام ومنطلقاته السامية. ولذلك خلد القرآن هذا الموقف، حيث يقول تعالى على لسان النبي الأكرم في دعوته ومحاورة أهل الكتاب: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣).

وهناك مجموعة من الإجراءات والتعاليم الإسلامية تساعد الإنسان

(١) سورة هود: ١١٨.

(٢) سورة النساء: ١٤٧.

(٣) سورة سبأ: ٢٤.

على تجاوز حالة التفرد والاستبداد والتعصب، ويكون منفتحاً ومنطلقاً، وألاً يعيش أسيراً تحت العُقد النفسية والحواجز الفكرية والمنطلقات السلبية في أي مسار، خصوصاً في قضية الحوار والحديث والتعامل مع الآخرين ويكون إيجابياً ومؤثراً:

ألف- الحقيقة بين الحب المفرط والبغض:

وقريب من معنى الحب المفرط هو (التقديس)، بحيث يصرف النظر عن كل ما يخالف هذا الميل النفسي عند الشخص ويحول دون الوقوف على النواقص والعيوب والأخطاء وإعطاء صبغة الكمال لمن لا يستحقه. والإنسان المبتلى بهذه النفسية هو أقرب شبهاً «بالأعمى الذي لا يبصر الطريق» في الظاهر. أما في الحقيقة فهو كذلك؛ ولذلك جاء في الأثر: «إن من الحب ما يُعمي ويُصم». والبغض المفرط هو عكس ذلك تماماً، وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

وَعَيْنُ الرِّضَاعِ كُلُّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَعَيْنُ السَّخَطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

فهما وجهتان لحقيقة واحدة وهو الانحراف عن الصواب والحقيقة. وقد حذّر الإسلام من الغلو والتقديس الذي يخالف الواقع ولا يتفق مع الحقيقة، حيث قال في حق أهل الكتاب الذين يغالون في تقديس عيسى ويؤلهونه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١)،

(١) سورة النساء: ١٧١.س

ويقول الإمام علي عليه السلام: «هَلَكَ فِيَّ اثْنَانِ: مُحِبُّ غَالٍ وَمُبْغِضُ قَالٍ»^(١)، وفي حكمته الرائعة: «أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ عَدُوَّكَ يَوْمًا مَا، وَابْغِضْ عَدُوَّكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(٢)، وهو إشارة إلى عدم التطرف في الحالين (فلا إفراط ولا تفريط)، من هنا جاءت وصايا الدين وتعاليم الإسلام. يقول الرسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ؛ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرَفْقٍ»^(٣) أي باعتدال، ويقول الإمام علي في حكمته البالغة في هذا الصدد: «الْتِنَاءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الِاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الِاسْتِحْقَاقِ عَيٌّْ وَحَسَدٌ»^(٤)، والعَيٌّْ هو الضلال وعدم الاهتداء إلى الحقيقة. والاعتدال هو إعطاء الناس حقوقهم بلا زيادة ولا نقصان في كل ما يستحقونه.

وهذا هو الموقف والمبدأ الذي يستند إليه العقل والإنصاف، إذ التفكير السليم فقط هو الذي يقود الإنسان نحو الاعتدال في كل ما يتبناه من قضايا وأفكار ومواقف. وإذا كان هذا هو مبدأ الدين ومنطق العقل والإنصاف فلماذا التجاوز والتقصير؟ وما المصلحة في ذلك؟

نموذج من التاريخ:

سأل معاوية بن أبي سفيان مجفن بن أبي مجفن الظبي من أين أتيت؟ وكان قادمًا إلى الشام قال: جئت من عند أعيان الناس وأبخل الناس، فقال له معاوية أو تقصد بذلك علي بن أبي طالب؟ قال: نعم، فقال له معاوية: «كذبت

(١) نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار ج ٣ ص ٢١٤ - من الكافي ج ٢ ص ٨٧.

(٤) نهج البلاغة الحكمة ٣٤٧.

يا لكع، (ويا لكع، هي صيغة نداء تستخدم للتحقير أي اللئيم أو الأحمق) وقال: أ لعلي يقال هذا؟! والله ما سَنَّ الفصاحة لُقْرِيشٍ إِلَّا عَلِيٌّ، ولو كان لعلي بيتان بيت من تبر (فتات الذهب) وبيت من تبين، لأنفق تبره قبل تبينه^(١)، فهذه شهادة من عدو، بينما التملق من الرجل لمعاوية على حساب الإمام علي عليه السلام رمز الكمال والعدالة.

باء- النقد الذاتي:

ثقافة النقد ضرورية للإنسان لا يمكن الاستغناء عنها، سواء عبر الحوار أو النقد الذاتي أو بالنصيحة والموعظة وإرشاد الآخرين، وكما أن الحوار فرصة لمعرفة الآخر، فهو أيضًا فرصة لنقد الذات واكتشاف النواقص والعيوب، والإنسان بشكل عام خُلِقَ وهو ضعيفٌ ومحدودُ الإدراكات، فلإنسان جانبان: الخير والشر، والمطلوب منه أن ينمّي جانب الخير ويصلح جانب الشر، والسبيل لذلك هو اكتشاف الذات، والنقد للذات من أهم السبل في بناء النفس وإصلاحها، فكثير من الناس يغفلون عن هذا الجانب، فيزكّون أنفسهم ويعطونها ما لا تستحق، أن القرآن يذكر الإنسان بطبيعته وبأنه مبتلى وضعيف. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾^(٢)، وقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾^(٣)، فهذه الطبيعة تضع الإنسان أمام الاختبار

(١) فضائل الإمام علي عليه السلام، وهذا إنصاف من معاوية رضي الله عنه لكنه يعمل عكس ذلك ويحارب الإمام عليه السلام في كل الميادين؛ فماذا ينفع ذلك؟

(٢) سورة المعارج: ١٩ - ٢٢.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٧.

والابتلاء وكذلك المسؤولية اتجاه نفسه، بالقيام بإصلاحها من خلال اكتشافه لنفسه يستطيع أن يتكامل ويسعى للبناء والإصلاح والتقدم. قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾^(١).

ولقد حذر القرآن من مغبة الغفلة والجهل وكذلك التكبر والغرور والإعجاب بالنفس والشعور بالكمال أو الاكتفاء بالادعاء بتزكيتها، فلا يقبل النقد أو التوجيه والنصح كما عبر القرآن عن ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢)، وهذا هو ديدن المتكبرين والجاهلين والظالمين. فالمطلوب أن يتواضع الإنسان ويستمع لنداء الفطرة والهدى والنصح، كي يستطيع أن يبني نفسه ويسعى للتكامل، وإلا استحق غضب الله وسخط الناس عليه ففي الرواية: «مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُونَ عَلَيْهِ»^(٣)، وأخرى: «الْعُجْبُ يَمْنَعُ الزُّدْيَادَ»^(٤)، فكل ذلك يمنح الإنسان فرصة التفكير والنقد الإيجابي، ففي الرواية أيضًا: «رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»^(٥)، وليس المطلوب من النقد جلد الذات، بل أن يضع نفسه دائمًا موضع الاتهام، كما جاء في صفات المتقين في نهج البلاغة: «وَهُمْ لِأَنفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ»^(٦)، والإنسان هو أبصر بنفسه وأحدق في معرفة واكتشاف عيوبها ونواقصها. قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(٧).

(١) سورة الروم: ٤٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٦.

(٣) بحار الأنوار ج ٦٩ ص ٣١٦.

(٤) ميزان الحكمة ج ٣ نهج البلاغة الحكمة ١٦٧.

(٥) الكافي للشيخ الكليني ج ٢ ص ٦٣٩.

(٦) نهج البلاغة خطبة المتقين.

(٧) سورة القيامة: ١٤.

لكن من طرق ذلك تقبُّل النصح والتذكير وما يقال فيه، ففي الرواية: «لا بُدَّ للمرء من ثلاث: توفيق من الله، واعِظ من نفسه، وقبُول ممن ينصحه»^(١)، وأخرى: «كَفَى بِالْمَرْءِ أَدَبًا مَا يَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِهِ»^(٢).

هذا التعاليم والتوجيهات تكفل للإنسان أن يهتدي إلى الطريق الصحيح في العلاقة مع النَّفس والذات بالطريق السليمة، وتُهيئ الإنسان لتسخير كل إمكانياته وقدراته في سبيل الخير والسَّعادة، ومن جانب آخر الذي يحتاج إلى تنبيه وتذكير هو تضخيم الذات بأن أنجز ما عليه وحقق المطلوب، ويصوِّر لنفسه وللناس أنه قدَّم ما يمكن تقديمه، فهذا نوع من تزكية النَّفس وإطرائها وغرورها، والشعور بالاكْتفاء، وهو منزلقٌ خطيرٌ في حياة الإنسان وحركته في الحياة، ولذلك ينبغي للإنسان أن يبتعد عن الشعارات وكثرة الحديث عن الإنجازات: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، بل الصحيح أن يستقل عمله؛ لأنَّ الإنسان مهما قدم وعمل لنفسه ولغيره في حق الله وفي حق نفسه قليل، ومن يتطلع إلى الأمام ويتنافس على الدرجات العُلى ويتسلح بالطموح ولا يكتفي بالقليل، كما قال الشاعر:

إِذَا كَبُرَتِ النَّفُوسُ فِي مَرَامِهَا ضَاقَتْ فِي تَحَمُّلِهَا الْأَبْدَانُ

والحوار فرصة ونافذة يطل الإنسان عبرها للتعريف بالذات وما يتبنَّاه الإنسان من جهة، ورأي الآخرين في ذلك، ولهذا يجب الحرص واستيعاب كل

(١) تحف العقول رقم ٤٥٧. ميزان الحكمة ج ٤ ص ٣٥٩٨.

(٢) نهج البلاغة الحكم القصار.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٨.

الآراء والأفكار التي تُقدَّم، والتفاعل معها من أجل تحقيق النجاح، فرأي الآخرين يُمثِّل جانباً من رؤية الإنسان، وهي ركيزة أساسية في مدى الاستعداد النفسي في تقبل الآخر والنقد. أمَّا الدفاع المستميت عن الرأي أو الذات فهو يمنع الإنسان من القدرة على اختيار ما هو خير وصالح، فـ«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها»^(١)، من هنا نقول إن من جوانب فلسفة الحوار هو النقد الذاتي.

جيم - حسن الظن بالآخرين

وذلك من أجل أن يتجاوزَ الكثير من الإشكاليات والمواقف اتجاه الآخرين، فهذا مطلبٌ أساس في بناء جسور العلاقة مع الناس، والتعامل معهم، ما لم يصدر منهم ما يحمله على الاتهام أو الرفض؛ فسوء الظن بالناس يجرُّ على الإنسان الكثير من الطرق الملتوية والمنحرفة أو الانفعالية اتجاه الآخرين، فيقع الإنسان في الإثم وهو الذنب، فلذلك أمرنا الله سبحانه بأن نتجنب هذا الخلق السيئ من أساسه، لأنه مدخل لكثير من التجاوزات والأخطاء وبداية لسلسلة من الإجرام التي لا تنتهي حلقاتها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

كما أن سوء الظن لا يبرِّر للإنسان اتخاذ إجراءات ضد الآخرين وخارجة عن القانون والدين والأخلاق ما لم يثبت بالأدلة والبراهين، فيقع

(١) نهج البلاغة الحكمة ٨٠، وتنسب إلى الرسول ﷺ. ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٧١.

(٢) سورة الحجرات: ١٢.

الإنسان في الإثم وهو الذنب، وفي ظل الحوار الهادف والجاد علينا أن نحسن الظن بالآخرين كي نحسن التعامل معهم والحديث والصدق. فليس الحوار فرصة لتصفية الحسابات، أو الطعن وإسقاط الشخصية، أو إفشاء الأسرار، أو إظهار العيوب دون مبرر، فالحوار ليس محكمة يقول فيها القاضي كلمته، ويكفيها قول الإمام علي عليه السلام محذراً: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ فَكَانَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»^(١)، هذا في حال التثبت فكيف في حال سوء الظن؟!

دال- التحذير من الخصومة:

يحذرنا الإسلام من الخصومة وهي العداوة والبغضاء للآخرين، من دون سبب أو أسباب واهية؛ لأنها تؤدي إلى القطيعة والإيذاء سواء بالكلمة أو الفعل، بل لا بد أن نسعى إلى حل النزاعات والاختلافات بالسبل السلمية والعقلانية والشرعية، ولا نترك الفرصة لدخول الشيطان: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(٢)، فنجد البعض يطلق لنفسه وذاته العنان لمجرد الاختلاف مع الآخرين فتكون عنده ردة الفعل بحيث يستبيح كل شيء ضد غيره من الكلام السيئ والسباب وإلحاق الأذى والتعدي على الحقوق.

وهذا أمر مرفوض ومخالف للمنطق وكذلك للدين. وهو موقف

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ٧٤ ص ١٩٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٣.

وسلوك غير حضاري البتة، ويدل على ضيق صدر الإنسان وعدم التزامه بالمبادئ والأخلاق. وللأسف نجد مظاهر الخصومة بين الناس وبالخصوص في مجتمعاتنا العربية هي السائدة وهي تعكس إلى حد كبير حالة التخلف، وعدم وجود الثقافة الحياتية والدينية والحضارية التي تحكم حياتنا، فنجد الخصومة بين الأخ وأخيه وبين الإنسان وجيرانه أقربائه وبين الناس في المجتمع، ولذلك من الطبيعي أن نجد فتوراً في العلاقات وقطيعة ومواقف سلبية اتجاه الآخرين. قال الصادق عليه السلام: «لَا يُخَاصِمُ إِلَّا مَنْ قَدْ ضَاقَ بِهِ صَدْرُهُ»^(١)، وفي قول آخر: «لَا يُخَاصِمُ إِلَّا شَاكٌ فِي دِينِهِ أَوْ لَا وَرَعَ لَهُ»^(٢).

ولا شك أنه كلما ازدادت هوة الخصومة وبالع فيها الإنسان ازداد الإنسان بُعداً عن الحق وسمَحَ لنفسه بارتكاب ما لا يجوز ارتكابه ضد الآخرين، وسوَّغَ لنفسه ما هو مُحَرَّمٌ، حتَّى تتحوَّل هذه الخصومة إلى عُقْد نفسية ورواسب من الأحقاد والثرات قد يصعب التخلص منها، ففي الحديث: «مَنْ بَالِغٍ فِي الْخُصُومَةِ أَثَمٌ، وَمَنْ قَصَرَ فِيهَا ظُلْمٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَنْ خَاصَمَ»^(٣).

الخصومة في الدين:

وهو عنوان مستقل في الأحاديث والروايات، فالخصومة قد تكون عامّة في الحياة ولأي سبب كان، لكن هناك إشارات للخصومة في الدين، أي تنشأ هذه الخصومة بسبب الاختلاف في وجهات النظر على مختلف الصُّعَد

(١) ميزان الحكمة ج ١ ص ٧٤٨.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٤٥.

(٣) ميزان الحكمة نفس المصدر.

والجوانب، سواء بين الأديان أو المذاهب أو الآراء والاجتهاد، وإذا كان الاختلاف أمراً طبيعياً في الحياة، فإنه في أمر الدين قد يكون أوضح وأشد قابلية؛ لأن مساحات الاختلاف فيه كثيرة خصوصاً تلك المسائل التي تعتمد على الإدراكات العقلية، وكذلك الآراء والقضايا التي تعتمد على الاجتهادات الظنية، وهذا الأخير باب واسع.

والسؤال المنطقي: ما مبرر النزاع والخصومات؟ وخصوصاً أن أمر الدين من الأمور والقضايا التي يعتمد اعتناقها على الإيمان والقناعة وعدم الإكراه كما يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، من هنا نجد أن الخصومة في الدين أشد خطراً وفتكاً من سائر الخصومات في الحياة، لأنها ليس مبررة على الإطلاق، وكذلك للنتائج السلبية على صعيد الإنسان والمجتمع كما هو الحال، حيث نجد بعض التيارات والمذاهب تسعى لفرض رأيها بالقوة، وفي سبيل ذلك تستخدم الإرهاب من القتل التكفير وهدم المقدسات وقتل الأبرياء. وتفكيك وحدة الأمة وإضعافها بسبب النزاعات والصراعات والجدالات؛ ولذا جاء التحذير الشديد من الخصومة في الدين ففي الحديث: «إِيَّاكَ وَالْخُصُومَةَ فِي الدِّينِ فَإِنَّهَا تَشْغُلُ الْقَلْبَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَتُورِثُ النِّفَاقَ، وَتُكْسِبُ الضُّغَائِنَ وَتَسْتَجِيرُ بِالْكَذِبِ»^(٢).

وهنا نبرز بشكل واضح تلك الآفات الخطيرة التي أشار إليها الحديث التي تنشأ بسبب الخصومة في الدين:

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٤٥.

١ - الانشغال عن ذكر الله

فبدلاً من أن يتوجه الإنسان إلى الله بكل مشاعره وسلوكه وأدواره، يصبح الشغل الشاغل هو تحطيم الخصم واعتباره هو العدو. وقد يكون هذا الخصم من أهله أو ملته، لأن الخصومة لا تعترف بأحد، ولا تفرق بين أحد. أمّا القلب الصافي الذي لا يعرف الكراهية وتسوذه المحبة فهو القلب الذي يسكنه الله سبحانه، «الْقَلْبُ حَرَمُ اللَّهِ»^(١)، ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللهم أبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة»^(٢)، فالقلب الذي يغمره الحب والإيمان هو الذي يتسع لحب الآخرين والناس جميعاً.

ثانياً: تورث النفاق

لأن المنافق يأخذ من الدين ما يوافق مصالحه وأهواءه، ولا يضره بعد ذلك شيء من أمر الدين والناس. والحديث عن النفاق في القرآن والإسلام لا ينفصل عن تلك المخاطر التي تُحدق بالامة، فالنفاق هو العدو في داخل الامة وهو أخطر من بقية الأعداء في الخارج، ولذلك كان مصير المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فتأمل.

ثالثاً: وتكسب الضغائن

أي الأحقاد والثرات التي تدفع الإنسان إلى الانتقام والتشفي والظلم، وهي سمات غير أخلاقية وغير إيمانية. يقول الإمام علي عليه السلام: «أشدُّ

(١) بحار الأنوار للمجلسي قدس سره ج ٦٧ ص ٢٥.

(٢) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

الْقُلُوبِ غَلًّا قَلْبُ الْحَقُّودِ»^(١). والروايات كثيرة في هذا الباب منها يقول علي عليه السلام: «بُسَّ الْعَشِيرُ الْحَقُّودُ»^(٢)، وعن الصادق عليه السلام: «حَقُّدُ الْمُؤْمِنِ مَقَامُهُ، ثُمَّ يُفَارِقُ أَخَاهُ فَلَا يَجِدُ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَحَقُّدُ الْكَافِرِ دَهْرُهُ»^(٣). ويقدم الإمام علي عليه السلام الحل الشافي فيقول: «أَحْصِدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ»^(٤).

رابعاً: وتستجير الكذب

فبدل أن يستجير الإنسان بالله ويعتصم بالحق عن الزلل والنار، فإنه يستجير بالكذب لتحقيق هدفه والوصول لمراده، من هنا نجد البعض يكذبون على الناس بأحاديث موضوعة وافتراءات ودجل من أجل فقط تحطيم الآخر والظهور بصورة المنتصر وصاحب الحق. ومن سمات المخاضمين كثرة الجدال والتحقير والتسقيط والتكفير. والكذب أيضاً من صفات المنافقين.

وبهذه الآفات التي تتصل ببعض، نعرف خطورة تلك المشاحنات والصراعات الجانية وسياسات التفرقة والطائفية التي تدور رحاها هنا وهناك باسم الدين وشعارات الإسلام وفتاوى التحريم والتكفير، وهي لا تحصد إلا الدمار والتخلف. فيجب الحذر من هذه التوجُّهات والتيارات مهما بالغت في النصيحة وتظاهرت بالالتزام وأكثرت من الوعظ والإرشاد، فقد جاء في الحديث: «إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ وَالْكَذَّابِينَ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَا أُمُّرُوا

(١) ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٤٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣١٠.

(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج ٧٢، ص ٢١١.

(٤) نهج البلاغة، ص ٥٠١.

بعلمه وتكلّفوا ما لم يؤمروا بعلمه»^(١)، والآخر عن علي بن يقطين قال: قال أبو الحسن: «مُرْ أَصْحَابَكَ أَنْ يَكْفُفُوا مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ وَيَدَعُوا الْخُصُومَةَ فِي الدِّينِ وَيَجْتَهِدُوا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ»^(٢)، «الْخُصُومَةُ تَمَحَقُ الدِّينَ وَتُحْبِطُ الْعَمَلَ وَتُورِثُ الشَّكَّ»^(٣).

إن الوقوف عند هذه التوجيهات كافٍ وراذعٌ عن الخصومة في الدين، من هنا نعرف أن الاختلافات في المسائل الدينية والمعارف الإسلامية سواء على صعيد العقيدة والشرع ليست من دواعي النزاعات والخصومات، بل هي دعوةٌ للتقريب والبحث والتفكير لتحقيق التكامل وإثراء الحياة العلمية والاجتماعية، والسبيل لذلك هو الحوار والتواصل والتقارب وليس الانكفاء، والعزلة وسوء الظن والتقاطع.

وإذا كان هناك حرصٌ على الدين والوصول إلى الحقيقة واتباع منهج الحق والهدى وتحقيق أهدافه فهذا يؤكّد على سبل الوعي والمعرفة وترسيخ قيم الحوار من خلال التقارب وليس على التخاصم والقطيعة وعوامل الهدم. إذًا، فالإسلام حينما يحذّرنا من الخصومة في الدين فهو يؤكّد على سمو المعرفة وسمو الحياة وسمو الإنسان، بأن نتسامى عن كل ما يعرقل المسيرة والبناء والتقدم في ظل المبادئ والقيم الخلاقة التي تخدم رسالة الإنسان في الحياة، وذلك لا يتم إلا بنبد الخصومات والتعصب؛ لأنها تقيّد الإنسان وتشلّ من حركته ولا تسمح له بالانفتاح نحو فضاء رحب وواسع

(١) ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٤٩.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٤٦٠.

(٣) ميزان الحكمة ج ٨ ص ٧٤٨.

يمكن أن نجني منه الكثير لشخصياتنا ولحياتنا وأمتنا وحضارتنا، «ولذلك تشتد الحاجة إلى ثقافة الحوار خصوصاً في المجتمعات الدينية لما للدين من دور مهم ومؤثر في حياة الناس، ولذلك لم يكن من السهل حتى على مستوى الرسائل السماوية والتي قامت بكل الأساليب وأقامت الحجج والبراهين في إقناع تلك الأقوام إلى أتباعها، وذلك يعود السبب إلى الانغلاق وعدم الانفتاح، لتصبح العقلية متحجرة والنفسية متصلبة، والعادات مترسخة، لا تقبل الجديد والبديل والهدى والحق كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٢).

ونجد لهذا الانغلاق آثاره السلبية على عقيدة الإنسان وفكره. يقول الحق: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، بل نجد الدفاع المستميت عن هذا الانحراف الذي يكلف الإنسان والمجتمعات ويصل بهم إلى الجحيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤) «^(٥).

(١) سورة البقرة: ١٧٠.

(٢) سورة المائدة: ١٠٤.

(٣) سورة الأعراف: ٢٨.

(٤) سورة لقمان: ٢١.

(٥) كتاب رسالة عاشوراء، للمؤلف، ص ١٣٠ - ١٣١.

واو- ثقافة الاعتذار:

فالإنسان غير المعصوم، معرض للأخطاء والإساءة للآخرين، لكن المطلوب هو الاعتذار، لأنه حق، يكفله الدين والمنطق والعقل (الذي يدرك الحسن والقبح)، والاعتذار من الإنسان يبرز قوة شخصيته والتزامه بالأخلاق، وليس من منطلق الضعف كما يتصور البعض. نعم، إن القاعدة الذهبية تقول: «إن المؤمن لا يسيء ولا يعتذر» فعن الإمام الحسين عليه السلام: «إياك وما تعتذر منه فإن المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر»^(١)، فالوقاية خير من العلاج، لأن الإساءة تترك أثراً في النفوس وتبعات، كما أن الاعتذار يعبر عن أبعاد في شخصية الإنسان ووعيه من خلال:

١- فالاعتذار هو تعبير عن المراجعة النفسية والفكرية عند الإنسان، ومن جهة أخرى هو ما يكتنه من تقدير واحترام للإنسان الآخر، حيث لا يجد تمييزاً ولا فوارق بينه وبين الآخرين، وهذا التحليل ضروري من أجل العودة والإنصاف لحقوق الناس، لأن «الناس سواسية كأسنان المشط»، ولا تفضيل إلا بالتقوى، وهذا الشعور هو الذي يدفع الإنسان إلى التراجع عن الأخطاء والإساءة.

٢- السعي لإصلاح ما فسد، فالاعتذار ليس مجرد شعور بالذنب أو الخطأ، بل يحتاج ويتطلب الإصلاح ما أمكن: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). ومناسبة الآية للذين

(١) ميزان الحكمة ج ٣ ص ١٨٥٨.

(٢) سورة البقرة: ١٦٠.

يحرّفون الكتاب، لكن يستفاد منها العموم.

٣- الاعتذار هو السبيل لزرع المحبة في النفوس وترطيب المشاعر بدل استعارها وتأجيحها؛ فيحدث ما لا يحمد عقباه.

٤- وكما أن الاعتذار مطلوبٌ وواجبٌ من كل الأنحاء، فإن قبول الاعتذار لا يقل أهمية، بل هو أهم على صعيد الأخلاق والقيم، وهو من أهم الصفات الحميدة والفضائل والتقوى. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾^(١)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢).

فهذه التوجيهات والتعاليم تمثل أخلاق الإسلام في الحياة وفي المجتمعات، وتوجد العديد من الروايات عن أهل البيت عليهم السلام حول قبول الاعتذار وتؤكد على أهمية الصفح والعفو عن الآخرين، حتى لو كان الاعتذار كاذباً، ولا حصر لها لكثرتها، نقطف بعضاً منها:

١- عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ اعْتَذَرَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِصْرًا»^(٣).

٢- عن الإمام علي عليه السلام: «اقْبَلْ أَعْذَارَ النَّاسِ تَسْتَمْتِعْ بِإِخَائِهِمْ»^(٤)، وأبلغ من ذلك، عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَا يَعْتَذِرُ إِلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا قَبِلْتَ

(١) سورة الشورى: ٣٧.

(٢) سورة فصلت: ٣٤.

(٣) مشكاة الأنوار، ص. ٢٢٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ١٢٣.

عُذْرُهُ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ كَاذِبٌ»^(١)، وعنه عليه السلام أيضًا «إِنْ شَتَمَكَ رَجُلٌ عَنْ يَمِينِكَ ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى يَسَارِكَ وَاعْتَذَرَ إِلَيْكَ فَأَقْبَلَ عُذْرَهُ»^(٢). وفي الرواية: «أَذْنَى مَا يَخْرُجُ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُؤَاخِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى دِينِهِ فَيُخْصِيَ عَلَيْهِ عَثَرَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ لِيُعِيرَهُ بِهَا يَوْمًا مَا»^(٣).

إن ثقافة الاعتذار وقبوله في الإسلام ترمز إلى بُعد الإنسان والحضاري؛ لأنه مطلوبٌ بين الناس والبشر عامة، دون تمييز بينهم، أمّا في الدائرة الإسلامية فهي تمثل العمق الإيماني والأخلاقي، لأنها تجسّد الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية، ولذلك ينبغي أن تكون ثقافة عامة في الحياة وبالخصوص عند الاختلاف، وبالأخص في ظل الحوارات، ومن دونها نفقد الصلات الحقيقية، لتبقى شعارات الدين والتعاليم مجرد قشور بعيدة عن الالتزام الحقيقي. أمّا حينما يحل العناد والمكابرة والقطيعة فإن ذلك يكرّس الكثير من السلبات والآثار السيئة التي لها عواقب في مسيرة الإنسان والمجتمعات، ولذلك يؤكّد الحديث عن صفات المؤمن «أن المؤمن ليس بحقود ولا بحسود ولا بنمّام»^(٤)، فهذه بعض آثار القطيعة والخصام وتجاهل حقوق الناس والآخرين.

٥- تبقى حالة استثنائية وهي الوقوف بالحزم والشدة أمام الظلم والعدوان، فليس من الصحيح والإيمان السكوت واللامبالاة اتجاه العدوان

(١) الدرة الباهرة، ص ٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٨ / ١٤١ / ٣٤.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٢ ص ٢١٧.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٧٦.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(١)، فتأمل وتدبر، على أهمية ردع الظلم والعدوان، وكذلك التأكيد على العفو والصفح، وهذا يرجع إلى الحكمة في الظروف والمواقف والملابسات لاتخاذ الموقف السليم والواجب الشرعي والمنطق، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٥)، فالمتصيد من كل ذلك هو اتخاذ الموقف المناسب والالتزام بالتقوى والحدود حتى في حالات القوة والانتصار والغلبة، فلن تجد مثل هذه القيم الإنسانية والحضارية إلا في نهج السماء والدين والإسلام.

هوية الحوار:

ومما قيل وسبق، يجب أن يتجرد الإنسان من كل الميول النفسية ويشهر

(١) سورة الشورى: ٣٩ - ٤٣.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

(٣) سورة البقرة: ١٩٣.

(٤) سورة البقرة: ١٩٤.

(٥) سورة النحل: ١٢٦.

سلاح الحقيقة، فالتعصب والتقديس والتحامل والكرهية كلها عوامل تحوّل مسار الحديث إلى قضية شخصية ومصلحية تدفع الإنسان إلى تحقيق ما يصبو إليه والدفاع عن توجهاته بكل الأساليب والطرق الملتوية، ويكون خلاف الحقيقة والواقع ولا يخدم الهدف السامي للحوار. وإذا كان هذا المنطلق والغرض فلماذا إذاً الحوار؟ ولماذا نستهلك الوقت ونهدر الطاقات؟ فيصبح الحوار بلا هوية وطعم.

وهنا نشير ونذكر بما سبق إلى بعض النصائح في ظل الاختلاف وأثناء الحوار والتي اقتبسناها من التعاليم الدينية والتجارب الحياتية بشكل عام:

- ١ - الوعي بأهمية الحوار البناء على كل المستويات.
- ٢ - حسن النوايا والظن بالآخرين.
- ٣ - الاستماع والإنصات الجيد للآخرين.
- ٤ - قبول الآخر واحترام الرأي.
- ٤ - محاولة التقريب بين الآراء لتضييق الفوارق والاختلاف.
- ٥ - تعزيز والتأكيد على القواسم المشتركة.
- ٦ - في بث روح الأخوة والمحبة والتواصل والتقارب.
- ٧ - التفكير في الوصول إلى مشاريع مشتركة وتنفيذية لما لها من تأثير واقعي يدفع باتجاه الانسجام والتلاحم والوفاق.
- ٨ - التأكيد على الكلمة الطيبة والحسنة وكل ما هو محبب للآخرين

يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١)، فالكلمة الطيبة عقب النفوس، كما أن الفكرة الصائبة تؤسر العقول. بينما الكلمة السيئة والنابية تحطم القلوب وتصدع العقول، ولذلك فإن الكلمة الطيبة صدقة يؤجر عليها، وهنا يشير الشاعر إلى التأثير السلبي للكلمة الجارحة:

جَرَّاحَاتُ السَّنَانِ لَهَا التِّثَامُ وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

٩- تقديم الهدايا «تَهَادُوا تَحَابُّوا؛ فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تَذْهَبُ بِالضَّعَائِنِ»^(٢).

١٠- التأكيد على سياسة اللين كما أشرنا في القول والفعل والموقف. «فَمَا دَخَلَ اللَّيْنُ شَيْئًا إِلَّا زَانَهُ»^(٣).

١١- التأكيد على قيمة الأخلاق في بناء العلاقات مهما كانت الخلافات، فهي مصدر الاستمرار والديمومة في الحياة والعيش المشترك. فالأخلاق هي محط المدح والثناء الإلهي لرسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤).

نموذج من تأثير الأخلاق الرفيعة:

نجد في قصة الرسول ﷺ مع اليهودي الذي كان جاراً له، حيث كان يُلقى القمامة على باب دار الرسول ﷺ، وفي مرضه عاده الرسول ﷺ وزاره في بيته، فتأثر اليهودي بهذا الخلق النبوي، فما كان منه إلا أن أعلن إسلامه

(١) سورة البقرة: ٨٣

(٢) وسائل الشيعة الحر العاملي ج ١٧ ص ٢٨٩.

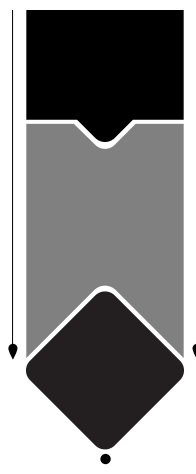
(٣) مر سابقاً.

(٤) سورة القلم: ٤.

وتشهد الشهادتين، وانحنى يقبل رجلي الرسول. فهذا الثمرة من الخلق العظيم الذي يمكن أن نجنيها من دون الحاجة إلى النزال والعراك والصراخ، أو حتى الحوار، ومع أشد الناس عداوة للدين وهم اليهود. من هنا جاء في الرواية عن الصادق عليه السلام، قال: «يَا مُفَضَّلُ، قُلْ لِشِيعَتِنَا كُونُوا دُعَاةً إِلَيْنَا بِالْكَفِّ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ واجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ واتباعِ رِضْوَانِهِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ إِلَيْنَا مُسَارِعِينَ»^(١)، فليس الكلام أو المنطق هو الحل أو المؤثر دائماً، بل الأخلاق هي أيضاً محط التأثير، مما يؤكد على دور القدوة، ولذلك يرى الكثير أن الذين أسلموا ودخلوا في الإسلام في الغالب كانت نتيجة الأخلاق من قبل الرسول ﷺ وطبيعة العلاقة والتعامل حيث قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢)، فالأخلاق هي الترجمان الصادق للعقيدة السليمة والفكر الصحيح. أمّا الإنسان المفلس من الأخلاق الذي تكون أخلاقه سيئة مع الناس من الصعب أن يحظى بالقبول والاحترام، أو يمتلك شيئاً من التأثير على الآخرين؛ لأنه يفتقد إلى المصداقية والمصالحة مع النفس.

(١) الكافي ٢/٧٨/١٤ وح ٩ - ميزان الحكمة ج ٤ ص ٣٦٠٢.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٤.



مفاهيم ضرورية

أولاً: بين الدين والحريّة والحوار:

وإذا كانت هناك أهمية للحوار في ظل الاختلافات، فيجب أن يكون هناك أهمية للحديث عن الحريّة التي تنطلق في فضائها الحوارات البناءة، لأنه من الصعب أن تكون هناك حوارات ناجحة وواسعة تشمل كل القضايا والأسس الحياتية ومن رؤية شفافة من دون وجود حريات للتعبير عن الرأي والرأي الآخر. وكذلك لا يمكن الحديث عن أهمية الحريّة من دون الحديث عن الدين والأخلاق، الذي يقدّم لنا الصورة الكاملة من خلال المفاهيم والتعاليم الرئيسة التي تتفق مع الفطرة الإنسانية والإيمانية والأخلاقية والحضارية.

أما الحديث عن ذلك من خلال التجربة الإنسانية فهي مفاهيم متأخرة وعرجاء لا تنفصل عن المصالح والأهواء، ولذلك نجد تلك الشعارات في الغرب التي تُنادي وتؤسّس لكثير من القوانين والمبادئ والتي منها الحريات والديمقراطيات لا تطبق إلا حسب المصالح، وتكون مبتورة، كما أنها تفتقد إلى الكثير من الخصوصيات والأخلاقيات، بل إن الواقع والتجارب البشرية تشير إلى عدم صلاحيات هذه المبادئ والحريات إلّا في مجالات محدودة،

بل إن كثيراً من المسارات لهذه الحريات تضر ولا تنفع وتعتبر في حقيقة الأمر هدامة، مثل حرية الجنس والمرأة وشرب الخمر وتعاطي المخدرات، وغير ذلك، بل نجد كلما تقدّم الزمن انكشف للعالم زيف هذه الحضارة المادية وما تتبناه من قيم منحرفة مثل مناداتها للشذوذ والمثلية، وتضع القوانين الكفيلة بهذه الانحرافات تحت شعار الحقوق.

وأخيراً، ينبغي أن ترتقي حواراتنا وعلاقة بعضنا ببعض إلى أعلى وأفضل المستويات من الأخلاق والآداب الإسلامية؛ لأنها تمثل سباً للحرية والمبادئ الحضارية، فالحرية نعمة من الله سبحانه فلا تتحول إلى نقمة بالإضرار بالآخرين أو زرع الفتن والعداوة والبغضاء، لأن ذلك هو من عمل الشيطان الذي نهانا الله أن نتبع خطواته ونستمع لأصاليه؛ «فالحرية تقيد الحرية»^(١)، أي إن حرية أي فرد لا تضر بحرية الآخر، أو بمعنى آخر، إن حرية الإنسان تنتهي عند حرية الآخرين، فلا يجوز التعدي عليها، فيكون تعدي على الإنسان الآخر.

وإذا كانت الحرية هي البيئة الأساسية للحوارات البناءة كي تحقق أهدافها كاملة، فإن الحرية لا تنفصل عن الأخلاق وإلا تحولت إلى فوضى وانفلات وانتهاكات وتجاوز للحقوق والآداب؛ من هنا نعرف أن الأخلاق تلازم الحرية كي نضمن دورها وصيانتها ومفعولها، فهما (أي الحرية والأخلاق) توأمان لا ينفصلان، ولذلك نجد الحرية في الغرب بالرغم من تقدمها لكنها تفتقد إلى الكثير من الضوابط والأخلاقيات، ولذلك لا يمكن

(١) المفكر الإسلامي الشهيد مرتضى مطهري. كتاب التقوى.

أن تكون النموذج الأمثل أو الذي يستحق الإشادة، وعلى هذا الأساس نجد المجتمعات التي تفتقد إلى الحُرِّيَّة في حياتها أو في جانب منها تفتقد القدرة على الحوار البناء والتعبير عن الآراء والقضايا بشكل صحيح وبأسلوب حسن. وكذلك حينما نفتقد إلى الأخلاق في ظل الحُرِّيَّة تتحول إلى فوضى وانفلات.

التربية على الحُرِّيَّة:

إن الحديث عن أهمية الحُرِّيَّات سواء في الحياة أو بالخصوص في ظل الحوارات والاختلافات إنما نتحدث عن الحُرِّيَّة النزيهة التي تصون الإنسان وتُحافظُ على القيم وتسمو بالمبادئ وتكرِّس قيم الخير والصالح في المجتمع، وليس على الحُرِّيَّة المطلقة التي لا تحترم خصوصيات الآخرين وتعبث على الفساد في الأرض. ومن جهة أخرى فإن الحُرِّيَّة كمفهوم ومبدأ لا يمكن الاعتراض عليه لأنه من أهم مبادئ الفطرة السليمة، لكن من الأهمية أن تكون هناك ممارسة فعلية لدورها، فمن خلال ذلك نستطيع فقط أن نتعرف على أهميتها وصيانتها والتعاطي معها على كل المستويات والصُّعَد، فيجب أن تكون مادة في الفضاء العام والخاص، من خلال الأسرة والتربية والمناهج والميادين العملية والمعرفية، وهذا هو مفهوم الدين للحرية، فالدين يقدس الحُرِّيَّة ويعوّل عليها، لأنها أصل من أصول الحياة لا يمكن التفريط به، بل لا يمكن أن نتصور الحياة الإنسانية من دونها، إلا إذا فقدنا الإنسانية والكرامة والأخلاق الحضارية.

من هنا نجد ذلك الإحساس المرهف نحو الحُرِّيَّة عند تلك المجتمعات

المتقدمة، التي تعد نموذجًا مهما شابها من انحراف أو نواقص، بل نجد الدفاع المستميت والنضال ضد الكراهية والفصل العنصري التي تسود في تلك المجتمعات. ومن النماذج في العصر الحديث هي تلك القيادات والرموز التي قادت مجتمعاتها إلى تحرير الإنسان من قيود الاستعمار مثل:

١- المهاتما غاندي زعيم حركة الاستقلال في الهند ورائد مبدأ مقاومة الطُّغيان باللاعنف، وقاد حملات وطنية ضد الفقر وعدم المساواة وضد الاستعمار البريطاني، وقاد بلاده إلى الاستقلال عام ١٩٤٧م (١٨٦٩-١٩٤٨).

٢- مارتن لوثر زعيم السُّود في أمريكا والحائز على جائزة نوبل للسلام (١٩٢٩-١٩٦٨م).

٣- نيلسون مانديلا الزعيم في القارة السوداء (أفريقيا) مناهضًا للفصل العنصري، وأول رئيس أسود لها، حيث قاد مجتمعه في جنوب أفريقيا لتحرير السُّود من البيض الذي يشكّلون الأقلية والحاكمة على الشعب، مما أودع في السجن ما يقارب ٢٧ سنة، لكنه في الأخير تحقق مرادّه وحقق الانتصارَ الكبير، وأصبح أيقونة الأحرار والنضال، وأسس حكمًا عادلًا لا يفرّق بين أسود وأبيض، وبسبب ذلك حصل أكثرية المجتمع على حقوقه في كل الميادين وحقق الكرامة.

ويمكن للوقوف لمعرفة المزيد عن هذه الشخصيات وغيرهم وعن نضالهم وتضحياتهم عبر شبكات النت والذكاء الاصطناعي.

ولا شك أن الفكر الديني الصحيح ومفاهيم القرآن والسنة المطهرة

أساس في تكريس المفاهيم والأسس الحياتية، لأنَّ شريعة الدِّين قائمةٌ في الأساس على أصل الحُرِّيَّة التي تُنَاط بها التكاليف والمسؤوليات، ولكنَّ من المؤسِّف غيابُ الوعي في ظلِّ سياسات الاستبداد والظُّلم عمِلَ على غياب هذه الأسس والأوليات الحضارية لتصبح ثانوية، أو خارجة عن نطاق الالتزام، فنجد حالة الاستبداد في المنزل والأسرة، وكذلك في الرهاب الاجتماعي، والأسوأ هو في تلك الموروثات الدِّينية أو القبلية التي تُمارس العنف والاضطهاد والاستبداد، فنجد الأب في الأسرة يُمارس دوره السلبي في زرع الخوف في الأبناء، ولا يقبل الاعتراض أو النقد؛ لأنَّ ذلك محرَّم ديناً ولا يتفق مع الأعراف والعادات. وكذلك الحاكم على البلاد لا يقبل النصيحة ويعيث في الأرض فساداً، دون أن يعطي أدنى الحقوق للرعية، بل يمارس السلطة نيابة عن ولاية الله في الأرض، ومن يعترض عليه فهو في الواقع يعترض عن الإله، وهكذا نجد أن فضاء الحُرِّيَّة يكاد يكون منعدماً.

وهنا تأتي أهمية العودة للدِّين والمفاهيم الصحيحة حول قيم الحضارة، ومن أبرزها قيم الحُرِّيَّة مفهوماً وسلوكاً وتربية، وليس الاكتفاء والاعتزاز بالأقوال والشعارات وتاريخ السابقين. إذًا، لا يمكن أن نجد أيَّ فاصلة أو مسافة بين الدِّين والحُرِّيَّة فهما يشكّان توأمين ملتصقين لا يمكن فصلهما عبر عمليات جراحية؛ لأنَّ ذلك يشكِّل خطرًا على صحتهما، ويكون مصيرهما الفشل أو الموت والنهاية. إن هذا التشبيه لا مبالغة فيه قطعاً، إلَّا في تلك العقول المتحجرة والسياسات القابعة والأهواء والمصالح المتبعة، إذ ترى هذا الجانب من الدِّين يشكل عبئاً وخطرًا، وتحدياً للسلطة الجائرة بشكل عام أي سلطة الأب أو المجتمع أو السياسة، ومن هنا نبدأ بالتركيز والاهتمام بهذا

البعد الحضاري الذي لا يقلُّ عن تلك الأصول العقدية والشرعية والأخلاقية. ولو تمعن النظر في آيات القرآن لوجدت أن الجهاد والنضال من أجل التحرير للإنسان أهم الركائز في إصلاح كل الشؤون الحياتية والدينية الاجتماعية، بحيث لا يترك عذرًا ومبررات تسوق تحت هذا البند، فنجد الباري يحمّل هذا الإنسان كفرد ومجتمع المسؤولية في تغيير وإصلاح ما فسد، والخطوة الأساسية - كما أشرنا - تبدأ من تحقيق الوعي الفعلي لانطلاقة الإنسان من خلال مفهوم الحرية والاستقلالية، فالتبعية المظلمة ما هي إلا نتيجة للاستسلام للواقع والتسليم للقدر، وكأنه واقع مبارك فيه، ومن خلاله يؤجر الإنسان ويكتسب الدرجات لصبره وتحمله للأذى والرق والاستعباد. فالخطوة على طريق الإصلاح تبدأ في التسلح بالمفاهيم الحضارية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، أي محاربة الجهل والمفاهيم البالية ومن أي منطلق.

أما الخطوة الأخرى هو النضال والمقاومة ضد سياسات الاضطهاد والاستبداد، لأنها لا تعبر عن مبدأ الفطرة ولا سياسة الدين القويم ولا قيم الحضارة الإنسانية ولا سبيل لها في التقدم والبناء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا

(١) سورة الرعد: ١١.

غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(١). والسؤال: هل يمكن أن نحقق أهداف الحوار في ظل الاستبداد؟ أو هل يمكن أن نلتزم بالأخلاق الحضارية في غياب الحرية والشعور بالمسؤولية؟

ثانيًا: مفهوم الحوار في القرآن:

من المفاهيم المغيبة والبعيدة عن الأذهان والعقلية الدينية مفهوم الحوار وأبعاده الحياتية والاجتماعية، حيث تنعدم الحوارات في علاقاتنا وارتباطاتنا تحت أي ذريعة أو مبرر. ولا شك هناك عوامل خارجية واجتماعية، مثل السياسات والعادات، ولكن أيضا هناك مفاهيم وتصورات خاطئة مرتكزة على المستوى الديني والأخلاقي، حيث يعتبر الدين دائرة مغلقة لا يمكن المساس بها، أو غرفة لا مفتاح لها، بل البعض يرى أن التفكير أو الحوار في الدين سبب للجنون، فما عدا الدين من أمور الحياة قابل للنقاش والحوار والأخذ والعطاء، وهذا الأمر لا ينطبق على الدين، وكأن الدين جاء مُفَصَّلًا وجاهزًا، ليس فيه مساحة للتفكير فضلًا عن الحوار، وهذا قضية واقعية ملموسة عند قطاع كبير من الجماهير بالخصوص الإسلامية.

ولقد كرّست السلفية الدينية المتشددة من هذا الاعتقاد، حين حصرت فهم الدين على طلبة الشريعة عبر الزمن، وخصصت المصادر المعنية بالدين والشرع لتصبح طقوسًا ومرجعيات في فهم الدين، بل أصبحت هذه المصادر

(١) سورة النساء: ٩٧ - ١٠٠.

أكثر قدسية من القرآن نفسه والسنة المعتبرة، وسميت تلك المصادر (بالصالح) لسد باب التشكيك أو الطعن فيها، بل فُسِّر القرآن عبرها، أي بالأدلة التي نقلتها، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، أو مكذوبة، حتَّى لو تعارضت أقوالها وأقوال أصحابها مع القرآن الصريح، وحتَّى لو تسربت إلى العقيدة مثل القول بالتجسيم. وبسبب ذلك تحجرت العقول وفسدت المعتقدات، وأفضت إلى القول بعدم الاجتهاد، وإشارة التزامية من قبل هؤلاء المتشددین بعصمة كتبهم ومصادرهم، والاكتفاء بأقوالهم ونقولهم، وهذه قضية خطيرة في الوعي الديني والإسلامي، وهي لها آثارها وانعكاساتها السلبية إلى عصرنا الحاضر، ولذلك ترى الجمود الفكري وإرهاصات التكفير والإرهاب باسم الدين.

وهذا هو سبب الردة والإلحاد لشباب الأمة خصوصًا في عصرنا الحاضر وفي ظل الانفتاح والغزو الفكر والانحطاط الأخلاقي، إذ يجد الشباب راحته النفسية والميولات الشهوانية تنسجم مع هذه الموجة والأفكار والسياسات الغربية وغيرها ممن لا حظَّ لهم في الدين والكرامة. وهذا في الواقع هو نفس السبب السلبي والدور التي قامت به الكنيسة، حيث وضعت سدًا منيعًا أمام التفكير الإنساني في فهم الدين والحياة، مما عطَّل مسيرة العلم وفهم الدين الإلهي، بل قامت كذلك بتحريف الكتب السماوية، وأقامت المذابح والمشائخ تحت عنوان (الهرطقة)^(١)، إذا ما هو الفارق؟ فالنتيجة واحدة.

(١) الهرطقة أو محاكم التفتيش فهي تتوافق مع الزندقة أي تغيير وانحراف عن العقيدة، وظهرت في المسيحية المبكرة، وهي تشكل تهمة توجه لمن يخرج عن تعاليم الكنيسة المقبولة، وغالبًا تؤدِّي إلى عقوبات شديدة وصارمة وذلك في القرون الوسطى، وفي عصرنا الحاضر ما تقوم به السلفية المتشددة والنواصب أشبه بذلك حيث يذبح الإنسان على الهوية.

ومن المفارقات أن تيار السلفية المتشددة لم تقم على فهم واجتهاد معقول، ولكنها انطلقت من العداوة والنصب لمدرسة أهل البيت عليه السلام التي نص عليهم الرسول ﷺ في حديث (الثقلين)، والذي قدّم فيه الضمان من الانحراف والضلال. ومن خلال ذلك نشأت كل الانحرافات والسلوكيات والعصبيات في واقع الأمة، ليصبح الحق باطلاً، والباطل حقاً، ولم يعد القرآن دستوراً ومنهجاً وشريعة. ولم يعد الاجتهاد مفتوحاً، بل أصبح محرماً، فتعطلت مادة التفكير في كل الاتجاهات وتكرست عبر المناهج، ونتيجة لذلك أصبح كل ما هو جديد حتّى في عصرنا يعتبر بدعة وضلالاً تؤدّي بصاحبها إلى النار! وبهذا يحكمون على أنفسهم ومصيرهم فتأمل. ونجد المفاهيم الإسلامية في كثير منها مغلوطة ومكذوبة، وأحياناً غير قابلة للنقاش والحوار، وهذه مصيبة كبرى حلّت بالأمة الإسلامية والإنسانية، والحل الأمثل هو العودة إلى مفاهيم القرآن الصحيحة وسنة أهل البيت عليه السلام الذي قدّموا المفاهيم القرآنية والإسلامية الصحيحة في كل شأن ومجال من الحياة، وفتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه ووضعوا لذلك القواعد والضوابط لسلامته، وأكّدوا على مرجعية القرآن الكريم، فما خالف القرآن فهو مردودٌ ويضرب بعرض الحائط، فهم أعرف الناس بالقرآن بتفسيره وتأويله كاملاً. ولذا من حاد عن هذه المدرسة العريقة والخط الرسالي فهو إما جاهل، أو ضال، أو مكابر، أو ناصب للحق. من هنا نجد ذلك الانحراف وقلة الاهتمام بمفاهيم القرآن والدين، لتصبح العلاقة هامشية وسطحية لا تتجاوز الحناجر وطلب الأجر والبركة، دون تغيير وأثر في الحياة وآفاقها، بينما نجد الأمم الأخرى التي أخذت بسنن الحياة تقدّمت وتطوّرت وأنجزت، لأنها لم تسكن

وتطمئن إلى تلك الأفكار والعقائد الفاسدة التي تبنتها الكنيسة، لكن ردة فعلها (أي تلك الشعوب) كانت مبالغة فيها بسبب كفرهم وشركهم ورفضهم للدين. وكأن الدين ليس من الله، إذًا، ما قيمة الرسالات السماوية، فتعطل بذلك العقل النوراني وسُلط عليه العقل الشيطاني ليصبح مطلقًا بحب الدنيا ومغرياتها ومصلحتها، فأصبحوا عبيد الدنيا، ومبشرين لكل المنكرات، ويسعون إلى هدم الإسلام ومحاربة أتباعه. قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١). يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «اللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقَنَّكُمْ بِهِ غَيْرُكُمْ»، وهذا تأكيد على ضرورة العودة للقرآن ومفاهيمه، بشرط أن نتخلى عن تلك الموروثات والسلوكيات. ومن جهة القرآن دستور حياة ومنهج متكامل في المسيرة، وبصيرة راسخة نحو آفاق

(١) سورة آل عمران: ٦٦ - ٧٤.

المستقبل، ويجب تكون هناك استجابة فعلية لهدى القرآن والإسلام والالتزام الصادق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١)، وقال ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٢).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أغلب آيات القرآن جاءت من أجل التفكير والتفكير في شؤون الكون والحياة والهدف والمصير، بينما نجد القليل جاءت مبيّنة للأحكام وقدرت بخمس مئة آية، مما يدل على أن الدين رسالة تهدف إلى إعداد الإنسان إعداداً صحيحاً بتنمية عقله وفكره قبل كل شيء، فالعقل في الدين هو رسول باطن، والرسول ﷺ رسالة ظاهرة، ولولا العقل ما كانت للرسالات تأثير واعتقاد والتزام، بل إن سبب الانحراف عن الفطرة والدين هو تعطيل هدى العقل. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٣).

ونجد في القرآن الربط الشديد بين العبادات وفي مقدمتها الصلاة والذكر، وبين التفكير الذي يعطي الأهمية والفلسفة، وكذلك يصل بالإنسان إلى الهدف وعلى المراتب وتحقيق الغاية وهي الجنة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

(١) سورة أنفال: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٣) سورة الملك: ١٠.

وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾، وقَدَّم الذِّكْر؛ لأنه هو الغاية من العبادة كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٢﴾، والذِّكْر هو السبب في دوام العلاقة والاستقامة، ولكنه لا يتأتى إلا بدوام التَّفكير في آفاق الكون والحياة. قال سبحانه: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٣﴾، ولذلك نجد أن العبادات وهي التزامات القطعية ليس لها من الثواب إلا بقدر التفقه والتعقل، ففي الحديث: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ مِنْ دُونَ تَفَقُّهِ»، أي قلة أجرها، انظر إلى هذه الرواية الشاملة عن الإمام علي عليه السلام: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَكُّرٌ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ» ﴿٤﴾، ولهذا قال الفقهاء أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام يجب الاعتقاد بأصول الدين عن تفكُّر بالدليل والبرهان، وليس عن تقليد. والأصول هي الأسس الذي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، مما يدعو المسلم إلى أخذ الدين بفهم وقناعة واعتقاد، وليس بالوراثة أو التقليد.

ثالثاً: فلسفة الحوار في القرآن وأهدافه:

من أهم المفاهيم القرآنية والإسلامية الحوار، أي التفاهم والتواصل بين النَّاس والبشرية جميعاً، وليس القطيعة أو فرض القوة، من أجل تحقيق

(١) سورة آل عمران: ١٩١.

(٢) سورة طه: ١٤.

(٣) سورة فصلت: ٥٣.

(٤) تحف العقول، ص ٢٠٤.

الغلبة أو المصالح الذاتية، نتيجة ابتاع الأهواء والشهوات، فالهوى هو أسُّ الانحرافات والطُّغيان وإيثار الدُّنيا. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(١).

إذا، الهوى يتجسد في أمرين هما:

١ - الطُّغيان وهو تجاوز الحدود، أي ظلم النفس والنَّاس.

٢ - إيثار الحياة الدُّنيا، وهذا سبب كافٍ للانحراف والشُّرور؛ لأن «حب الدُّنيا رأس كل خطيئة»^(٢)، ونتيجة لذلك فإن القرآن يهدف من الحوارات الدفع بها نحو الجدِّية والأهداف النبيلة والمنطلقات الحضارية، ولذا فهو يحذرننا من تلك العوامل التي تقف عقبة في قبول الحقائق، ومن جهة أخرى يعطينا الدروس والمبادئ والقيم البناءة في ترسيخ قيم الحوار وفلسفته، فالحديث عن الفلسفة والحوار ينصب في اتجاهات:

الأول - هو بناء الإنسان على القيم والمبادئ، من أجل علاقة صحيحة وإيجابية مع الآخرين، وفي ظلِّ الاختلافات بشكل خاص.

والثاني - هو تحقيق الإنصاف والعدل.

والثالث - هو الالتزام بالأخلاق والآداب.

(١) سورة النَّازعات: ٣٤ - ٤١.

(٢) الكافي ٢ / ٣١٥.

فهذه الأمور هي الطريق السليم في تحقيق السَّلام والأمن والاستقرار والتعايش السلمي على صعيد الحياة. وتأتي أهمية الحوار من هذه الفلسفة والمنطلقات، ولا شك أن الإخلال بهذه الأمور هو سبب للنزاعات والصِّراعات بشكل عام، كما هي سبب للفشل لأي حوار مهما كانت الظروف المتاحة والدوافع.

أما أهداف الحوار في القرآن جاءت متنوعة في أهدافها وغاياتها وأساليبها، وكذلك في تعدُّد جهاتها، فلا يمكن تصوُّر الحوار من طرف واحد أو جهة، إلا على سبيل الحديث مع النَّفس، فيكون حوارًا مع طرفين، أو أكثر، وبتعبير آخر هو المحادثة بين طرفين أو أكثر. ومن أمثلة الحديث مع النَّفس كما ورد في قصة قابيل وهابيل عندما جهل قابيل كيف يواري أخاه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(١). أما تعدُّد الجهات فلا حصر له، وسوف يتضح من خلال تقديم الأمثلة، فالتعدُّد هو حسب مقتضى الحال والحكمة والأسباب، لكن الهدف الأسمى هو الاهتداء إلى الحق والهداية من جهة، وكذلك تقديم الدروس والعبر في كل المجالات والشؤون الحياتية، فهناك الحوار بين الخالق والملائكة، وبين إبليس والخالق، وبين الخالق والرسل والأنبياء وكذلك بين الخالق والبشر، ولا يمكن حصر ذلك لكثيره في القرآن، حتَّى الحوار مع الطَّير والنَّاس والجنة والنملة، لكن ذلك هو تعبير القرآن على لسان الحال في الحوارات، لأنَّ الخالق هو من يكشف عن إرادة المخلوقات، وكذلك التعبير عن هذه الإرادة

(١) سورة المائدة: ٣١.

بالصدق، لأنَّ الكذب لا يكون إلا من العاجز وهذا يستحيل على الله، وفي هذا الحوارات القرآنية كثير من الحقائق التي تكشف عن الأدوار التي تمثلت في الحوار. ومن جهة أخرى لولا هذا الحوار والأسلوب والأداء ما اتضحت آفاق الحقيقة؛ إذ إن كثيرًا من الأسئلة ترد على الأذهان من دون وجود أجوبة مقنعة وواضحة. إذًا، الحوار مطلوبٌ من جميع الجهات والمجالات ولا يمكن الاستغناء عنه.

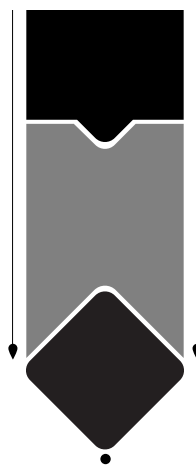
وأبدع القرآن الكريم في تقديم النماذج والصور البديعة في فنِّ الخطاب والحوار، ليصبح مصدرًا للإلهام والتفكير في ترسيخ أصول وقواعد الحوار، ولولا القرآن قد لا نجيد التعاطي مع الآخرين بالصورة الإيجابية والنموذجية، إلى درجة أنه قدم صورًا للحوار حتى مع الكائنات والمخلوقات الأخرى مثل الجبال والطير وغير ذلك، ومن الواضح أن ذلك من أجل توضيح الحقيقة وكذلك إثارة العقول والأسئلة التي تحيط بالموضوع والشأن، خصوصًا أن الطبيعة الإنسانية فطرت وطُبعت على الفضول والبحث عن المجهول، من أجل إشباع النفس البشرية وتوقها إلى التكامل والكمال، فهذا النهم العلمي عند الإنسان إنما يتغذى على هذه الإثارة والأسلوب الجذاب الذي يميّز به الحوار، كما هو أسلوب القصة في القرآن، وهذا يعكس منظومة النظم البلاغية والبديعية وكل المحسنات التي ترتبط بأساس اللغة العربية ومئاتها وخصوصيتها عن غيرها، إذ لا تجد في غيرها من اللغات هذا النظم، لكن ذلك لا يُدرك إلا بفهم اللغة وفقها وكذلك التفكير والتدبر.

ولقد أشار القرآن إلى ذلك بأن اللغة التي نزل بها القرآن ليس فقط لتقويم اللسان، وإنما الأهم هو إدراك الحقائق والغايات والعبر والاعتبار.

قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)، وعلى أساس ذلك تحدّى القرآن البشرَ وفي مقدمتهم بلاد الجزيرة العربية، وبالأخص قريش حيث كانت أفصح العرب، مما دفعهم للتشكيك فيه بأنه من عند الله، وقالوا بأن غير العرب علّموا النبي القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنْمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).

(١) سورة يوسف: ١، ٢.

(٢) سورة النحل: ١٠٣.



نماذج من الحوارات في القرآن الكريم

للحوار في القرآن الكريم حكمة وفلسفة نوردها حسب فهمنا:

النموذج الأول - تبيان عظمة الخالق:

تدل كل الآيات في الكون على عظمة الخالق وحده، وهذه الآيات على عظمتها لا تُحصى، ولذلك فإن الدليل على ذلك سهل يسير لمن أراد الحق والحقيقة، حتى لمن لا علم له ولا معرفة، إلا الفطرة الإنسانية، هي وحدها تدرك الحقيقة لولا تشوهها بسبب الانحرافات والضلالات. وهنا نشير إلى تلك القصة المشهورة في كثير من الكتب الدينية والقصصية، عن امرأة كانت بيدها مغزل تحركه، وكانت مؤمنة بالله، فسُئِلت عن دليل إيمانها، أشارت إلى المغزل وهو يتحرك بيدها، إجابة عن سؤالهم، أي عن السبب في هذه الحركة، ثم أوضحت لهم فكيف بهذا الكون الذي يعج بالأسباب والقوانين، فقالت وعقبت: «الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَبَحْرٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، وَبَرٌّ ذَاتُ فِجَاجٍ، أَلَا يَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟» ويعدُّ السؤال عن الخالق والخلق من أهم الأمور العقديّة والفلسفية في الدِّين والحياة، وفي تعاليم الدين تحذير وتوبيخ شديدين حينما يكون السؤال عن الخالق وشأنه، فذلك خط أحمر، لأنَّ الله قدرة لا متناهية لا

يمكن أن تُدرك، ولا يمكن معرفة كنهها، فالسبيل إلى المعرفة وإلى بلوغ الحقائق هو العقل، لكن هذه العقل هو هبة من الله وقوة و طاقة محدودة، له مدار محدد لا يمكن تجاوزه، وإلا أصبح حائرًا متخبطًا، ونتيجة لذلك يصل إلى نهاية غير محمودة وهي الكفر بالله والإلحاد، فيكفي الوقوف عن حدود هذه الطاقة المحدودة وإطلاق العنان لها بحيث لا تتجاوز المدار الطبيعي لها؛ من هنا جاء في الأثر «مَنْ تَفَكَّرَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَزَنَّدَقَ»^(١)، أي كَفَرَ.

ولا بُدَّ من التفريق في طبيعة السؤال عن الله أو عن مخلوقاته وآياته التي تمثل العظمة والقدرة وتجلياتها في الكون، للوصول إلى الحق وترسيخ الإيمان، فما طبيعة الأسئلة الموجهة من النبي إبراهيم عليه السلام والغاية منها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، وكذلك من النبي موسى عليه السلام. يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) من هنا يأتي الحوار ليكشف طبيعة السؤال الخالق من قبل النبي إبراهيم عليه السلام، وكذلك موسى عليه السلام إلى ربه والغاية منه. وللإجابة عن ذلك لا بُدَّ من الإشارة إلى مقدمات ضرورية:

(١) عيون الحكم و المواعظ (لليثي)، ص ٤٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٣.

حق السؤال:

١ - إن السؤال حق مشروع في الحياة إذا كان يتضمن مصلحة أو يدفع مضرة، أو لمجرد الاطلاع وتوسيع دائرة المعرفة حتى جاء في الحكمة)

العلم بالشيء خير من الجهل به، وأكثر من الناس يدخلون النار بسبب عدم سؤالهم، ونجد القرآن يشرع السؤال وضرورته في كثير من المواقع، ومثال على ذلك قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، مع العلم أن السؤال يبدو غريباً لأنه موجه إلى مريم العذراء المصطفاة من الله، لكن بسبب المفاجأة والخروج عن المألوف من وجود الطعام، أصبح السؤال مشروعاً، فليس السؤال عن جهل أو تشكيك في طهارتها -والعياذ بالله- وإلا أصبح مناقضاً للإيمان والتسليم بقدرة الباري، لكن السؤال في الدين وبالخصوص في العقيدة والشرع من الواجبات عقلاً وشرعاً، لأنه يحفظ الإنسان من الانحراف ومن النار يوم القيامة؛ ولذلك لا يجوز التقليد في العقيدة التي تعبر عن الأصول الأساسية في الاعتقاد، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

(٢) سورة البقرة: ١٨٩.

الْمُطَهَّرِينَ ﴿١﴾، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢﴾.

والسؤال حقٌّ طبيعيٌّ للإنسان واحترامٌ لرأيه، وهذا يكشف جانباً من حقيقة دور الدين وتعاطيه مع البشر والحياة وآفاقها الرحبة، حيث يسعى لتنمية الحسِّ والتفكير عند الإنسان دون تلكؤ أو إمساك أو ردع، كما نجده عند بعض المتدينين حين يواجهون بعض الأسئلة الحرجة فإنهم يسعون إلى التحايل من خلال زجر لسائل أو تهميشه؟ وهذه مشكلة لدى بعض المتدينين ذوي عقليات بدائية أو متطرفة أو ذوي أنصاف العلم، وهذا خلاف منهج الدين الذي يدعو إلى المعرفة والتفكير والسؤال حتّى يقال للإنسان إنه مجنون، فالشفافية أمر في غاية الأهمية، أمّا الغموض والجهل والشكوك والحيرة فهي سبب للانحرافات وضعف الإيمان والالتزام، ولذلك لا يمكن أن نسير في الخط المستقيم، ونقيم الدين في الحياة إلا بالعلم والبيان والتبليغ والتذكير، وكل ذلك يصبُّ في تعزيز المعرفة والسمو التكامل. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

٢- إن السؤال عن العقيدة من أهم المسائل في الحياة البشرية وأسمائها، ولذلك نجد البعض يدافع عن عقيدته بكل السبل، بغض النظر عن صحتها

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢١٥.

(٣) سورة الروم: ٣٠.

وخطئها، فالبشر يعتبرون العقيدة في حياتهم من الخطوط الحمر، ومن الصعب أن يتنازل عنها حتّى لو كلف ذلك حياته، لأنها شريانه ووجوده وروحه، لكن بسبب الجهل نجد أن تعصب كثير من الناس لمعتقداتهم من دون دليل وبرهان سمة بارزة فيهم. وهذا من أهم الأسباب للانحراف والضلال، ونتيجة لذلك يكون العناد والمكابرة وجحود الحقيقة، حتّى مع وضوحها، بل لسان حال الغالبية من البشر هو: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١﴾.

هذا التعصب للعقيدة ومن دون تفكير هو سبب الضلال والانحراف والعقائد الفاسدة. وكان من الأجدر والأولى هو التفكير والسؤال عن طبيعة هذه العقيدة خصوصًا حينما تفقد المصادر الموثوقة والمنطق والعقل، أي تتناقض وتتعارض مع البديهيات والمسلمات الفطرية والمنطقية كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٢﴾.

ونحن أمام مشكلة خطيرة تتجسّد في التعصب المقيت بسبب الجهل،

(١) سورة الزخرف: ٢٠ - ٢٥.

(٢) سورة المائدة: ١٠٤.

ولذلك نجد تلك المعتقدات الباطلة في الحياة، والتي تعبّر عن الانحطاط في مستوى الفكر الإنساني، إلى درجة من التسافل، فبعض البشر يعبدون البقر والأصنام والفئران، بينما نجدهم يبرعون في تحقيق كثير من الإنجازات الحياتية والتقدم في العلوم الطبيعية، فماذا يعني ذلك؟ والجواب هو اتباع الأهواء والشهوات وعدم الشعور بالمسؤولية، نتيجة حب الدنيا ونسيان الآخرة ويوم الحساب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١)، وقال: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاِبِ﴾^(٢).

وكما أسلفنا، هناك فرق في الاعتقاد بين التفكير في ذات الله فهذا محرّم ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً، لكن السؤال عن طبيعة المخلوقات وغاياتها وحكمتها هو من الضروريات والواجبات، ومن هنا يؤكّد القرآن على التفكير في عظمة الخلق والمخلوقات للدلالة على الخالق وعظمته، بل ذلك من أهم الطاعات والقربات، ولذلك نجد القرآن يعطي أهمية بالغة قصوى للتفكير في العقيدة في ظل الالتزام والعبادة، ومن دون ذلك تصبح العبادة قليلة القيمة والأجر والثواب. يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣)، وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «لَا

(١) سورة ص: ٢٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٩١.

خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ»^(١).

٣- العقيدة محلها القلب، والقلب السليم هو الذي يتمتع بالحيوية والنشاط والالتزام، ولا يتسنى ذلك إلا في ظل العلم والمعرفة. قال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، فيتعظم الدين في حياة الإنسان، ويبلغ مستويات من التكامل، ويحظى بالدرجات العليا، وفي هذا المضممار يكون التنافس بين المؤمنين والصالحين، فالطريق إلى الدين الكامل إنما هو بالعلم والمعرفة، فأول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به العمل به؛ وهنا تبرز قيمة التقوى أي العمل الذي يجسد الصدق، فالعلم من دون التقوى وبال وشقاء، والقلب السليم هو الذي يجمع بنين العلم والمعرفة والتقوى. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)، من هنا نعرف أيضًا أن المعرفة والإيمان مستويات، فالأنبياء والرسل والأولياء يقدمون شهادة الله على كل الشواهد والبراهين، فهم الصفوة من الخلق، أما سائر الناس فهم يتدرجون في سلم العلم والمعرفة كل حسب القدرة والقابلية والمدارك، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

(١) تحف العقول، ص ٢٠٤.

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) سورة الشعراء: ٨٩.

(٤) سورة الأنعام: ١٩.

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١﴾. وبعد ذلك نخلص من خلال هذه المقدمات إلى الكشف عن الأجوبة ومن خلال الحوارات وهي:

١- إن السؤال أمر مشروع من خلال ما تقدم، ويعتبر دلالة على الوعي والاهتمام والشعور بالمسؤولية خصوصاً إذا تعلق بأمر الدين، والأخص بالعقيدة.

٢- إن السؤال في العقيدة أمر ضروري وواجب شرعاً وعقلاً، لكن لا يكون إلا في المخلوقات والآيات، أما التفكير في ذات الله فهو محرم، ولذلك كان سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية الحياة بعد الموت، أي السؤال عن القدرة الإلهية.

٣- لما كان سؤال موسى عليه السلام طلب رؤية الخالق، كان الجواب استحالة ذلك، وحرف (لن) يفيد ذلك سواء في الدنيا أو الآخرة، خلافاً لبعض العقائد الباطلة التي تجسّد الخالق وتجزئ الرؤية يوم القيامة.

٤- إن العقيدة الصحيحة هي أساس الالتزام الصحيح، ولا يتم ذلك إلا بالعلم والمعرفة والبرهان، كما قال النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ولذلك من الواجب والمطلوب السعي لتحصيل المعرفة وترسيخ الإيمان، ولا يكتفي الإنسان بالمعرفة السطحية أو الالتزام بالقشور.

٥- إن الإيمان في ظل المعرفة مستويات ودرجات، وسؤال إبراهيم

(وكذلك موسى) ليس لطلب الدليل على إثبات الوجود أو القدرة للخالق، كلاً، بل لزيادة المعرف واليقين والقرب من الله، فلا يستوي البشر، بل لا يستوي الأنبياء بعضهم مع بعض، فكل له مقامه ودرجته، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(١)، وقال في حق النبي إبراهيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٢)، أما الحديث عن التقلُّب في أحوال إيمان النبي إبراهيم عليه السلام والتي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)، فهو من باب التوجيه وإيقاظ القوم وإثارة عقولهم وهدايتهم إلى الخالق، حيث كانوا مشركين، فأراد أن يصدّمهم ويصعق أرواحهم بتسفيه آلهتهم، التي لا تثبت على حال وتزول، فهو تعبير عن الشك الممنهج أو الافتراضات للوصول إلى الحقيقة النهائية، وهذا منهج مستعمل في علم الكلام والمنطق. فهل يمكن أن نتصور أن النبي عليه السلام وهو المعصوم أن يكون في البداية شاكاً في الله فاطر السماوات، كلاً. وفي عقيدتنا الإمامية أن النبي صلّى الله عليه وآله هو أعظم درجة من كل الأنبياء والرسل قاطبة، وبعده يأتي

(١) سورة الإسراء: ٥٥.

(٢) سورة الأنعام: ٧٥.

(٣) السورة نفسها.

الأئمة المعصومون عليهم السلام، وكما في الأثر أن الإمام علي عليه السلام قال: «لَوْ كُشِفَ لِي الْغِطَاءُ مَا أَرَدْتُ يَقِينًا»^(١)، وهل هذه منزلة خاصة به، أم مع سائر الأئمة؟ والجواب: إنها جارية مع بقية الأئمة.

٥- ينبغي للإنسان أن يسعى لتحصيل اليقين عبر العقيدة، وكذلك الالتزام بالتقوى التي تعني الالتزام بالدين والشمولية، وكذلك التقوى، وإلَّا أصبح معرضًا للانحرافات والنفاق والتلون، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢)، وفسر اليقين بالموت، مما يتطلب من الإنسان المؤمن الصبر والمجاهدة وترويض النفس عن الرغبات والشهوات. قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٣)، وفي دعاء الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية: «اللَّهُمَّ أَثْبِتْ الْحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا، وَازْهَقِ الْبَاطِلَ مِنْ ضَمَائِرِنَا؛ فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونِ لَوَاحِقُ الْفِتَنِ وَمُكَدَّرَةٌ لِّصَفْوِ الْمَنَائِحِ وَالْمَنِّ»^(٤).

النموذج الثاني: إبليس وخرق الطاعة:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

(١) الروضة في فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن شاذان القمي، ص ٢٣٥.

(٢) سورة الحجر: ٩٩.

(٣) سورة مريم: ٦٥.

(٤) الصحيفة السجادية، مناجاة المطيعين.

لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾.

كما أن الحوار يكشف عن مكنون الإنسان وما يضمّره من نوايا ومعتقد وكلام، يقول الإمام علي عليه السلام: «تَكَلَّمُوا تُعَرَفُوا؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»^(٢)، فهو (أي الحوار) أيضًا يستعرض الآراء والمواضيع ووجهات النظر للتعرف عليها ومناقشتها وتمحيصها، والأهم هو أن الإنسان يتبنّى الرّأي الصّحيح والموقف الإيجابي، فليس الحوار مجرد ثروة وفضول أو مجرد اكتشاف. إن الحوار في القرآن يهدف - كما أشرنا كثيرًا - إلى الهداية، وهو الالتزام بالحق، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^(٣)، فهنا نجد الحوار الذي جرى بين الله سبحانه وبين إبليس بعد أن أمره الله بالسجود إلى آدم فعصى إبليس ربه، لكن ما سبب هذا العصيان؟ وهل إبليس من الملائكة؟ وما الحكمة للسجود لآدم؟ فهذه أسئلة يثيرها الحوار ليشكّل رؤية متكاملة متنقلة من عالم الغيب إلى عالم الوجود والحياة، لتصبح رصيّدًا معرفيًا، يتلقّاه الإنسان، إذ هو المستهدف من كل هذه الحوارات والسجلات، فهو المعني بذلك، وليس مجرد حوار وقصة خيالية، لا علاقة لها بما يدور في حياتنا وكوكبنا. ولنقف عند بعض الأجوبة بشكل مختصر للفائدة وبما ينفعنا في مسيرة الحياة دون التحقيق في التفاصيل الدقيقة، في الفقرات التالية:

١ - إن إبليس في الأساس ليس من الملائكة الذي يأثمرون بأمر الله

(١) سورة ص: ٧٥ - ٨٢.

(٢) نهج البلاغة، ص ٥٤٥.

(٣) سورة يونس: ٣٢.

ولا يعصونه فهم مجبولون على الطاعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، فالملائكة خلقوا من نور، أما إبليس ليس من الملائكة، بل من الجن: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٢)، والجن خلقوا من نار. قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾^(٣)، وَسُمِّيَ جَانًّا لتواريه عن الأعين، ومنه الجنين في بطن أمه، لكن الله كرمه ورفعته إلى مصاف الملائكة بعد أن عبد الله سبحانه آلافًا من السنين، ولكن عند الاختبار والامتحان تكشفت حقائقه وأمانيه، ليجد نفسه أمام مشكلة وتحدي، فماذا كان يعتقد إبليس؟

٢- كان يعتقد بأنه بالعبادة حقق الهدف والغاية، فكأنه يمين على الله سبحانه، بينما الحقيقة أن الله غني عن عباده وكل مخلوقاته، لكن الله يريد من المخلوقات بما فيها الإنسان الطاعة لأوامره، أي الالتزام والانقياد، وهنا نشير إلى أهمية الفرق بين العبادة والطاعة، فالعبادة المطلوبة هي التي تحقق الطاعة، وليست أي عبادة حتى ولو كانت غير مطلوبة، فكل طاعة عبادة وليس العكس، وهذه مسألة في غاية الخطورة والأهمية، فكثير من الناس يعبدون الله حسب رغباتهم أو مصالحهم وما لا يتعارض مع أهوائهم، أو يلتزمون

(١) سورة التحريم: ٦.

(٢) سورة الكهف: ٥٠.

(٣) سورة الحجر: ٢٧.

بالدين والشرع في ساعة اليُسْر والرخاء لكن إذا ابتُلُوا واختَبَرُوا فَرُّوا من الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١)، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٢)، ويقول الإمام الحسين عليه السلام: «النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا فَإِذَا مُحْصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ»^(٣).

٣- إن نظرة إبليس كانت عنصرية وضيقة، حيث كان يقيس الأمور في إطار معادلات باطلة لا تقوم على أساس من المنطق والدليل، إذ يرى أنه أفضل من خلق الإنسان المخلوق من التراب، فكأن النار التي هي أصله أفضل، فكيف حكم إبليس بذلك؟ وعلى افتراض أن النار هي أفضل من التراب، ربما لتأثيرها فيه، فهل هذا مبرر للعصيان والتمرد والتكبر؟! إذا، المشكلة تكمن في أن المطلوب الطاعة والخضوع والانقياد للإرادة الإلهية، فهذه حكمة الله في الخلق والابتلاء، فالقضية ليس اختيارية. وهكذا يختبر الله العباد في كل الشؤون والمجالات.

وهنا أستحضر مناسبة أمر الرسول صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد بن الحارث (رضوان الله عليه) بقيادة الجيش إلى الروم، مع وجود كبار الصحابة والشيوخ والقيادات، فما الحكمة من ذلك؟ فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يجب أن يطيع الله فيما يأمر وينهى، وإلا أصبح مطيعاً لإله الهوى. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ

(١) سورة الحج: ١١.

(٢) سورة التوبة: ٤٩.

(٣) من خطبة الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء. واقعة الطف.

مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

٤ - لكن السؤال ما الحكمة من السجود لآدم (أي الإنسان)؟ والجواب عن ذلك هو الأهم في هذا الحوار، لأن الإنسان هو محور الحديث والمعني والمستهدف للأسباب الآتية:

أ- بيان عظمة الإنسان الذي خلقه الله ليكون خليفة في الأرض، ويحمل الأمانة الكبرى (أي الرسالة الإلهية) التي عجزت عنها السماوات والأرضون، وهنا إشارة إلى هذا التكريم الإلهي للإنسان حيث نسب الخلق إلى يديه وهي نسبة تشريفية وتعظيم، لأن الله سبحانه مُنَزَّه عن التجسيد.

ب- كما أن المطلوب من الإنسان أن يعتبر من هذا الحوار والموقف، فإذا كان إبليس تكبر وتجبّر، فيجب على الإنسان ألا يقع في هذا المحذور ويسقط في الامتحان، ولذلك لا يمكن أن نفهم الأمر بالسجود للإنسان من قبل إبليس هو الخضوع والطاعة والعبادة له، كلاً، فهذا الأمر والخصوصية لا تكون إلا لله سبحانه، فهنا السجود هو تعظيم وتكريم ليس إلا.

ج- يبدو أن مشكلة إبليس لا تقف عند هذا الحد، بل كانت لها تبعات، تتمثل في حقه وحسده للإنسان بوجه خاص، لتصبح عداوة دائمة بينه وبين الإنسان في الأرض، فهو لا يهدأ له بال إلا بإغواء الإنسان وإضلاله وإبعاده عن ساحة القرب من الله والعبادة، وشاءت حكمة الله تعالى أن يحقق له هذا الطلب، بأن توعد بنار جهنم وتحمل تبعات ذلك، فنجد في القرآن بياناً شافياً

في هذا الصراع والمعترك، حيث بدأ بإغواء آدم وزوجته بإخراجهم من الجنة. قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١). وقد تحدث القرآن كثيرا عن حبائل الشيطان ومكائده في تضليل الإنسان، وبكل الوسائل، وجيش معه الجيوش من الجن والإنس. قال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مَنِيَّتُهُمْ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيُتَّبَعَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيُغَيَّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾^(٢).

والحديث عن إبليس ودوره الشيطاني ومن معه يضع الإنسان في دائرة الخطر والحذر من هذا الخصم اللدود، وأن يعي دوره الشيطاني في تزيين المساوئ والشرور التي تقع في الأرض وللشيطان. لكن هل يستطيع الإنسان أن يقاوم ويواجه هذا التحدي والخبث؟ المعضلة ليس فقط في دور إبليس الذي ينحصر في الوسوسة وتزيين الشرور والفتن للإنسان، بل هناك أيضًا أعداء كثر من أخطرهم النفس البشرية، فهي الخطر الأول والأساسي، ولولاها ما استطاع الشيطان أن يكون له هيمنة وسلطان وتأثير، فتأثيره يأتي في المرتبة الثانية أي بعد اتباع الإنسان لأهوائه وشهواته. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(٣).

(١) سورة ص: ٧٧ - ٨٢.

(٢) سورة النساء: ١١٩.

(٣) سورة النحل: ١٠٠.

ولهذا السبب (أي النفس البشرية) التي قد تقود الإنسان نحو الهاوية والانحراف والفساد في الأرض قدّمت الملائكة اعتراضها على استخلاف الإنسان في الأرض؛ لعلمها واطلاعها على سجل الإنسان عبر حقبة زمنية ربما، أو بما علمهم الله بذلك، لكن هذا الاعتراض مرفوض، لأنه لا يقوم على أساس صحيح، أو بتعبير آخر لا ينطلق من الرؤية الشمولية ولا الموضوعية، بل هو اعتراض جانبي ومن زاوية غير متكاملة الأضلاع كما يعبر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، لكن حكمة الباري تقضي أن يكون هناك مخلوق مختلف عن دور الملائكة الذي ينحصر في العبادة والطاعة القسرية والمجردة من كل العوامل السلبية المؤثرة، فالملائكة ليس لهم إرادة اختيارية في تنفيذ الأوامر، بالرغم من قداستهم، لكن شاءت الأقدار أن يكون الإنسان هو نصب الاهتمام والاختيار لهذا الدور، وكذلك محور التعاليم والرسالات، والغايات والأهداف في الحياة والكون أي عالم الوجود الحسي والمادي، فهو جنس مختلف عن جنس الملائكة، ولهذه الحكمة أشار تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فالله سبحانه له الحكمة والإرادة والقرار والشأن في كل ما يريد، فلا يسأل عن ذلك.

ونجد القرآن يصنف النَّاسَ أمام هذه المسؤولية والامتحان والدور، أي الخلافة الإنسانية في الأرض، والتي عبّر عنها بالأمانة العظمى أي أمانة

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

الدين والرّسالة. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(١)، هناك صنفان والتي أشارت إليهما الآية وهما:

١- الذين سقطوا في هذا الامتحان والاختبار ولم يلتزموا بالدين بالرغم من كل الدعائم والمعززات التي تؤهلهم لحمل هذه المسؤولية والأمانة، من إرسال الرسل والرسالات وما منحهم الله من الإرادة والعقل، لكنهم أبوا إلا أن يتبعوا أهواءهم ويتبعوا الشيطان الرجيم، وهم المنافقون والمشركون، فبسبب جهلهم وظلمهم فإنهم يستحقون مصيرهم إلى النار. وقد يفهم من الآية من خلال وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول، وهما صيغتا مبالغة، فهذا أسلوب ذم للتعبير عن حال الغالبية من البشر حيث يفتقدون الإرادة والالتزام، وإلا كان من المناسب للاستجابة للعرض هو أسلوب وصيغة المدح وليس الذم، ولهذا قدّم الصنف الأول على الثاني.

٢- الصنف الآخر هم من تحملوا المسؤولية وتجاوزوا الامتحان واتبعوا الهدى وسبل السّلام؛ فكان مصيرهم إلى الجنة جزاءً لهم واستحقاقاً، وهم المؤمنون بالله والملتزمون بدينه وشرعه ونهجه، والتعبير بالتوبة لما يصاحب المؤمنين من التقصير، وقلّما يستطيع الإنسان تحمّل هذه الأمانة كاملة، كما أن عرض هذه الأمانة على السموات والأرض من باب التعظيم

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

لأنَّ السموات والأرضين أكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، كما أنها تفتقر إلى العقل والإرادة.

النموذج الثالث: الصبر والتواضع:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلِ اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ رَكِيَّةٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبُوءُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءَ

(١) سورة غافر: ٥٧.

وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(١).

مع أن كثيرًا من الغموض والملابسات تحيط بقصة النبي موسى عليه السلام والعبد الصالح، خصوصًا بما يرتبط بتلك الأحداث والمواقف التي قام بها العبد الصالح والتي تجسدت في الأمور الثلاثة الظاهرة في سرد القصة وهي بالترتيب: خرق السفينة خوفًا من غضبها من المالك الحاكم، وقتل الابن خوفًا على والديه من الإرهاب، وهدم الجدار خشية من سرقة أو أخذ الكنز من تحته، فهذه الأمور وإن كانت معللة، لكن هناك بعض الأفكار والنقاشات حول جواز المبرر من الإقدام على هذه المواقف قبل وقوع أسبابها، وكذلك لماذا يقدم النبي موسى وهو من أولي العزم ليذهب ويتعنى من أجل التعلم من العبد الصالح؟ هذه أسئلة وغيرها ترتبط بهذه القصة وفي ظل الحوار بين الاثنين.

ومن الواضح أن الأهم في هذا الحوار هو الوقوف عند الدروس والعبر والاستفادة منها ومن كل قصص القرآن، فالقصة في القرآن لها أهدافها وغاياتها، وسوف نشير إليها في باب مستقل خصوصًا أنها ذات طابع حوارى في كثير من جوانبها، وأهم الدروس والعبر التي تتجلى في هذه القصة والحوار هي:

١- الصبر والتواضع، فالسعي والكسب للحصول على الحقائق

(١) سورة الكهف: ٦٥-٨٢.

يتطلب الصبر والتواضع، فهناك تلازم، خصوصاً في جانب العلم، فالإنسان من أجل كسب وتحصيل العلم والعلوم يحتاج إلى التواضع ليكون تلميذاً جيداً ومستمعاً ومتعلماً ومتلقياً، ومن دون ذلك لا يمكن تحقيق التقدم، وهذا الأخير يتطلب أيضاً الصبر من أجل الاستمرار والديمومة. وفي الحديث: «وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»^(١) وفي الرواية يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَطَلَبُوهُ وَلَوْ بِسَفْكِ الْمُهْجِ وَخَوْضِ اللَّجَجِ»^(٢)، فالصبر أساس الثبات والاستقامة.

٢- كذلك عدم الحكم على الأمور والمواقف من خلال الظاهر، لا بُدَّ من الوقوف عند معرفة الحكمة والمصالح والغايات، خصوصاً إذا صدرت من العقلاء وأهل العلم والمعرفة والصلاح، بمعنى أن يرسو الإنسان في ذلك على قاعدة حسن الظن، فهي قاعدة أصيلة ودينية وأخلاقية، ولولاها لانهدم صرح الحياة وعرى العلاقات والروابط الإنسانية والدينية والأخلاقية، لكن ذلك لا يمنع من السؤال، بل قد يكون السؤال ضرورياً لكشف الملابسات والغموض، وهذا ما قام به النبي موسى عليه السلام عند وقوفه على تلك الأحداث، والعبد الصالح لم يمنعه من السؤال وإنما طلب منه الصبر والتريث لمعرفة الأسباب والحكمة. وكذلك ينبغي للمسؤول أن يبين وجه الحكمة والأسباب لإزالة الشكوك والريب لأن ذلك مدخل للشيطان والعياذ بالله، وهو ما بينه العبد الصالح في الأخير.

٣- وهنا نقاش حول جواز القيام بأعمال غير شرعية أي محرمة من

(١) نهج البلاغة من قسم الحكم.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ١ ص ١٧٧.

أجل مصلحة أهم، كما هو الحاصل في القصة من خرق السفينة فهو عمل محرّم أو ضررٌ ضد الآخرين، وكذلك قتل الابن العاصي لوالديه، وهدم الجدار دون إذن، لكن من أجل مصلحة أهم؟ والقاعدة الفقهية تقرر بنفي الضرر (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)، لكن يمكن القول إن القيام بذلك وما شابه من باب الضرورات، فالضرورات تبيح المحظورات، وتُقدَّر بقدرها، ويمكن أن يقال في هذا الموضع إنه بأمرٍ من الله سبحانه الذي يعرف مصالح العباد ويفعل ما يشاء، وهذا ما تلوح به ذيل الآية: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^(١)، وقال أيضًا: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٢).

النموذج الرابع - الاستنكار والتوبيخ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

(١) سورة الكهف: ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٣.

(٣) سورة المائدة: ١١٦ - ١١٩.

ففي ظل الحوار، جاء السؤال بصيغة الاستنكار والتوبيخ للمشركون، وليس استفهاماً قطعاً، فالله غني عن ذلك سبحانه، ولكن من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، وهو يفيد القطع ورفع كل الملابسات والشكوك، وبذلك يقطع الطريق عن اعتقادهم في عيسى عليه السلام الذي يعترف ويُقر بأنه عبد لله، وأنه بريء من هذه التهمة، حيث أشار الباري في قوله.

كما أننا نجد في ظل الحوار تلك القيمة الأسمى وهي كيف يحاور الله سبحانه رسله وأنبياؤه بأسلوب رفيع وأدب راقٍ، وليس من باب الاستخفاف أو التحقير أو الامتهان. وفي مناسبات أخرى يُقر فيها النبي عيسى بالعبودية ليؤكد على كذب وزعم المشركين: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^(١)»، فتأمل هذا الشرح الوافي والجواب اللادغ، من أجل إرساء عقيدة التوحيد والربوبية والألوهية.

ومن جانب آخر نشير إلى ضرورة الالتزام بمبدأ الصدق في القول

(١) سورة النساء: ١٧١ - ١٧٣.

والعمل وفي المواقف وخصوصاً في ظل الحوارات والنقاشات، وبالأخص الدينية والشرعية التي لا تقبل الخطأ بل لا بُدَّ من تقديم الأدلة أو النقل الموثوق، وهذا يتطلب الصدق لأنه يعبر عن الحقيقة، ولذلك جاء في الأثر «قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ»، أمّا الكذب والتدليس والمراوغة فهي أساليب شيطانية، وتعبر عن الضعف والخساسة والخبث في النفس، والمشكلة في ذلك أن يكون على حساب الدين وشعاراته وعلى حساب الناس والأمة، فهذا أمر خطير، حتّى نجد البعض يكذب ويخلق الافتراءات والاتهامات من أجل التضليل وإسقاط شخصيات الآخرين ودون خوف وخشية من الله، بل إرضاء للنفس وانتصاراً للحزبية أو المذهبية ومن منطلقات عصبية، إلى درجة أن البعض وفي ظل الحوارات يثني على القتل والإرهابيين الذين يعبثون في الأرض فساداً، فأى حوار يبتغي هؤلاء؟ وأي مصداقية وأي التزام بالدين أو مبدأ أو إنسانية؟ من هنا يحذر القرآن من اتباع الظنون في الإخبار والنقل أو الحكم على الأشياء بدون دليل واضح وصريح. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)، فالشعور بالمسؤولية أمام الله أولاً ثم أمام الآخرين وكذلك أمام قضايا الحياة ومبادئها، وسواء في الحوارات أو غيرها مثل التعليم والتوجيه، واجب شرعي وعقلي وضرورة حياتية ومطلقات حضارية، ولذلك نجد أن الكذب يتصدر غوالي الشرور والمساوئ ففي الحديث «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ الشَّرَابَ وَالْكَذِبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرَابِ»^(٢).

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٤٤.

ويعد الكذب من الكبائر الذنوب التي نهى الله عنها وحذر منها «وإن المؤمن ليزني ويسرق بعد أن يرتفع الإيمان حتى يتوب ويعود، ولكن لا يكذب»^(١)، ومن المؤسف أن نجد في حواراتنا المختلفة خصوصاً الدينية تختلق فيها الأكاذيب والتهم والاستهزاء والسخرية، وبقية المساويء وأمام مشهد العالم وعبر وسائل العصر من التواصل الاجتماعي، وبدون حياء وتستتر، والأدهى يوصم الآخرون من الدائرة الإسلامية بأنهم كفار، ويُبرّر قتلهم والطعن في إسلامهم، ويُفتى بعدم حلية ذبائهم، أو يقولون على الله ورسوله دون ورع أو يقولون بالتجسيم مساساً بالذات الإلهية، أو يقولون على الرسول بما لا يليق، ومثال على ذلك بأن محمداً بُعث بالرعب! فكيف يحاور من يكون هذا زعمه؟ إنه بلاء ما بعده بلاء ابتليت بها هذه الأمة في دينها قبل حياتها، ويحق للرسول ﷺ أن يقول: «كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَّابَةُ»^(٢)، فإذا، من السهل أن يُكذَّب على الرسول وعلى الله، فهل من العجب أن يكون الكذب صفة ملازمة لهؤلاء، مهما تستروا وتلبسوا بشعار الدين والإسلام؟ فما الغاية من الكذب والدجل؟ وما المصلحة؟ والجواب: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣)، لكن حبل الكذب قصير مهما طل الزمن، في حين الصدق هو المنجى في الحياة والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

(١) ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٦٧٤.

(٢) كتاب الغيبة، لمحمد بن إبراهيم النعماني، ج ١ ص ٧٦ «بحار الأنوار»، ج ٢ ص ٢٢٥.

(٣) سورة التوبة: ٣٢.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١)، ومن أجل ذلك حذر الله المؤمنين من الشعارات المزيفة في القول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢)، وقال أيضًا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣)، وفي ذلك كفاية لمن يريد النجاة.

النموذج الخامس: التفكير المادي وعواقبه:

قال تعالى: ﴿وَاصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقْلَبُ

(١) سورة المائدة: ١١٩.

(٢) سورة الصف: ٢ - ٣.

(٣) سورة الشعراء: ٢٢٧.

كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١﴾.

ينطوي التفكير المادي على أمور خطيرة وآثار وخيمة وعواقب سيئة، بدءًا من تفكير الإنسان وبناء الشخصية ودوره في الحياة وكذلك على بعده الاجتماعي من خلال المعاملات والمصالح مع الآخرين، والأهم في انعكاس ذلك على الأخلاق والمعاملة مع الناس. ولذلك من الضروري أن يعي الإنسان قيمته في الحياة ودوره من خلال ما يتقمصه من فكر ومبدأ وثقافة، لأنَّ الفكر هو الذي يقود الإنسان في هذه الحياة وهو الذي يرسم الخريطة في العلاقة مع المحيط والبيئة والأشياء من حوله، خصوصًا العلاقة مع الدنيا والناس. وأهم هذه الأمور هي:

١- النظرة الضيقة والمحدودة للحياة وللأشياء:

بحيث يقيس الأمور من جانب واحد أو زاوية ضيقة، بأن يرى الغنى والثروة نعمةً وخيرًا. في المقابل يرى الفقر نقمة، وهذا غير صحيح في منطق القرآن، فالغنى والفقر وجهتان لحقيقة واحدة هي الابتلاء، لكن حب الذات والنظرة الضيقة والسطحية للأمور ترى الأمور عكس ذلك، بحيث تنقلب عنده الموازين، فيتجاهل ويتغافل عن الجوانب الأخرى، وقد تكون أهم على كل المستويات والأبعاد الحياتية والإنسانية والاجتماعية وبقية الجوانب، فقد يكون فقيرًا لكنه عالم، أو كريم النفس أو صاحب خبرة

(١) سورة الكهف: ٣٢-٤٤.

وأخلاق مع النَّاسِ ومُعَافَى في بدنه، فما قيمة المال بدون عافية؟ أي إذا ابتلي الإنسان بالمرض؛ من هنا يشير القرآن إلى أن الغنى والفقر حالتان ووجهتان لحقيقة واحدة وهي الابتلاء. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(١)، ويقول أيضا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢)، فمن خلال هذه الآيات يشير القرآن إلى أن موضوع اختلاف الأرزاق هي بتقدير حكمة الله وتدبيره. هذا هو الأصل والأساس. قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٣)، و(سُخِرِيًّا) بالضم تعني التسخير، وليس الاستهزاء قطعاً، فلا دخل لإرادة الإنسان وسعيه، نعم يجب على الإنسان أن يسعى ويعمل بالأسباب، لكن ذلك لا يغيّر في المعادلة الربانية، حيث نتيجة هذه السعي قد لا تكون موفقة، وربما خسر هذا الإنسان كل ما يحصده لسبب من الأسباب من الآفات التي تحصل في الحياة، وخير مثال ما حصل لقارون، وتعتبر قصة قارون خير مثال على تأثير التفكير المادي على الإنسان ونظرته للحياة ومعاملته وموقفه من الآخرين، فتأمل للنظرتين المادية والإيمانية، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي

(١) سورة الفجر: ١٥ - ٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) سورة الزخرف: ٣٢.

الْقُوَّةَ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾، فانظر كيف قاد التفكير المادي قارون بعد أن كان من قوم موسى صالحًا، لكنه افتتن بالمال، فكان سببًا لنظرته الضيقة وغروره وإعجابه بنفسه، مما انعكس ذلك على نظره وازدراؤه الناس وعلى أخلاقه، بينما الطرف الآخر وهم المؤمنون الصابرون كيف ينظرون إليه، لا شك بحقارة وسخرية في مقابل ما يتطلعون من رحمة الله، فهذه الروح المادية إذا سرت في النفوس وتغلغلت إلى الفكر الإنساني، فلا يمكن التكهن بالعواقب والمصير، من هنا يحذر القرآن من هذا المسلك وتوابعه. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ

عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ^(١). بهذه الروح يصبح الإنسان منافقاً، مهما تظاهر بالصلاح والشعارات، لكن الحقيقة والواقع هو تكذيب للدين وكذلك يوم الجزاء، وهذه مشكلة يُبتلى بها المؤمنون والمسلمون، بالرغم من التزامهم بالأحكام والعبادات، لكن تفكيرهم في الحياة ونظرتهم للناس مادية، فإذا ما ابتلوا بالفقر مثلاً أو عند الأزمات شعروا بالوحدة والانعزال لأنهم يفتقدون حب الناس وقربهم، عكس الإنسان الكريم والمحِب للناس الذي يسعى لتسخير كل إمكانياته وقدراته في سبيل الخير والناس والمصالح العامة. ففي الرواية عن أبي الحسن الرضا عليه السلام يقول: «السَّخِي قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ عَنِ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ»^(٢).

ونتيجة لذلك لا يمكن أن يجتمع الإيمان الصادق مع البخل والأنانية والحب المفرط للذات، فينبغي التخلص من هذه الروح، وطبيعة التفكير، التي تقود الإنسان إلى المتاهات، فمن الضروري أسلمة التفكير بأن يكون الإنسان مسلماً في كل الأمور، وليس فقط في دور العبادة، أما في بقية الشؤون والميادين يكون شخصية أخرى، ليس لها علاقة بالدين والإيمان، وهذا الاختلال في شخصية المسلم والازدواجية من المشكلات والأزمات في حياة الأمة ووعيها، وأسلوب حياتها وتعاطيها مع الواقع والقضايا المختلفة، فما الذي يميز بين هذا الإنسان المتدين وغيره، سوى العنوان والشعار، ما دام

(١) سورة الماعون: ١ - ٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٨ ص ٣٥٦.

التفكير والمنطلق واحد، وهو السلوك المادي، والثقافة الدنيوية التي تهيمن وتستقطب اهتمام الإنسان وجل تفكيره، وهذا مخالف للرؤية القرآنية التي تفرق بين الاتجاهين والمنطقين، فلا يمكن المساواة والاتحاد بين المسلكين قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(١)، إذا ينبغي أن تكون الرؤية واضحة في الحياة، كي لا نتخط أو نحيد عن الجادة قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢).

٢- انقلاب المقاييس والمعايير في الحياة:

نجد أن الإنسان المادي يقيس كل الأمور بهذا المنظار والمجهر، ويقوم الأمور من هذا المنطلق، فهو دائم التفكير والتركيز على المصالح الذاتية أو المصالح الأخرى التي تخدمه، في كل المواقع والأزمنة والخطط والسياسات، ولا يبالي لغير ذلك، ولذلك نجد زعماء ومنظرو الفكر المادي الذي قادوا النهضة في الغرب ووضعوا النظريات جعلوا نصب أعينهم هي المصالح المادية فقالوا: «لا عداوة دائمة ولا صداقة دائمة بل مصالح دائمة»، وتسببت هذه الرؤية في قيام الاستعمار ونهب الثروات وفرض القوة وقتل الأبرياء وتشريد البشر، والأخطر من ذلك التحلل من القيم والمبادئ، فلا قيمة للعدل والأخلاق إلا إذا ضمنت المصالح، فكل الشعارات التي تشدق بها تلك الدول الكبرى لا مجال لتطبيقها على أنفسهم إلا إذا ضمنت المصلحة وكرست سياساتهم.

(١) سورة القلم: ٣٥ - ٣٦.

(٢) سورة الإنسان: ٢ - ٣.

إن القرآن حينما يؤكّد على عواقب هذه السياسات والروح السلبية لا يعني أنه ضد المال والثروة، بل ضد الفكر المادي الأعوج الذي يفتقد إلى القيم والأخلاق والثقافة الإنسانية، ولا شك أن الطريق لعلاج هذا المرض النفسي والعقلي على حد سواء لا يمكن إصلاحه والإقلاع عنه إلا بالإيمان بالله وبعطائه وفضله، وكذلك بشكر النعم حتى تدوم وتنمو وتزدهر الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١). وحقيقة الشكر العمل بمقتضى الحال، أي شكر كل نعمة بحسبها، فشكر العلم نشره لمن يستحقه، وزكاة المال بذله كذلك، وهكذا، ولكن لا بُدَّ من تحديد الهدف والغاية الأسمى من الحياة من أجل تحديد الهوية وترسيخ القيم والسعي لتحقيق التطلعات. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢)، والمشكلة في هذا التفكير المادي لا تقتصر على الدنيا والحياة، بل تتجاوز الحدود إلى عالم الآخرة والجزء، حيث يعتبر مقاييس الدنيا هي نفس مقاييس الآخرة، فالغني بالمال هو من يستحق الجنة نتيجة لحب الله وعطائه، أما الفقير هو بعيد عن رعاية الله فتأمل كيف يجر التفكير المادي إلى هذا المستوى، فلا حسن ولا قبح إلا في ظلال الماديات ليس إلا، فانظر إلى حال هذا الإنسان وغروره. قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(٣)، فالعبرة ليست بالمال والكثرة، بل من ويلات هذا الفكر؛ أن يسوق

(١) سورة إبراهيم: ٧.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

(٣) سورة الكهف: ٣٤.

الإنسان إلى المتاهات والضلالات والكفر بالله سبحانه حيث يزعم بأن الحياة والأحوال لن تزول ولن تتغير، مع شعوره وإحساسه بهذا الزوال من خلال تغير الأحوال من مرض وآفات، لكن حينما يصل الإنسان إلى مستوى من القسوة يفقد الإحساس بكل شيء، ولا يعرف سبيلاً للسعادة إلا في هذا الحال والغرور وحب الذات، فتأمل لهذا الحال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(١)، إن هذا الإخلال في المقاييس والتوازن في الفكر، والإضراب النفسي وفساد العقيدة ما هو إلا نتيجة طبيعية لطبيعة التفكير، وليس من الضروري أن يتصف بذلك من هو كافر أو مشرك، بل قد تتسرب هذه الروح السلبية في الإنسان المسلم وحتى المؤمن، كما مرَّ سابقاً مع اختلاف التأثير والتحكم، ولذلك فالبخل صفة سلبية وانعكاس لهذه الروح. ويشير القرآن إلى ذلك بأنها العقبة في هذا طريق الإيمان والتكامل والفلاح قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

٣- سوء الأخلاق:

إن سوء الأخلاق هي انعكاس لتلك الروح المادية السلبية، فحب الذات والأنانية وحب الدنيا مصدرٌ لكل الشرور، ومن يكون هذا حاله هل يفكر في مصلحة الآخرين؟، أو يحسب حساباً للقضايا الإنسانية فضلاً عن

(١) سورة الكهف: ٣٦.

(٢) سورة الحشر: ٩.

الدِّينية؟ كلاً، بل هو يسعى للخراب والفساد والقتل والدمار وإزهاق الأرواح البريئة دون رحمة وشفقة، كل ذلك من أجل ماذا؟ إِنَّ حُبَّ المال والدُّنيا سببٌ لقساوة القلب، إذ ينقلب هذا الإنسان إلى وحش كاسر لا يُقيم وزناً لكل ما هو أمامه، وأنا أكتب هذه السطور ويحضرني كل الجرائم التي تقوم بها إسرائيل من إبادة جماعية ضد الفلسطينيين العُزّل، مع مساندة تلك القوى الغربية وفي مقدمتهم أمريكا، التي تزوّد إسرائيل بكل الأسلحة الفتّانة من الصواريخ والطائرات وحتىّ الغازات السامة والأسلحة النووية المحدودة، فما هو الهدف والدافع؟

إن الحديث عن الروح المادية يطول وليس هنا اختصاصة، ونتيجة لذلك نجد الانحراف الأخلاقي في كثير من المجالات، بالرغم مما ترفعه هذه المجتمعات المادية من شعارات براءة مثل حقوق الإنسان؛ من هنا نجد الفكر الإسلامي في مواجهة حضارية مع هذا الفكر، ويسعى الإسلام ليوثق في الإنسان روح الأخلاق وجوهرها، ولا يكتفي بالقشور والمظاهر، لأنّ الأخلاق الحقيقة تتجلّى في المواقف والأزمات، وفي الشعور الإنساني والإيماني والحضاري، ومن أهم ركائز الأخلاق حُبُّ الإنسانية والحياة في ظل القيم والمبادئ والإيمان بالله. يقول الرّسول ﷺ: «لا يؤمن عبد حتّى يحبّ لنفسه من الخير ما يحبّ لأخيه المسلم»^(١).

إن الأخلاق هي المعيار الحقيقي للوعي والالتزام والصدق، ومن المؤسف أن نجد جانباً كبيراً في حياة الأمة من المسلمين قد تأثروا بتلك

(١) نهج الفصاحة، ص ٦٧٨.

الحياة المادية وأصبحت سمة غالبية في حياتهم وعاداتهم، فانعكست على أخلاقهم إلى درجة أننا نجد كثيراً من المجتمعات الأخرى من غير الإسلامية هي أفضل حالاً وأخلاقاً من المسلمين، فما قيمة الالتزام بالشعائر الدينية والعبادات إذا كانت فارغة من المضمون والأخلاق بالخصوص؟ والحديث في الإسلام عن أهمية الأخلاق ودورها وغاياتها لا حصر له، ويكفي فيه حديث الرسول ﷺ حينما قال: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، فالأخلاق هي الروح في الحياة والمجتمعات، وهي أهم العوامل في الديمومة والاستمرار، سبب أفول المجتمعات والحضارات ليس بالضرورة بسبب ضالة فكرهم وثقافتهم، بل بسبب سوء الأخلاق.

والخلاصة: لا يمكن أن نتصور حياة إنسانية في أي مجتمع عارية عن الأخلاق، ولا يمكن أن تتجسد الأخلاق المثالية إلا في ظل الإيمان والقيم والثقافة السليمة.

يَقْظَةُ:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾^(١).

يجب على الإنسان أن يقوم بمراجعة لنفسه عبر تحديد هويته الحقيقية أي بما يحمله من فكر وثقافة، لأنَّ الفكر هو الأساس والقائد للإنسان. يقول الإمام علي عليه السلام: «الْعُقُولُ أئِمَّةُ الْأَفْكَارِ، وَالْأَفْكَارُ أئِمَّةُ الْقُلُوبِ، وَالْقُلُوبُ

(١) سورة الكهف: ٣٧.

أئمة الحَوَاسِ، وَالْحَوَاسُ أئمةُ الْأَعْضَاءِ»^(١)، والإمام يعني القائد، فالإنسان بدون فكر لا قيمة له، لكن من المهم أن نحدّد ونراجع هذا الفكر أو الثقافة التي نتسلح بها فهل هي صحيحة أم لا؟ وكذلك هل تعكس الحقيقة والواقع الذي يجسده الإنسان في كل الأبعاد؟ إن المؤمن الصادق هو الذي يجسّد الإيمان والأخلاق، ولا يكتفي بمجرد الاعتقاد أو الشعار، ولذا يحتاج الإنسان دائماً وعبر محطات للعودة في التفكير أو التصحيح لمساره الطبيعي. والتفكير الحسن من سبل الارتقاء والتكامل في الشخصية، فنجد القرآن في الآية السابقة تذكّر الإنسان بأصل وجوده وحياته وكيف أصبح رجلاً، لولا رعاية وعناية من والديه وغيرهما، وكيف بعد ذلك ينسى هذا الإنسان خالقه ويتنكر لكل النعم التي أحاطت به حتّى بلغ ووصل لما وصل إليه؟ إنها لحظة وهزة عميقة لوجدان الإنسان وليس فقط لفكره، من هنا يجب المراجعة النفسية والفكرية والدينية والأخلاقية وفي كل الأبعاد وفي كل الظروف، حتّى نستطيع أن نضمن سلامة مسيرتنا ومشروعنا منطلقاتنا، وكذلك ما نقوم به من خطط لتحقيق تطلعاتنا.

النموذج السادس: الحوار السياسي:

وهو الذي جرى بين النبي سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ. قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَاَعِدُّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ج ١١ ص ٢٠٧.

وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
 * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
 تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ
 أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ
 فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ
 سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ *
 قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا
 نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ
 الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ *
 وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ
 أَتَمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ
 إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ *
 قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ
 الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي
 عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا
 عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ
 تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
 وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا
 كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ

عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

لا شك أن هذا الحوار ينطوي على حقائق مهمة لا يمكن استقصاؤها،
لأن الغاية من ذكر هذه القصص في ظل الحوار لبيان أهميته ودوره في تقديم
الحقائق والصورة الإيجابية في التعاطي مع القضايا، كأسلوب حضاري،
ويمكن الوقوف على بعض الأمور:

أولاً- بيان قدرة الباري الذي سخر كثيراً من الآيات والإمكانات
والقدرات إلى أسرة آل داود بشكل عام وإلى سليمان بشكل خاص، فأغدق
عليهم من النعم التي لم يسبقهم بها أحد لا من قبل ولا من بعد. في المقابل
كانوا عباداً صالحين وشاكرين لهذه النعم، أي لم يبطروا أو يغتروا ويتكبروا
ويتجبروا، وهذا حال الإنسان المؤمن الصادق مع الله ومع نفسه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا
دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ
* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾،
وفي هذا السياق نجد الله سبحانه يذكرهم ويوصيهم بالشكر، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ *، وهنا تبرز أهمية مفهوم الشكر أمام النعم التي تحيط بالإنسان وتغدق عليه من كل جانب، وكذلك يشير القرآن إلى أن الشاكرين في الحياة قليل، فلماذا؟ والجواب: نجد أولاً أن الخالق لا يريد أن يمنَّ على عباده، وله الحق في ذلك، خصوصاً أمام نعمة الهداية والولاية لله ولرسوله وأهل بيته، لأنَّ الله أكرم من أن يحصي النعم على الإنسان، ولا تجد أحداً يوفي حقه وشكره. قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، فنعمة الهداية أكبر من كل النعم التي سخرها الله في هذا الكون والحياة، والتي تحتاج إلى كثير من الشكر. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

والشكر له مراتب: فأولها، الشعور والإحساس بالقلب، بأن النعم من الله، لأنَّ القلب هو مركز الإحساس والصدق. وثانيها، هو الشكر باللسان،

(١) سورة الحجرات: ١٧.

(٢) سورة الأعراف: ٤٣.

بحيث يلهج بذكر الله والثناء عليه، فيجتمع الباطن والظاهر أي الجوارح، كما أن اللسان يظهر ما فيه القلب، كما في الرواية: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه»^(١). وثالثها، وهي الأهم العمل على وفق مفهوم الشُّكر، فشكر كل نعمة بحسبها، فشكر العافية القيام بكل الواجبات والبُعد عن المحرمات والإضرار بالجسم، والإخلال بذلك، وشكر المال بالإنفاق على الفقراء والمساكين وفي وجوه الخير حسب الإمكان والسعة: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾^(٢)، وشكر العلم نشره. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٍ وَلَا شَفَاعَةٍ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣)، لكن كثيراً من الناس يغفلون عن حقيقة الشُّكر، فإما ينسون ذكر الله وتشغلهم الدنيا، أو يكتفون بالشُّكر باللسان، فنجد حتى من المؤمنين والمصلين ممن انعم الله عليهم يكتفون بالشُّكر باللسان، لكنهم حريصون على الدنيا وحب المال فلا ينفقون ولا يبذلون ولا يساهمون في الخير والإصلاح، وليس لهم ذكر عند الناس. ومن الضروري أن يتسلَّح الإنسان بالوعي والعطاء والالتزام الصادق، والقرآن يقدم لنا هذا النموذج للشُّكر وحقيقته، وينقل عن الرسول ﷺ الأكرم، بأن عائشة زوجته قالت له بعد أن رأت منه كثرة العبادة والشُّكر: إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فلماذا تجهد نفسك في العبادة، فقال لها: «أولاً أكون عبداً شكوراً»^(٤)، ويفهم من ذلك أن كل العبادات والالتزامات

(١) ميزان الحكمة ج ٤ ص ٢٧٧٦.

(٢) سورة الطلاق: ٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٤.

(٤) انظر: الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٢، ص ٩٥.

هي تعبير عن الشكر، لأنَّ الله لا يحتاج إلى عبادتنا كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١)، فالعبادة الحقيقية هي عباد الشَّاكرين وفي الرواية «فتلك عبادة الأحرار». والشُّكر يزداد بهذا المفهوم، أي تسخير كل الإمكانيات والنعم في سبيل الله كي تدوم، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢)، وليس مجرد إحساس وقلق لسان. فتأمل.

ثانيًا- لا شك أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة، بعد أن كانت في الجاهلية الأولى عارًا على أسرتها ولا قيمة لها، وتعدُّ من سقط المتاع، وتورث كالمال والتركة، وفي عصرنا الحاضر أصبحت أكثر انحطاطًا في شرفها وعرضها وعفتها تحت شعارات براقة. ومن الواضح في هذه القصة والحوار أن القرآن يقدِّم المرأة في موقع ومنصب الرئاسة والحكم، ولم يعترض أو يتنكر لهذا الدور، فهل الإسلام يقر حكم المرأة؟ والجواب:

١- إن الله يقدِّم لنا الصورة الواقعية والحقيقية في القصة من دون أن يناقش مسألة دور المرأة في هذا المنصب.

٢- سواء كان الإسلام يرفض هذا المنصب للمرأة من أجل أن تتفرغ إلى أهم من ذلك وهو التربية للأجيال أم لم يرفض، فإن في هذه القصة أبعادًا حيوية قامت بها بلقيس، قد يغفل عنها كثير من الرؤساء والزعماء من الرجال أو تمنعهم أهواؤهم ومصالحهم، بل نجد السمة الغالبة في هذه القضية هو

(١) سورة النحل: ٧٨.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

الاستبداد والاستئثار بالحكم والطُّغيان، بينما نجد لهذه المرأة من المحاسن الشيء الكثير وهي تمارس هذا الدور وهو الحكم، ومن أجل توضيح الصورة نجد الهدهد حينما أخبر عن ذلك المجتمع ركز على أمور وهي:

١- إن المرأة تمارس دور الحكم وهي بذلك مهيمنة ومسيطرة، ويبدو أن الحكم بعيد عن الديمقراطية والانتخاب، فربما لم يكن ذلك في عرف المجتمع في الماضي السحيق. وهذا ما يفيد كلمة (تملكهم)، فهي غير مُنصَّبة بأمر إلهي ولم تكن عن طريق الانتخاب.

٢- إن هذا الملك له من القوة المتنوعة ربما يكون كثرة المال وكذلك قوة الجيش، وربما تملك من الآليات والوسائل، فهي أوتيت من كل شيء، فهي تتمتع بمظاهر استثنائية، وهذا الإخبار من الهدهد كان على يقين، أي بعد اطلاع واسع ومسح لكل الجوانب.

٣- كما أن لها قصرًا وهيبة في النفوس، من خلال تلك المظاهر الوجيهة، ومن الحراسة كما هو عادة الحكام والزعماء الذي يأتون للحكم بالقوة أو الانقلابات، فيحرصون أن يظهروا للناس بتلك الواجهة من الحرص على الحالة الأمنية والوقاية من كل خطر.

٤- ركَّز الهدهد على أهم قضية في هذا المجتمع، يمكن أن تلفت انتباه النبي سليمان عليه السلام، وتستقطب اهتمامه أكثر من كل شيء، وهو الدين السائد وهو الشرك حيث كانوا يعبدون الشمس، وكيف أن الشيطان زين لهم ذلك، وهذا سبب كافٍ لذلهم وانحطاطهم، فهم يخضعون لهذه القوة والسياسة. وهذا هو ديدن كل المجتمعات التي لا تخضع لقوة الله ولا تسترشد بالهدى

والحق ولا تمارس دورها الطبيعي في الحياة وإقامة العدل. فالدين الحق هو من يقود الناس إلى المبادئ والقيم والثقافة الصحيحة، وإلى الفطرة السليمة، بينما الانحراف في الرؤية يفقد المجتمع الوعي والشعور بالمسؤولية، وهذا هو حال ذلك المجتمع، حيث تنصب الاهتمامات على أمور الدنيا والخضوع لقوة الطاغية: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

٥- وهنا كانت المفاجأة وما كان متوقعًا، حسب الحال من مظاهر الحكم والقوة والعظمة، وهو الاستجابة السريعة، أي لم ترفض مبدئيًا، بل أخذت الدعوة والعرض بمحمل الجد، بعد أن عرض عليها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(٢)، فهو خطاب استثنائي يتضمن أهدافًا واضحة وصریحة. إنها دعوة رسالية أولاً، وذات بعد سياسي ثانيًا، حيث يركز الخطاب على أمور جوهرية مما أثار حفيظتها واهتمامها:

١- خطاب يتضمن رؤية ومبادئ وقيم ضرورية، وقد أشار القرآن بذلك اختصارًا، وفي الغالب مثل هذه الدعوة والخطاب يحتاج إلى كثير من التبيان والشرح، والأوراق الكثيرة.

٢- ربما كان سليمان معروفًا ومشهورًا، أي أن هذه الشخصية لها من

(١) سورة النمل: ٢٢ - ٢٤.

(٢) سورة النمل: ٢٩ - ٣١.

المكانة والعظمة، فهي ليست شخصية مجهولة بالنسبة إلى بلقيس ملكة سبأ، أو أنه جاء اسمها بالتحديد في الخطاب، بحيث يفهم منه التحدي والمواجهة، وأنه يقدم مطالب عظيمة ومشروعة، مما يدل على قوة الشخصية ودورها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾.

٣- إن هذه الدّعوة كذلك تتضمن مبدأً وهدفًا، وليس دعوة شخصية مصلحية، إنما الشعار هو: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٤- إن المطلب الأساسي جاء بصيغة الأوامر: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، أي أحذركم من الاستعلاء، بل يجب أن تخضعوا كاملاً وتستسلموا، مما يثير الكثير من الأسئلة، لكنه يتضمن وجود جهة قوية وممكنة على فعل أي شيء، ولا تقبل حتّى التفكير في المساومة أو الاعتراض، فالقضية محسومة، وهو التنحي والاستجابة الفورية، وهذه قضية في أمر السياسة غير مألوف، أن يطلب من الحاكم التنحي وقبول ذلك، ففي الغالب يواجه هذا الخطاب بالتنكير، والمواجهة والتحدي والغضب، والتعبئة العامة للقوة.

٥- وهنا تجلت الحكمة السياسية عند هذه المرأة أمام هذه القوة، فهناك خياران إما المواجهة أو الاستسلام. وهذه الحكمة:

١- لجأت إلى التشاور مع بطانتها أو الجيش الذي يحميها ويمثل نظامها، فهي مقتنعة لكنها أرادت أن تشرك غيرها في الأمر، أو من باب عدم الظهور بالضعف: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ * قالوا نحن أولو قوّة وأولو بأسٍ شديدٍ والأمر إليك فانظري

مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ^(١)؛ ولأنها مقتنعة شعرت بضعف مبادئها وانحرافها وضلالها، مما يدل على قوة شخصيتها وفطرتها السليمة، وشجاعتها في اتخاذ الموقف المناسب، والبيئة كان لها التأثير الكبير على حياتها: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، لكنها تتصف بذكاء ودهاء وحصافة عقل، فكان الاعتراف سيد الموقف، فكأنه شعور يتتابها بأنها على غير هدى حيث قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وهذا إقرار نابع من تفكير ورؤية وتقييم للأوضاع والسياسات وليس مجرد كلام أو حكمة عابرة. وجملة ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هل هي من كلام بلقيس أم كلام الله سبحانه؟ قولان، ومنشأ الاختلاف في (الواو) هل هي عاطفة، أم استئنافية؟ والأقرب أنها عاطفة أي تابع لكلام بلقيس، ويستقيم المعنى بدون معارض، وهي فرع القاعدة التي أرستها، من خلال أداة التأكيد ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾، والملك هو زعم، وليس حق شرعي من الله أو مفوضة من قبل الناس عن طريق الانتخاب، كما قال فرعون: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢)، فهي عبّرت عن الحال في كل زمان ومكان، فتأمل.

٢- الاختبار لهذه القوة والدعوة الرسالية، من خلال تقديم المغريات والهدايا، فكثير من الناس يسقط أمام شهوة المال والمصالح، حيث نجد

(١) سورة النمل: ٣٢ - ٣٤.

(٢) سورة الزخرف: ٥١.

البعض يقدم مصلحته على كل المبادئ، وتحوّل حياته إلى شخص آخر. ولذلك جاء في الحديث: «وما ذئبان ضاريان أشد على دين المرء من حب السلطة»، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١)، وبعد أن جاء الرسول، كان الجواب والرد الذي يعبر عن صدق الدعوة والمبدأ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾^(٢)، ثم بعد ذلك جرت بقية الأحداث والحوار، والاستجابة الفعلية بعد أن جاءت بنفسها واطلعت، ووصلت إلى النتيجة النهائية وتحديد المصير ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، أمّا ذكر المعية مع سليمان، فهو إبراز لشخصية النبي سليمان عليه السلام، الذي يمثل القدوة والإيمان والدعوة الصادقة. وليس من منطلق التردد أو التشكيك.

٣- وما يكتب لها، هو اتهام نفسها بالظلم، مما يدل على وجود مراجعة نفسية وتقييم للحال للأوضاع، نتيجة وعيها وشجاعتها في اتخاذ القرار المناسب، في حين نجد الكثير من رجال السياسة حتّى في لحظات ضعفهم لا يتنازلون عن كبريائهم وغرورهم ولا يعترفون بما اقترفته أيديهم، وفي الأخير وأمام ضغط الجماهير والإحساس بالهزيمة والسقوط يختارون الهروب من الواقع والبلاد، دون شعور بأي مسؤولية. ومثال على ذلك شاه إيران، ورئيس تونس (زين العابدين)، والطاغية معمر القذافي في ليبيا وغيرهم وهذا هو ديدن الجبابة والطغاة في كل عصر.

(١) سورة النمل: ٣٥.

(٢) سورة النمل: ٣٦.

(٣) سورة النمل: ٤٤.

ثالثاً- في القصة استعراض للقوة المتناهية، التي تمثل تجليات القدرة الإلهية، أمّا قدرات البشر فهي محدودة مهما بلغوا من القوة، وهذا الأمر يحتاج إلى إيمان وتوكل على الله، حيث نجد في عصرنا الحاضر استعراضاً للقوة والخطورة من خلال الوسائل المدمرة للحياة والفتاكة لإرهاب الشعوب والهيمنة على مقدرات المجتمعات والسيطرة على كل المقدرات وتكريس مناهجهم، لكن قدرة الله مع المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ^(١)، ولكن الحياة ابتلاء وتمحيص، وكذلك يجب إعداد القوة كما كان لسليمان، فالدعوة إلى الحق لا تكتفي بالمبادئ والقيم، بل تحتاج أيضاً إلى إعداد للقوة حسب الإمكان والاستطاعة، وكذلك الإخلاص لله سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٣)، لكن من المؤسف بعض المحسوبين على الفكر والتنظير والثقافة في حياة الأمة، وكذلك الحكومات العربية والإسلامية، يعظمون تلك القوى المتجبرة في الأرض وعلى رأسهم أمريكا، فينحنون لها صغاراً وإذلالاً، يكرسون التبعية السياسية والاقتصادية إما بسبب ضعف الإيمان أو يقعون تحت الانبهار من التقدم والتطور، لكنهم يتناسون ويغفلون أو يتجاهلون حقيقة الواقع. إن كل

(١) سورة الحج: ٣٨ - ٣٩.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

(٣) سورة محمد: ٧.

ذلك يتم عبر أسباب وسياسات استعمارية وعلى حساب الشعوب، ولذلك فهم يفقدون الرؤية الصحيحة وكذلك القدرة على صنع الواقع والأخذ بالأسباب، بل إنهم يكرسون التخلف ولا يلتحقون بركب الحضارة. إذا نحن بحاجة إلى الثقة بالله وعظمته في كل الشؤون وكذلك الأخذ بالأسباب الطبيعية من تنامي القوة ومجاعة العدو، وليس لتخدير الأمة وزرع اليأس وفقدان الأمل في التغيير.

والآية تشير إلى تلك القوة التي لم يصل إليها البشر حتى الساعة، التي تمثل إعجازاً إلهياً، خصوصاً في ذلك الوقت، وهذه القوة لا تنحصر في القوة المادية، كلا، ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(١)، فهذا الذي عنده علم من الكتاب، فكيف من عنده كل الكتاب. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢)، وربما مع تقدّم الزمان يكشف لنا حقائق هذه القوة الإلهية الخارق للزمان والمكان. وفي العصر الحديث نجد بعض الوسائل العلمية والعسكرية من الصواريخ البالستية وفرط صوتية كيف تقطع المسافات الطويلة وتخرق حاجز الصوت وتعبّر القارات، وما ذلك إلا دليل على قدرة الإنسان في صنع ما يريد ويخطط

(١) سورة النمل: ٣٨ - ٤٠.

(٢) سورة الرعد: ٤٣.

ويتطلع، فكيف بقدرة الباري عز وجل الذي خلق الكون وسخر كل شيء للإنسان؟ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)، وهذا مدعاة للتوكل وتجديد الثقة بالله، خصوصاً في الأزمات والملمات. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) فتأمل وتدبر رعاك الله.

وهنا سؤال عمّن عني به في قوله: (من عنده علم الكتاب)؟ فقد وردت روايات كثيرة من طرق أهل السنة تدل على أنه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أمّا من طرق الشيعة ففي الكافي وبصائر الدرجات عن الباقر عليه السلام. قال: «إِيَّانَا عَنْهُ وَعَلِي عليه السلام أَوْلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»، وفي الاحتجاج للطبرسي سأل رجل علياً عليه السلام عن أفضل منقبة له، فقرأ الآية وقال: «إِيَّانَا عَنْهُ

(١) سورة الجاثية: ١٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٣ - ١٧٩.

بمن عنده علم الكتاب»، وأما من طرق السنة في مناقب علي عليه السلام للفقهاء الشافعي بن المغازلي، وروى ذلك الثعلبي في تفسيره بطريقتين.

رابعاً - تجليات الشكر عند النعم المختلفة، لأنَّ في الغالب أن الإنسان يلجأ إلى الله في الشدائد والصعاب، فقد يكون أمراً طبيعياً وفطرياً، حيث يظهر معدن الإنسان: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١)، لكنه عند النعم، ينسى ربه، ويطر ويستغنى ويتجبر ويتبخر: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، في حين نجد سليمان وداود من قبل يمثلان القدوة، لحقيقة الالتزام والسير في الطريق المستقيم، بحيث يكون الإنسان مع الله في كل الأحوال والظروف، خصوصاً في مواطن النعم والرخاء، حيث يتطلب الوعي واليقظة، ففي الرواية: «اذكروني في الرِّخاء أذكركم في الشِّدَّة»^(٣)، أما حال النبي عليه السلام سليمان: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٤).

النموذج السابع: المباهلة (المفاصلة):

والمباهلة هي الدُّعاء على الآخر باللعن، ويتم بين طرفين أو جهتين لإثبات قضية؛ فكل جهة تدعي الحق لنفسها، وعلى هذا الأساس تكون هناك

(١) سورة العنكبوت: ٦٥.

(٢) سورة يونس: ١٢.

(٣) تفسير مجمع البيان ج ١ ص ٤٣٥.

(٤) سورة النمل: ٤٠.

ملاعنة بأن يجتمع القوم فيقولون «لعنة الله على الكاذب والظالم»، وكان سبب نزول هذه الآية أن وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة جعلوا يجادلون في نبي الله عيسى عليه السلام، وقالوا لرسول الله ﷺ: هل رأيت ولدًا من غير ذكر، فنزلت الآيات فقرأها عليهم، فلما دعاهم إلى المباهلة استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم فلما رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف: أنظروا محمد إلى غد، فأبوا أن يقرؤا بذلك، فما أصبح رسول الله ﷺ الغد أقبل مشتملاً على أهل بيته كما أشار القرآن إلى القصة والحوار. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

ويستفاد من الآية أفضلية أصحاب الكساء ومكانتهم دون غيرهم، وإثبات النبوة للحسين عليه السلام، وأن علياً عليه السلام هو نفس رسول الله ولكن ليس بنبي فتأمل، لكن هذه المكانة والرتبة لم تحفظ!

النموذج الثامن: حوار في العقيدة (إثبات البعث نموذجاً):

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ

(١) سورة آل عمران: ٥٩ - ٦٣.

كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾.

وهنا حوار في العقيدة وفي أهم جانب منها وهو الإيمان بيوم البعث، وما يتبعه من عوالم أخرى كيوم القيامة، فالبعث هو الأساس بعد الموت، لأنَّ الموت حقيقة لا يُنكرها أحدٌ من البشر حتَّى الكفار والملحدّين. لأنَّ الإيمان به كالإيمان بالحياة، فهو مخلوق ومشاهد. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ أَتَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٢)، فكان من الأجدر الوقوف عند فلسفة الموت لأنها لا تنفك عن فلسفة الحياة، فلماذا الإنسان يقر بفلسفة الحياة ويعمل من أجلها ويكافح ويحقق الانتصارات والإنجازات والتقدم والتطور ويفتخر بذلك ويشيد بينما يغفل عن فلسفة الموت وهي متصلة بها؟ أي أن لا معنى لفلسفة وقيمة الحياة إلا عبر الموت الذي هو نهاية الحياة الدُّنيا وبدء الحياة الأخرى. فالموت مرحلة من المراحل وعالم من العوالم لا تنفصل عن بعضها. نعم، لكل عالم خصوصياته، فالموت هو عالم البرزخ أي الحجاب عن عالم الدنيا، والممهد لبقية العوالم والحياة، حتَّى تصل الحياة لذروتها وهي القيامة والحساب الذي يحدّد المصير إما الجنة أو النَّار، ولذلك يسمّي القرآن ذلك بالحياة الحقيقية والسَّعادة، وهذا هو الفارق بين الحياتين: الدُّنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، والحيوان مصدر على فعْلان مثل غثيان وفيضان ودوران وغليان.

(١) سورة النحل ٣٨-٤٠.

(٢) سورة الملك: ٢.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٤.

والقرآن يحاور كل العقائد الباطلة، ويناقش أفكارها وتصوراتها، لأنَّ العقيدة في الأساس هي تصورات وأفكار وقناعات، قد تكون صادقة أو كاذبة، ولذلك لا يمكن أن يُكرَه الإنسان على عقيدته. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ومن أجل أن يحظى الإنسان بالعقيدة الصحيحة يتطلب الأمر البحث عن الأدلة والبراهين، والأدلة إما تكون فطرية أي مسلمات بديهية، أو منطقية عقلية، أو حسية. وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى مقدمات تمهيدية في تحقيق المطلوب:

١ - قضية إثبات البعث من الجوانب العقدية كما بينا، فهي تخضع إلى الحوار في الفكر والتصورات، فالفكر يُقابل بالفكر، وليس بشي آخر، أي من جنسه. والفكر له أصوله وأسس التي تتفق مع الأدلة التي أشرنا إليها، وليس بالظنون والأوهام أو المعتقدات المقفلة أي الباطنية أو المكاشفات الصوفية.

٢ - إن قضية النقاش في أي قضية لها جانبان: إثبات ونفي. فكما نحتاج إلى الأدلة في إثبات القضية أو الموضوع كذلك نحتاج إلى نفي تلك الأدلة، بمعنى أن يكون هناك استقراء تام لنفي الضد أي الإثبات، وهكذا في كل القضايا، أمَّا الوقوف وأخذ جانب أو جهة من القضية لا يستلزم نفيها، هكذا قرَّر في علم الكلام والمنطق. ومثال ذلك قد يكون هناك أدلة ثبوتية على حصول حادثة تاريخية، كما أن هناك أدلة تنفي هذه الأدلة، مما يحتاج إلى الإحاطة والشمولية والاطلاع، ثم بعد ذلك ترجيح أو الإسقاط للأدلة، فتأمل.

٣ - إن إثبات الحقائق يحتاج إلى آليات من جنسها، فعالم الدنيا

والماديات له آلياته، فالحقائق المادية يمكن إثباتها بالمادة، على سبيل المثال، أصغر الجرثومات في الكون والحياة وفي الإنسان يمكن إثباته عبر العلوم والتكنولوجيا من الآليات مثل التلسكوب، وهذا كل ما يمكن أن يقع تحت التجربة الحسية. أما عالم الغيب لا يمكن الاطلاع عليه إلا عبر يد الغيب أي إخبار الخالق وعبر نزول الوحي على الرسل والأنبياء والأولياء وليس لأحد أن يدَّعي الغيب وكل ما هو مستور إلا بالإذن من الله. قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾^(١).

وعلى هذا الأساس فإن الفلسفة المادية تقوم على أساس التجربة في كل علومها وتقدماتها وإنجازاتها، ولا يحقُّ أن تتعدَّى ذلك، لأنها تفتقر إلى المنطق والعقل، لأنه (أي العقل) وأحكامه الصادرة إنما تفيد الأحكام المطلقة، أي أن إطلاق الأحكام هو من وظيفة العقل، وليس من وظيفة التجارب مهما بلغت وتمادت وكثرت، ولذلك يفتقر الفكر المادي والفلسفة إلى الأحكام المطلقة العامة والشاملة في كل القضايا، ولا تكون إلا بالاعتماد على حكم العقل، مع أن العقل من الأمور غير الحسية وكذلك أحكامه، ولذلك يعتبرون العقل يساوي التجربة ويطلقون عليها الفلسفة وهذا خطأ كبير.

وهذا هو الفارق بين الفلسفتين: المادية والإسلامية التي تؤمن بالغيب

(١) سورة الجن: ٢٦ - ٢٨.

ومنه العقل كأساس لكل أحكامها وتشريعاتها ومناهجها، ولا تنكر أهمية العلوم الطبيعية وما تحقّقه من حقائق وإنجازات ومعطيات، لأنها جزء من الحياة والمعارف والحقائق، لكنها لا تمثّل كل الحقيقة ولا كل المبادئ والقيم، بل هي عاجزة عن ذلك، مهما تقدمت في العلوم وشيدت من نظريات وأبدعت في الماديات وتعمقت في المفاهيم، فهذا لا يقارن بذلك العالم الآخر أي ما وراء الماديات، بل تعتبر هذه العلوم وكل ما حققه الإنسان على الأرض مجرد ظواهر وقشريات، بدليل الإنجازات والاكتشافات لا تقف عند حد معين، فليس الماضي كالحاضر وليس الحاضر كالمستقبل، هذا من جهة.

ومن أخرى، فإن هذا العالم على اتساعه لا يمثل إلا ذرةً وقطرةً في محيطٍ، فكيف بالنسبة إلى عالم الغيب؟ من هنا يشير القرآن إلى هذه الحقيقة التي يغفل عنها هؤلاء والذي يتشدقون وينبهرون ويغترون بما حققوه بأنه مجرد ظاهرة علمية ليس أكثر، ويشعرون بأنهم ملكوا نواصي الحقيقة وهمنوا على كل المقدرات وسيطروا على بقاع الأرض. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١﴾ فتأمل وتدبر رعاك الله.

ومثال آخر للتوضيح، فحينما عرفنا بالتجربة أن غليان الماء يكون عند درجة (١٠٠) مئوية، عبر تجربتين أو أكثر، فهل نستطيع أن نصدر حكمًا مطلقًا على كل تجربة؟ كلا، إلا بالعقل؛ فهذا هو اختصاصه. وعليه فإن كل الأحكام الأبدية والمطلقة قائمة على ميزان العقل الذي لا يخطئ، وعليه تقوم الموازين في كل الحقول والمعارف والمواضيع، والسنن الحياتية، والاجتماعية والطبيعية. لكن ما هو السرُّ في نكران قيمة العقل الذي وهبه الله؟ بلا شك هو اتباع الأهواء والمصالح والأطماع، وعدم شعورهم بالحساب والعقاب.

ومن لم يسترشد بالعقل ويهتدي به فهو لا يختلف عن سائر المخلوقات والأنعام. انظر إلى هذه المفارقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (٢)؛ يحذرنا القرآن من اتباع الأهواء لأنها أساس في الانحراف عن الحق والهدى ونكران يوم الحساب: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣).

من هنا نعرف أن من أهم أزمات الفكر المادي والتي تتفرع منه عقيدة

(١) سورة الروم: ٦ - ١٠.

(٢) سورة محمد: ١٢.

(٣) سورة ص: ٢٦.

الكفر والإلحاد هو عدم قدرته تجاوز النظرة الضيقة التي تنحصر في المشاهدة والتجربة الحسية وعبور عالم الوجود والدُّنيا إلى عالم الغيب التي تملأ آياته وأسراره وآثاره الكون وكل ما في الوجود، ولذلك الإيمان بالغيب من أهم القضايا العقدية والحياتية التي تستند إليها كل المبادئ والقيم والثقافات، وتستمد منها القيمة الذاتية ومن دونها لا اعتبار لكل ذلك، ولا يعني ذلك إلغاء مهمة العقل وإعمال الفكر، فالعقل هو الكاشف لحقيقة الوجود وما وراءه، وليس هو الأصل، ولذلك نقول إن إثبات الغيب من الأمور الفطرية والبدئية ومن المسلمات، ودور العقل هو ترسيخ هذا المبدأ عبر الأدلة والبراهين، ومهمة القرآن والرسول هو إثارة وإضاءة هذا المصباح أي العقل لتثبيت الحقائق، ولذلك تعتبر قضية ومبدأ الغيب تتصدر كل التوجيهات والتعاليم، كما أشار القرآن في سورة البقرة ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

إنكار البعث

ومما تقدم نتساءل عن سبب إنكار البعث، وما الدليل على ذلك؟ فهل أمكنهم المشاهدة أو من خلال التجربة؟ أم لهم عقول راجحة دون غيرهم، استنبطوا هذا الحكم والرأي والاعتقاد؟ مع العلم أنهم وفي حقيقة الأمر ينكرون العقل وكل ما هو من الغيب كما أشرنا، بينما يؤمنون بقوة الجاذبية

(١) سورة البقرة: ١-٥.

دون أن يروها؟ وعلى هذا الأساس جاءت، وفي ظل الحوار القرآني، تلك الصورة القائمة والغموض والإبهام لإنكارهم للبعث دون تقديم الأدلة والمبررات لزعمهم، لكن القرآن لم يقف عند هذا الإنكار، بل أظهر ما هو مبطن، وما يعتقدونه في ضمائرهم ونفوسهم، التي قامت على التناقض أو التضاد والاضطراب، فهم من جهة يتظاهرون بالإيمان بالله سبحانه، ويغلظون اليمين (ويقسمون بالله جهد إيمانهم)، ولكن في الحقيقة يكفرون إما بالله أي بوجوده من الأساس، أو يكفرون بصفاته وقدرته وعظمته، ولذلك نجد القرآن يقدم لنا تلك الافتراضات الباطلة ويسوقها كأدلة من جهتهم، حيث لا يخلو هذا الزعم والاعتقاد من ذلك، وهي:

أ- الافتراض الأول هو القول بالصدفة، وهذه الفكرة مازالت إلى عصرنا الحاضر، قد عشعشت في العقول والنفوس، فتشابهت قلوبهم، لكن العقيدة واحدة والمنطق واحد، والسبب هو ما أشرنا إليه وهو الأهواء، لكن الفارق هو ما بين الماضي والحاضر، إذ يعتقد أصحاب العصر والمتقدمون بأنهم أهل التنوير والعلم والتطور والازدهار، ومع ذلك يُنكرون أهم الحقائق الكبرى والمبادئ الحقة والسُنن الحياتية، فهؤلاء أكثر حماقة وطيئاً وجهلاً، بل يمكن أن يصدق عليهم الجهل المركب، لاعتقادهم الإحاطة بالعلم والمعرفة، لكنهم في الحقيقة يصح أن يوصفوا (بجاهلية القرن العشرين)^(١)، فهي أكثر انحطاطاً من تلك الجاهلية الأولى، لأن تلك الجاهلية وُصفت بذلك ليس لأنهم مفلسون وليس عندهم رصيد من العلم. كلا، فهم أهل البلاغة والحكم والشعر مما كان سائداً وضرورياً في ذلك العالم وغير ذلك

(١) كتاب للمفكر الإسلامي (المصري) محمد قطب وهو أخ سيد قطب رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

من الاهتمامات، ولكن كانت حياتهم بعيدة عن التحضر والأخلاق، لكن اليوم فالحضارة المادية تحلّت من كل المبادئ والقيم والأخلاق، وأقامت النظريات والعلوم والفلسفات للدلالة على ذلك، فهي مع انحرافها وضلالها مصرة ومعاندة ومكابرة، ليصبح العلم في حقها حجاباً وسدّاً منيعاً عن هدايتها وإيمانها، ولذلك فهي أعظم بلاءً وضرراً على الإنسان والبشرية جمعاء. إذًا، القول بالصدفة هو الافتراض الأول لا اعتقادهم.

ب - الافتراض الثاني عدم القدرة على البعث؛ لأنه إمّا يفتقد القدرة أو يجهل ذلك، وفي الواقع أن هذا الافتراض هو التشكيك في وجود الإله الخالق من الأساس، ومع الإيمان بوجود الإله لا معنى لهذا التشكيك والظنون، هذا هو الافتراض الثاني، وليس بعدهما شيء. أمّا الجواب على ذلك هو في الآيات نفسها من خلال الأدلة التالية:

قبل الإجابة، يؤكّد القرآن تأكيداً قاطعاً لا لبس فيه، على وجود البعث وكل ما يُخبر به الخالق من حقائق وبالخصوص هنا في قضية البعث، كدليل قطعي لا يقبل الشك والظن، من خلال التأكيدات المتتالية وهي قوله: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، و(بلى) أداة نفى وإثبات أي تقلب النفي إلى إثبات، حيث قالوا (لا يبعث) ولو كان الجواب نعم لأثبت كلامهم، هكذا في اللغة، ووعد الله صادق لأنهم قادر على كل شيء، و(حقاً) أي ثابتاً لا يقبل التبديل والتغيير من الحق والحقيقة، وأخيراً نسب قولهم إلى الجهل، لأن العلم بالشيء مانع عن الضد والنقيض كما هو مقرر. قال تعالى:

(١) سورة النحل: ٣٨.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

١ - الجواب على الافتراض الأول:

هو القول بالصدفة لا يقبله الجاهل فضلاً عن العالم والعاقل، فكيف يجد الإنسان نفسه في هذا الكون والحياة في ظل النظم والسنن والتدابير والإتقان في كل شيء أن يتجرأ أو يدَّعي بأن هذا الخلق العجيب هو صدفة؟ وهل للصدفة تتكرر مرات عدة؟ وهل للصدفة حكمة وغاية وهدف، وإبداع؟ كلاً، «فإننا كبشر عقلاء لا نفهم من النظام إلا الحكمة وليس الصدفة»^(٢)، إذاً، الذي يهيمن على الكون ويسود العالم هو النظام الكامل والحكمة والإتقان، وهو دليل وجود الإله الخالق المدبر والحكيم والقادر على كل شيء، ومن ذلك نستنتج:

أ- وجود الهدفية والغاية والفلسفة من الحياة.

ب- وجود محكمة إلهية بعد نهاية الحياة من أجل الفصل بين الناس، وتحديد مصيرهم، وإطلاعهم على الحقيقة وما اختلفوا فيه؛ لأنَّ الحياة الدُّنيا فيها مسارات واختلافات وصراعات، فلا بُدَّ من وجود محكمة تقضي بالفصل بين الناس، أمَّا في الدُّنيا لا يمكن تحقيق هذه العدالة الكاملة، لما فيها من الظُّلم والجور والقوة والتأثيرات من المال والرشاوى والواسطات، أمَّا في الآخرة لا يمكن تصور مثل ذلك من التأثيرات قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) سورة النحل: ٣٨.

(٢) كتاب الفكر الإسلامي للمرجع محمد تقي المدرسي، عالم ومرجع عراقي.

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١)، كما هو حال العالم اليوم حيث تحكمها القوة من قبل الدول العظمى وهي التي شرعت المحاكم الدولية والمراكز النفوذية، وهي التي تسيطر على العالم، فمن يستطيع أن يقاضي هذه الدول الاستعمارية؟ وحسب التعبير (حاميتها حراميتها)، وهو مثل ينطبق على غالب حكومات العالم بدون استثناء، فهل يصلح هذا العالم لقيام العدل الإلهي، التي تحكم بالعدل والإنصاف؟ وتعطي كل ذي حق حقه؟ كلاً، إن الحديث عن الظلم والحرمان والجور والطُّغيان سمة بارزة الحياة الدنيا، ولا تنفك عنها بحال، مهما تقدمت البشرية وازدهرت في الكثير من الجوانب.

والذي يتدبر في القرآن يعرف حقيقة هذه الحياة الدنيا، حيث وصفها القرآن بعدة أوصاف، ولم يكتفِ بواحد منها، لأنها متقلبة ومتصرفة بأهلها من حال إلى حال، ويكفي فيها هذا الوصف قول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ^(٢)، فكيف إذا ابتليت البشرية بأنواع الابتلاءات والفتن كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ^(٣).

(١) سورة البقرة: ٢٥٤.

(٢) سورة الحديد: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٤.

إذا، لا يمكن أن نتوقع بل المستحيل أن نجد أو نشاهد أو نفكر بوجود أو قيام الحكم العادل والقضاء النزيه والذي يسود العالم قاطبة إلا بظهور القائم من آل محمد ﷺ فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ولذا يذهب بعض المفسرين إلى هذه الآيات تدل على رجعة الأئمة وبعض الأنبياء الذين ذكروا ويكونون بصحبة الإمام الحجة ﷺ. فالجواب على هذا الافتراض قوله تعالى في الآيات: ﴿لَيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾^(١)، ففي يوم القيامة تتكشف القضايا وترتفع الاختلافات، ويبرز الخصوم، ويقوم الناس للواحد القهار، فذلك اليوم هو يوم التغابن حيث يواجه الظالمون والكافرون والمشركون والمنافقون مصيرهم الأسود. يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢)، ويقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(٣)، ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾^(٤)، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٥)، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّسْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٦)، و﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

(١) سورة النحل: ٣٩.

(٢) سورة الزلزلة: ٦ - ٨.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٢.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٤.

(٥) سورة إبراهيم: ٥١ - ٥٢.

(٦) سورة مريم: ٣٧.

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

فكل هذه الآيات تشير إلى يوم العدل الإلهي ويوم القصاص، أي يوم الحسرة، والندامة للكافرين، والمشككين، والظالمين.

٢- الجواب على الافتراض الثاني:

القول بعدم قدرة الله والخالق على البعث لأي سبب كان، مع إيمانهم بوجوده حسب الظاهر من القسم. هذا الاعتقاد باطل من أساسه لسببين هما: أولاً- لعدم وجود الدليل على النفي، الذي لم يشر إليه القرآن مباشرة لاستحقارهم وزعمهم؛ لأنَّ النفي بحاجة إلى الدليل ولو من الاستقراء، وهنا غير قابل للإثبات، فالقضية برمتها محض الغيب.

ثانياً- بل هو العكس على وجود الأدلة الحسية والنقلية والعقلية والنقلية التي من خلالها نقطع بثبوت القدرة الإلهية وكذلك وجود البعث ويوم القيامة والحساب، بما لا يدع مجالاً للشك أو للظن، كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، والظن هنا هو العلم، أو لا أقل الظن الراجح. وهنا نشير إلى الأدلة بأنواعها لتكون واضحة ومعبرة، وكلها من القرآن الكريم:

أولاً: الدليل الفطري:

وهو من المسلمات والبديهيات، التي لا تحتاج إلى تأمل وتفكير دقيق

(١) سورة مريم: ٣٩.

(٢) سورة المطففين: ٤ - ٦.

أو أعمال للعقل، فيكفي نظرة للكون والحياة والوجود للدلالة على الخالق والإله وكذلك على الغاية، فحينما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الدليل لإثبات الإله قال بكل وضوح: «نظرت إلى نفسي فافترضت أن لها خالقاً، ثم نظرت إلى نفسي فوجدت بأن عاجز عن ذلك فعرفت بأن لها خالقاً والها وهو الله سبحانه»، وهنا نشير إلى قصة المرأة العجوز وهي تغزل فسئلت عن إيمانها بالله، فقالت عجباً واستغرباً، وهي تنظر إلى المغزل بيدها وهي تحركه فقالت من يحرك هذا، فكيف بهذا الكون على ما فيه من آيات وإعجاز وتدبير، هل يمكن أن يحدث بلا خالق ومدبر، سبحانه تعالى ثم قالت: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فكيف بالسماء ذات الأبراج والأرض ذات فجاج والبحار ذات الأمواج إلا يدل على اللطيف الخبير؟ فهذا الاستدلال فطري يحاكي الواقع وليس له صلة بالمنهج العلمي والمنطقي أو الفلسفي، ومعنى الفطرة هي الخلق، أي أن الدليل هو أساس الخلق والوجود وهذا كاف للإيمان والتسليم قال تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).
أيضا إثبات وجود الإله هو إثبات أيضا للقدرة الإلهية وذلك بالملزمة.

ثانياً: الدليل الحسي :

ويمكن إثبات ذلك بقصة الحمار في سورة البقرة في معرض قصة

(١) سورة إبراهيم: ٩ - ١٠.

(٢) سورة الأنعام: ٧٩.

حمار عزيز، وهي قصة مشهورة. يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١)، فهذه مشاهدة بالعيان، ويمكن إثبات ذلك عن طريق ما سخره الله للنبي عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين^(٢)، وبالطبع أن إثبات قدرة النبي عيسى عليه السلام هو فرع قدرة الباري لأنه يقوم بكل ذلك بإذنه.

وكذلك عند التأمل في مشاهد الحياة وآثارها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٢) سورة آل عمران: ٤٩.

فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ^(١)، وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٢)، فمع هذه الآيات ووضوحها وتجلياتها، نجد من يجادل ويكابر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ^(٣).

ثالثاً: الدليل العقلي:

أي التفكير السوي الذي ينظر إلى الأمور بتأمل وتفكير، ثم بعد ذلك يصل إلى النتائج، فإذا كانت المقدمات صادقة فكذلك النتائج صادقة، ولا يمكن أن تتخلف؛ ولذلك نجد القرآن يحث الإنسان على التأمل والنظر وإعمال العقل، ليصل إلى الحقيقة المطلقة، لأن أحكام العقل لا يمكن أن تتغير أو تتبدل، ومن أجل ذلك يأمرنا بالتفكير في كل المخلوقات وكذلك الآيات في الكون، للدلالة على المطلوب، والدليل العقلي في القرآن له طرق متعددة، ترشدنا كلها إلى إثبات القدرة الإلهية على البعث منها:

١ - أصل الوجود:

الوجود هو أكبر آية على الموجد، فالعقل يحكم بذلك، وهذا من البديهيات والمسلمات العقلية وكذلك الفطرية التي أشرنا إليها، لكن التعبير

(١) سورة الحج: ٥ - ٧.

(٢) سورة الروم: ٥٠.

(٣) سورة الحج: ٨ - ١٠.

عن ذلك لا بُدَّ أن يستدل به عن طريق الأدلة المنطقية، بخلاف الدليل الفطري الذي يعبر عنه بالوجدان. قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾^(١)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٢).

٢- مفهوم الأولوية:

منها قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نُطْفَأْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(٣)، ومنها قوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٤)، ولا شك أن ذلك من باب الأولوية؛ لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان والبشر جميعاً. قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥). وقال ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾^(٦)، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ

(١) سورة الطارق: ٥ - ٨.

(٢) سورة الملك: ١٦.

(٣) سورة القيامة: ٣٦ - ٤٠.

(٤) سورة يس: ٨١.

(٥) سورة غافر: ٥٧.

(٦) سورة مريم: ٢٠ - ٢١.

الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾، فالذي يصنع مثلاً سيارة بإمكانه بعد تلفها أن يعيدها، خصوصاً مع وجود الخامات الخاص بها، فكيف بالخالق، الذي يخلق الأشياء من العدم؟ فلا مقارنة بين الإنسان وربّه، ومجرد التفكير أو التشكيك في هذه القدرة يعتبر من سفاسف العقول وانحطاطها، لأنَّ القدرة الإلهية لا يمكن تخيلها، ولذلك لا يمكن أن نقارن بها شيء لأنَّ له ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وله العزة أي المنعة بآلاً يضعف ولا يتأثر، والحكمة بأن يضع كل شيء في مكانه وهو يتناسب مع القدرة والإرادة.

٣- وجود النظام:

إن وجود النظام في الكون والحياة هو دليل آخر على الألوهية وعلى القدرة، ومجرد التفكير في القدرة الإبداعية في نظام الخلق مؤشر على تلك القدرة الخلاقة التي لا تستعصي عليها شيء بجانب الحكمة والهدفية، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ (٢).

٤ - دليل الفاعلية والحركة:

وهو من أهم الأدلة التي لا تخفى على أحد، إلا من طغى وتكبر، فمن

(١) سورة الروم: ٢٧.

(٢) سورة طه: ٤٩ - ٥٣.

الذي يحرك هذا الكون بكل ما فيه، وضمن نظام دقيق، تتحرر فيه العقول، ويدهش العلماء، فهل هذا قرين الصدفة، أم أن الأشياء تحرك نفسها بلا محرك؟ والآيات في هذا المجال لا حصر لها وكلها من باب التذكير، لأنَّ العقل كافٍ في إدراك هذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢)، وانظر وتأمل في النسق والإبداع والدقة والإعجاب في النظام الكوني وما ينطوي عليه من قوانين فزيائية محيرة، لا يمكن أن تقع من خلال الفوضى أو الصدفة، أو من قدرة محدودة. قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمِيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ * وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٣)، ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠ - ٣٣.

(٣) سورة يس: ٣٣ - ٤٠.

كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ ﴿١﴾، فكل هذا الإلتقان لا يمكن إلا أن يصدر من حكيم عليم، يتمتع بالقدرة المطلقة واللامتناهية، وما قضية البعث إلا قضية شبه ثانوية بعد القدرة على الإيجاد والخلق من العدم.

٥ - دليل الغاية والمصير المحتوم:

هل من المعقول والحكمة أن يكون بعد هذا الخلق بما فيه من الآيات والسنن والقوانين، وتجليات القدرة الإلهية، بدون هدف وغاية؟ فهذا خلاف المنطق والعقل والفطرة، وهل يقبل البشر أن تكون حياتهم فوضى بلا هدف وبلا عدالة تضمن لهم الحقوق، وتنصفهم، وتعاقب الظالم؟ هل يمكن أن نتخيل أن تكون حياتنا بلا قيمة وبلا حق ولا إنصاف؟ إذا ما قيمة عمل الخير والصالح والالتزام والصدق والأخلاق؟ ولماذا نلوم ونعاقب الظالم وأهل الشر والفساد؟ ولماذا نجد الدول والحكومات تضع لها دستورًا وقوانين ومحاكم وقضاء؟ ولماذا في الأخير نقول للمحسن: أحسنت، وللمسيء أسأت؟ وما قيمة الصبر على الابتلاءات وبذل الجهد لتحصيل الرزق الحلال؟ أسئلة كثيرة لا تنتهي ترتبط بحياتنا ومصيرنا في الدنيا، فهل من المقبول أن يسود الظلم والفساد في الأرض بلا حساب وعقاب؟ وما جزاء من يفلت من هذا العقاب ويتمرد على القوانين ويخرق النظام ويهلك الحرث والنسل؟ وليس هناك قوة تردع؛ فكيف يكون مصيره الأبدي؟ فهذا هذا هو

حال الدنيا التي يجري فيها الانحراف والضلال التي يتحدث عنه القرآن، ويشير إلى ظلم الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)، ولذلك جاء الاستنكار. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ﴾^(٢).

وفي الأخير هل تستوي الحسنة والسيئة في عرف الناس، أم هل يستوي أهل الخير مع أهل الشر؟ فتأمل إلى هذه المقارنة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣)، وبين قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤)، فيكفي في ذلك للوصول إلى نتيجة حاسمة لا تقبل الشك والجدال بوجود العدالة الإلهية كي تضع الأمور في نصابها الصحيح، ولكي يُردع الإنسان في الدنيا قبل الآخرة بأن الجزاء من جنس العمل سواء في الدنيا أم الآخرة.

إن قضية البعث تقتضي وجود العدالة الإلهية من أجل تحديد المصير، والمبدأ العقلاني يقتضي مبدأ العدل التام والكامل، بلا محاباة أو تمييز، وهذا

(١) سورة الروم: ٤١.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٧.

هو المبدأ الذي يستند عليه حكم الله في الآخرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، وعن خصوصية هذه العدالة واليوم الموعود والمصير المحتوم يقول الباري: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَهم النَّارُ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَنَادُونَهم الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ * فَلَا تَكَ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَهم نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وهناك ندرك الحقيقة الكاملة ونهاية المسرحية، ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ

(١) سورة البقرة: ٨١ - ٨٢.

(٢) سورة هود: ١٠٥ - ١٠٩.

(٣) سورة الزمر: ٧١ - ٧٥.

وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا
لَأُظْلَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى ^(١)، ﴿فَأَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢)، فهل يكفي بعد ذلك كله من
الدلائل التي لا حصر لها، والتي أشرنا إلى بعضها؟

الجواب على الافتراض الثاني من القرآن:

وهو عدم القدرة على البعث، إما بسبب القول بالصدفة أو العجز وعدم
القدرة، هو من الآيات نفسها: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ ^(٣)، وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ ^(٤)، وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٥).

الخلاصة أن يوم البعث من المسلمات والضروريات الراسخة في
العقيدة الإسلامية والقرآن، فهو الباعث الحقيقي بعد الإيمان بالله، ولذلك
يعدُّ من أصول الاعتقاد، الذي لا يقبل التقليد فيه أو الظن. والآيات في هذا
الجانب لا حصر لها خصوصًا تلك الأدلة التي تُساق في الرد على المنكرين
والمكذبين، ومن جانب آخر يؤكِّد القرآن على أهمية مفهوم وصحة الاعتقاد،

(١) سورة المعارج: ١١ - ١٨.

(٢) سورة الأنعام: ٨١.

(٣) سورة النحل: ٤٠.

(٤) سورة الروم: ٤١.

(٥) سورة البقرة: ١١٧.

أي الإيمان باليوم الآخر، وليس مجرد الالتزام القشري، أو شعارات الدين من صلاة وغيرها. قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٢).

رابعاً: الدليل النقلي:

يكفي في ذلك إرسال الرسل والأنبياء الذين يبلغون عن الله عبر الوحي، مما يدل على وحدانية الله سبحانه، إذ لو كان هناك إله آخر لبعث رسله، كما أنه دلالة على البعث لأنهم يخبرون الناس ويذكرونهم بيوم القيامة والمعاد ويوم الحساب، ولكل من هذه المسميات دلالة، فيوم القيامة هو يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، والمعاد من الموعد والعودة أي الرجوع إلى الله، والأحاديث والروايات فتملاً الخافقين، فلا حاجة لذكرها أو استقصائها، إن مهمة الرسل هي التبليغ والتذكير والهداية، ومن جانب آخر هو التبشير والإنذار من أجل قيام الحجة على الناس. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران: ٩.

حَكِيمًا^(١)، مما يستلزم وجود البعث والحساب يوم القيامة. ومن العجب هو إنكار كل ذلك، والقول بالعبثية، والموت هو نهاية المطاف والمصير، فكيف يعقل ذلك؟ يقول الشاعر أبو العلاء المعري^(٢):

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ أَعْمَا لِي إِلَى دَارٍ شِقْوَةٍ أَوْ رِشَادِ
وآخر^(٣):

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مُتْنَا تُرِكْنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلِّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مُتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

وحقيقة يوم البعث والحساب هو يوم الجزاء، فكل إنسان يحاسب حسب عمله وما قدّمه في حياته، إن كان خيرًا فهو خير وإن كان شرًا فهو شر، ومن هنا نجد أن الذين ينكرون البعث أو يكرهون الموت هم الأشقياء في الدُّنيا من الذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم ويظلمون الناس ويبخسونهم حقوقهم، فالظُّلم ظلمات يوم القيامة، فتأمل وتدبر القرآن. قال تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ، يَسْأَلُ آيَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

(١) سورة النساء: ١٦٥.

(٢) مفكر وشاعر وعالم لغوي فقد بصره في طفولته بسبب مرض الجدري، وله مؤلفات منها رسالة الغفران، ولزوم ما لا لزوم، ولد سنة ٩٧٣ ت ١٠٥٧ في مقبرة النعمان بسوريا.

(٣) تنسب للإمام علي عليه السلام.

الْمُسْتَقَرُّ، يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ»^(١)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ»^(٢).

وفي الحديث «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»^(٣)، وفي نهج البلاغة عن علي عليه السلام: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ وَالْحَقُّ آخِرَ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يَرِيدُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ وَأَمَادِ السَّمَاءِ (أَي حَرَكَهَا عَلَى غَيْرِ النِّظَامِ) وَفَطَرَهَا، وَأَرْجِ الْأَرْضِ وَأَرْجِفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالِهِ وَمَخَفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا، وَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ أَخْلَاقِهِمْ (مَنْ قَوْلَهُمْ ثَوْبٌ خَلَقَ وَالْمُرَادُ الْبَلَى يَشْمَلُهُمْ كَمَا يَشْمَلُ الثِّيَابُ)، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفْرِيقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يَرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظُنُّ النَّزَالَ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تَتَوَبَّهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ....»^(٤).

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وآله: «قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوْنَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَاها عَنْهُ اخْتِيَارًا، وَبَسَطَهَا لغيرِ احْتِقَارٍ فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ،

(١) سورة القيامة.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ٦٧.

(٤) نهج البلاغة، ص: ١٦١.

لكيلا يتخذ منها رياشا (اللباس الفاخر)، أو يرجو فيها مقامًا، بلغ عن ربه معذراً، ونصح لأمته مُنذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً، وخوف من النار محذراً^(١). وفي الدعاء تعقيب صلاة المغرب: «اللهم صل على محمد وذريته وأهل بيته، اللهم نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والنجاة من النار ومن كل بلية والفوز بالرحمة والرضوان وجوار نبيك وأهل بيته عليه وعليهم السّلام»، ولكن أكثر حال البشر هو ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢). وهنا لا بُدَّ من التذكير برحمة الله التي وسعت كل شيء، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣)، وفي الرواية عن الرضا عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يُكَفِّرُ بِهِ ذُنُوبَهُ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ؛ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْمًا»^(٤)، وعن أبي عبد الله عن آبائه عن علي عليه السلام قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ يَدْخُلُهُ مِنْهُ النَّبِيُّونَ وَالصَّادِقُونَ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَخَمْسَةُ أَبْوَابٍ يَدْخُلُ مِنْهَا شِيعَتُنَا وَمُحِبُّونَا، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ مَقْدَارُ ذَرَّةٍ مِنْ بَغْضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ عليهم السلام»^(٥).

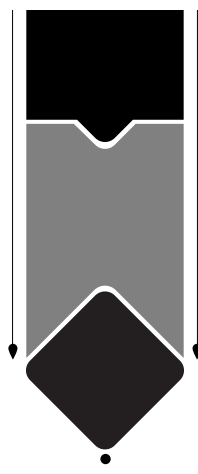
(١) نهج البلاغة، ص ١٦٢.

(٢) سورة الأعلى: ١٥ - ١٦.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٢٩٤.

(٥) بحار الأنوار ج ٣١ ص ٦٥٧.



القصص القرآنية في ظل الحوار

تعدُّ القصة في القرآن بما تتضمن من أهداف ومشاهد وسيناريوهات من أهم عوامل الجذب، لما تتسم به القصة من أسلوب وجمال وخيال وتصور وتأثير، والحوار في القصص القرآنية سيد الموقف والسمة البارزة، لأنَّ أصل الحوار هو المحادثة كما أشرنا إما بالحديث مع النفس، أو اثنين أو أكثر أو جهات متعددة، فكما للقصة أهداف مختلفة، وليس فقط البعد التاريخي الموجود في هذه الحكايات والأخبار، لأن القرآن ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى الاصطلاحي للتاريخ، وبالتأمل في الآيات والصور القرآنية نستنتج أهم أهداف القصص:

أولاً- تثبيت فؤاد النبي الأكرم ﷺ. قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). ومن هنا يظهر الدور الكبير الذي تضطلع به قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن، وهي على درجة من العظمة والتأثير الإيجابي في النفوس وبالخصوص فؤاد النبي ﷺ.

ثانياً- إنها تمثل عبراً لأولي الألباب وأصحاب العقول. قال تعالى:

(١) سورة هود: ١٢٠.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ثالثاً- أن تكون القصص مدعاة للتفكير، ومعرفة طريق الحق واتخاذ الموقف المناسب والصحيح. قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

رابعاً- التنبيه على سنن الله تعالى في الحياة والمجتمعات البشرية وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة. قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣)، وقال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) وخلت أي مضت^(٥).

وتأكيداً على أهمية ودور القصة في القرآن، وصفها القرآن بأنها أحسن القصص ونسبها إلى نفسه تشریفاً وتعظيماً وتوثيقاً. قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾^(٦). «إن قصص الأنبياء والمرسلين ليست هي إلا دورات متكاملة في ترسيخ العبودية التي يسير بها الإنسان من موطن نفسه وذاته إلى طريق العبودية لله سبحانه، ويطوي المسافات المترامية من أرض البعد إلى حظيرة

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٣) سورة الحجر: ١٣.

(٤) سورة غافر: ٨٥.

(٥) حسن عز الدين بحر العلوم (القصة القرآنية)، وهي محاضرات آية الله الشيخ مصطفى الهرندي الجزء الأول (العارف للمطبوعات).

(٦) سورة يوسف: ٣.

القدس بالإعراض عن زخارف الدُّنيا، من هنا فإن نعرف أن القصة القرآنية تتفق مع أهداف القرآن التربوية الكبرى^(١).

وبهذه الأهمية نجد الحوار يقدّم لنا الأسلوب الأمثل والصورة الحسية والتفاعل مع الآيات والسور حتّى نكاد أن لا تنتهي القصة ولا نكل ولا نمل من القراءة، فنجد المحادثات المختلفة مع النفس أو مع الآخر أو مع الجهات المتعددة، وكل مشهد بذاته يرتبط ويتصل مع بقية المشاهد الأخرى، حتّى تكتمل الصورة، وإن كانت هذه المشاهد أو المحادثات متفرقة في القرآن وفي السور، كقصة بني إسرائيل حيث جاءت في كثير من السور لكن عند التأمل والتدبر نجد التكامل والاتصال والترابط ما بين أجزائها، ولله الحكمة في ذلك، فقد يكون من أجل التشويق لقراءة القرآن كاملاً، أو البحث والتنقيب عن بعض أجزاء القصة، وفي ذلك مهمة مفيدة، ولكن كل مقطع من القصة وما يجسده له عنوانه الخاص ويمثله من إشارات وفكرة وعبرة وذلك حسب المناسبة والغاية، ذلك أن القرآن كما أشرنا ليس كتاباً قصصياً أو تاريخياً ولكن حسب الحاجة والموقف.

وتعدُّ قصة نبي الله يوسف قصةً استثنائية ونموذجية حيث جاءت كاملة متناسقة ومتراصة أشد الارتباط، مما يعني أنها له خصوصية وغاية، فهي فريدة من دون القصص الأخرى، ولكن تشترك معها بأنها أحسن القصص وليس أحسنها كما يتصور البعض، فهم يشتركون في الأهداف العامة والأساسية، بحيث تكاد كل قصة تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة

(١) نفس المصدر السابق.

التي جاء من أجلها القرآن الكريم، ويمكن أن نصنف هذه الأغراض:

الأولى - الأغراض الرسالية:

- ١ - إثبات الوحي والرّسالة، وأن ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند محمد ﷺ، وإنما هو وحي من الله تعالى إليه وأنزله لهداية البشرية.
- ٢ - وحدة الدّين والعقيدة لجميع الأنبياء وأن الدين كله من الله وإليه، وأن أساس الدّين الذي جاء به الأنبياء المتعددون هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر، فالدّين واحد ومصدر الدّين واحد أيضًا، وجميع الأنبياء يشكلون أمة واحدة تعبد الله وتدعو إليه، ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية والدّعوة إلى ضرورة الإيمان بكلها، لأنها تمثل سلسلة وحلقات مترابطة، بحيث إن الكفر بواحدة يستلزم الكفر بكلها وجميعها، ولذلك مثل الرّسول ﷺ رسالة الإسلام وبين تلك الرسالات بأنه كالبيت الواحد، بحيث لم يبقَ إلا لبنة حتى يكتمل، وأنا هي تلك اللبنة، فرسالة الإسلام هي المكملة لتلك الرسالات والخاتمة كما قال الرّسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، لأنّ الأخلاق هي المبدأ الثابت الذي لا يتغير ويتحول بسبب الاختلافات والظروف، كما أنه يمثل التجسيد الكامل للقيم والمبادئ، فكانت الأخلاق هي التعبير الصحيح والمثالي والمعبر عن وحدة الرسالات. مع اختلاف شرائعها وما تقتضيه الحاجة. فتلك الرسالات الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية، ولذا اقتضت الحكمة تكرّر الكثير من القصص في سورة واحدة وكذلك ذكر الأنبياء، لتؤكد هذا الارتباط والعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل بحيث لا تنفك عن بعضها، فلذلك من الخطأ

الكبير والانحراف في المفاهيم إقصاء الماضي أو الاستهانة به، أو الشعور بعدم الحاجة والاستفادة، وهذا خلاف المنهج الرباني والقرآني الذي يؤكد الاستفادة والعبرة والعبور من الماضي والقصص.

والخلاصة أن كل الرسائل تشترك في المبادئ العامة والكلية والقيم الإنسانية والإيمانية والأخلاقية ما عدا بعض أحكام الشرع المقدس، حيث يختص الإسلام بخصائص في أحكامه، إما بزيادة، أو تعطيل، أو تفصيل أو إباحة، عن تلك الشرائع، وهذا بابٌ يحتاج إلى اطلاع وتوسع للوقوف عند هذا الاختلافات. «ولذلك من المؤكد هو القول بعدم نسخ الإسلام لتلك الرسائل»، كما قرّر في الأصول.

٣- بيان أن وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدّعوة واحدة، وطريقة مجابهة قومهم لهم، واستقبالهم متشابه، وإن العوامل والأسباب والظواهر والتحديات واحدة، والسبب وراء تأكيد القرآن لهذه الحقيقة هو بيان صحة هذه المواقف الرسالية وأساليبها من ناحية، وكذلك ما يترتب عليها من نتائج وآثار، وكذلك الثبات عليها من ناحية أخرى. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١).

٤- تصديق التبشير والتحذير، فقد بشر الله سبحانه عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه، وحذر من مغبة العذاب الأليم من عصاه منهم، ولذا ومن أجل إبراز هذه العنوان بصورة حقيقة متمثلة في الخارج، عرض القرآن

(١) سورة النحل: ٣٦.

بعض الوقائع الخارجية التي تتمثل فيه البشارة والتحذير.

٥- بيان نعمة الله على أنبيائه ورحمته بهم وتفضله عليهم وذلك توكيدا لارتباطهم وصلتهم به.

٦- بيان غواية الشيطان للإنسان وعداوته الأبدية له. وتنبيه الإنسان من مغبة اتباعه، ولا شك أن إبراز هذه المعاني عبر القصة يكون أوضح وادعى للحذر والالتفات.

٧- بيان الغايات والأهداف من إرسال الرسل والأنبياء وهو من أجل الإبلاغ والإصلاح وهداية الناس وإرشادهم وتزكيتهم وغير ذلك من الغايات والأهم هو إقامة الحجّة عليهم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(١).

الثانية- الأغراض التربوية:

فقد استهدف القرآن بشكل رئيس:

أ- تربية الإنسان على الإيمان بالغيب.

ب- تربية الإنسان على الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة كالقصص التي تذكر الخوارق والمعجزات مثل قصة آدم عليه السلام، ومولد عيسى عليه السلام،

(١) سورة النساء: ١٦٣ - ١٦٥.

وقصة البقرة، وقصة إبراهيم عليه السلام مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءا منه.

ج- تربية الإنسان على الأخلاق الفاضلة وفعل الخير، وتجنبه الشر والفساد، وبيان العواقب سواء في الدنيا أو الآخرة.

د- التربية على الاستسلام للمشيئة الإلهية والخضوع للمحكمة التي أرادها الله سبحانه من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة الدنيا والحكمة الإنسانية القريبة العاجلة

الثالثة- الأغراض الاجتماعية والتاريخية

أي بيان السنن التاريخية في حركة الإنسان والمجتمع الإنساني ومن هذه السنن:

- أ- سنة التغيير في الحياة على صعيد الإنسان والمجتمعات والحضارات.
- ب- سنة انتصار الحق على الباطل.
- ج- سنة الابتلاء وعموم الامتحان.
- د- دور القدوة في مسيرة الإنسان من خلال القصة.

وهذه الأغراض أو الوظائف استخدمت مختلف الوسائل الفنية والبلاغية لتحقيق الفائدة والتأثير ولذلك جاء الإعجاز القرآني بما لم تجئ به الكتب الأخرى السماوية، حيث كان القرآن هو المعجزة^(١)، انتهى.

(١) كل الكلام ما بين القوسين بدءا من (٢٣٠-٢٣٦) منقول من كتاب القصة القرآنية للكاتب حسن عز الدين بحر العلوم، مع تغيير بسيط ووضع الشواهد من الآيات، (العارف للمطبوعات).

إن الحديث عن القصة في القرآن وفي ظل الحوارات والمحادثات أعطت مزية خاصة مؤثرة في قراءة القرآن والاستفادة منه، حيث تناولت القصص كل المواضيع التي تتصل بالحياة ومختلف جوانبها الدينية والإنسانية والاجتماعية والأخلاقية مثل السياسية والاقتصاد والإدارة والتدبير، كما هو في قصة يوسف الذي سعى لإصلاح الوضع الاقتصادي بوضع الخطط والإستراتيجيات، ونتيجة لذلك نجد الكل من أهل الاختصاص يستفيد ويعترف منه حسب مجاله واختصاصه، مع الحفاظ على البنية العامة للقرآن، ولذلك أمرنا الخالق بالتدبر في القرآن كله وليس القصة فحسب، لاكتشاف الإعجاز والمعجزة على القدرة والحكمة الإلهية. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

قصة نبي الله يوسف ﷺ نموذجاً

من خصائص قصة يوسف في القرآن أنها جاءت دفعة واحدة في سورة واحدة، بحيث يتمكن القارئ من استيعابها والوقوف عند مفصلاتها وأحداثها، وهي متميزة في إيقاعاتها ومتنوعة في مراميها، فكل جانب منها ومشهد له بُعد مختلف، فلا تستطيع أن تجزم بأنها قصة ذات طابع معين أو هدف واحد، كما أن المحادثات والحوارات جاءت في سياقات متعددة ومناسبات مختلفة قد لا تجد رابطاً بينها إلا وجود شخصية النبي يوسف ﷺ، فهي كانت حاضرة في أغلب المواقف والمحطات وربما سميت السورة باسمه لذلك، أو لأنه كان محور الأحداث وقيادتها.

(١) سورة النساء: ٨٢.

والمهم أن القصة مليئة بالدروس والعبر والحقائق والتوجيهات، ولا يكاد فصل من فصولها ينفصل عن الحوار، وهذا ما ساهم كثيراً في تأثيرها وجاذبيتها وانشداد القارئ لها، ومن أهم المشاهد والمحطات جاذبية هو ما حصل في بيت العزيز وزوجته، فهي أكثر إثارة، بسبب ما دار فيها من محادثات وسجلات ومؤامرات، لكن تجلت قدرة وإرادته وحكمته في تخطي نبيه يوسف ونجاته من المؤامرة، بعد أن أظهر الله الحق وكشف المؤامرة، وخرج من السجن واعترفت زوجة الملك وبقيّة النسوة بالخطيئة؛ ليصبح بعد ذلك سيّداً ووزيراً في البلاد. وهنا نشير إلى بعض المحطات التي جرى فيها الحوار، وما يتصل بها من حقائق:

تأويل الرؤيا

من هنا كانت البداية وانطلاق مسرح القصة لتأخذ أبعادها وتأثيرها في المحيط الأسري، لتجد نفسها (أي الأسرة) في مواجهة مع أحداث تبدو غريبة بعض الشيء، ومثار تساؤلات، كيف تحصل وتحدث هذه الأمور، في بيت النبوة ومعقل الرسالة الإلهية؟ هل من قبيل الصدفة أم هناك أسباب قد لا تنفك عن طبيعة الحياة وكذلك طبيعة الإنسان وما ينطوي عليه من غرائز ودوافع شريرة؟ ونعني بذلك موقف إخوة يوسف عليه السلام، من الاهتمام والرعاية الخاصة لابنه يوسف عليه السلام مما أثار وأيقظ المكنات الشيطانية عند إخوته نتيجة النفس الإمارة بالسوء، إما بالإحساس بوجود التمييز، أو لما يتمتع به النبي يوسف عليه السلام من الصفات والفضائل والمواهب. وهذا أمر طبيعي أن نجد في بيوت الأنبياء والرسل منغصات وربما انحرافات تحيط به، مثل أن تكون زوجة النبي كافرة أو فاسدة العقيدة كما كانت زوجة النبي نوح

ولوط، وهنا نشير إلى الحوار الدائر بين يوسف عليه السلام مع أبيه عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

الرؤيا الصادقة

يتفق جميع العلماء وذوو الاختصاص بأن رؤى الأنبياء والرسل والأولياء المعصومين صادقة ولا تتخلف، وهو ما يميزهم عن غيرهم من العباد. والرؤيا إخبار بالغيب أو الوحي لا فرق، ولذلك نجدهم يفسرون الرؤيا أو يؤولونها من خلال الواقع والتطبيق، وبمعنى آخر تعتبر كالأوامر أو التوجيهات، بحيث لا يمكن أو استحالة التشكيك أو المخالفة بمقتضى الرؤيا، أما غيرهم فهي قابلة للصدق والكذب وتخضع للظنون والاجتهاد، ولذلك نجد تأويل النبي يعقوب عليه السلام تجسد بحذايره وبنى عليها الكثير من المواقف والحسابات والأثر، وجاءت صورة الحوار حيث قال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢). ونجد كذلك في قصة النبي إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ *

(١) سورة يوسف: ٤ - ٦.

(٢) سورة يوسف: ٥.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ^(١)، فنجد
في هذه الآيات كلاً من الأب والابن قد امتثلا للرؤيا وسعيًا لتأويلها وتجسيدها
على الواقع، بل نجد الطاعة والتسليم المطلق من النبي إسماعيل عليه السلام،
الذي حثَّ أباه على الفعل والإقدام، وهذا أمر عظيم وغاية في الابتلاء
والامتحان، ويبدو أن ذلك خاص بالأنبياء والأصفياء، فالرؤيا في حقهم
حجة. والابتلاء في الآيات يرجع إلى الطرفين، فهو تجسيد للابتلاء العظيم،
وقيل في بعض الروايات بأن المقصود من الفداء هو الإمام الحسين عليه السلام،
لأنه لا يصح أن يوصف الذبح بالعظمة، وقد يقال بأن الوصف يرجع إلى
الأمر أي أمر عظيم، لكن إذا صحت الروايات فلا معنى للأخير.

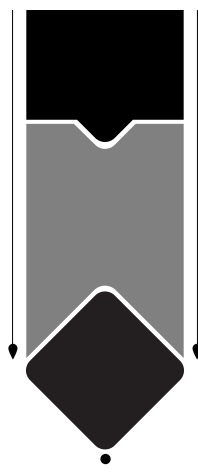
ومن هنا بدأ مشوار قصة يوسف عليه السلام وحياتها وحول ما جرى لهذه
الأسرة وليوسف عليه السلام على وجه الخصوص مع إخوته، حيث تحوم حولها
(أي القصة) الكثير من التساؤلات، وكانت الحوارات والمحادثات سيدة
الموقف، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾^(٢)،
فقد جسدت هذه القصة كاملة أهمية الحوار باعتباره الأسلوب الأمثل في
إبراز القضايا والأحداث والمواقف، لترسم لنا لوحة فنية رائعة بالرغم مما
يصاحبها من تجاذبات ومنازعات، كما أنها تقدّم لنا شخصية النبي
يوسف عليه السلام الذي يمثل مسيرة الإيمان والاستقامة، وكل الفضائل للدلالة
على الاصطفاء الإلهي والحكمة البالغة، خصوصاً أنها ارتبطت مع باكورة

(١) سورة الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

(٢) سورة يوسف: ٧.

حياته وشبابه حتَّى أصبح وزيراً وفي أرقى المناصب الحساسة في ذلك الوطن، وهذه المسيرة حُفَّت بالكثير من الانعطافات والتحويلات والابتلاءات، لتتحول إلى أيقونة تطل على كل جوانب الحياة التربوية والنفسية والاجتماعية والإصلاحية والاقتصادية والأخلاقية، ومع كل ذلك لا يغفل القرآن عن الهدف الأسمى الذي يجب أن يكون نصب الأعين ولا يضيع في زحمة الاهتمامات والانجذابات، حيث يقول الباري: ﴿قَالُوا أَأَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

(١) سورة يوسف: ٩٠.



الحوار في ظل مدرسة أهل البيت المعصومين عليه السلام

إن أهل البيت المعصومين عليه السلام يمثلون الإسلام وكذلك يحيطون بفهم القرآن، ويمكن الاستدلال على ذلك بالآية المباركة فضلاً عن غيرها من القرآن والسنة المطهرة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ^(١)، فهنا يقسم الخالق العباد إلى أربعة أقسام وهي:

١ - وهم المصطفون وهم من أورثهم الكتاب أي القرآن، بدلالة الألف واللام العهدية.

٢ - الظالمون (فمنهم ظالم لنفسه).

٣ - المقتصدون (من يلتزمون بحدود الشرع ويسعون للنجاة).

٤ - السباقون للخيرات (أي من يتطلعون للدرجات العليا وهم المحسنون).

ولا شك أن أهل بيت العصمة والطهارة هم من العباد الذين اصطفاهم

(١) سورة فاطر: ٣١ - ٣٢.

اللَّهِ من النبيين والمرسلين، ويتميزون ويختصون بأمرين وهما:

١ - ورثة الكتاب، فهم يرثون القرآن عن طريق التوارث ليس إلا، فحديثهم وأقوالهم هي من الله إلى رسوله إلى الأئمة عليهم السلام، روي عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن جابر قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «يا جابر، والله لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكننا من الهالكين، ولكننا نحدثهم بآثار عندنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وآله يتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»^(١).

٢ - يحيطون بالقرآن كاملاً، فالألف واللام أيضاً تفيد الشمول والعموم، أي يعلمون ويحيطون بالقرآن، ولوجود روايات كثيرة منها وأهمها، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قال عليه السلام: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قلت: جعلت فداك قد قرأته. قال عليه السلام: فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قلت: أخبرني به؟ فقال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر. فما يكون ذلك من علم الكتاب؟ قلت جعلت فداك ما أقل هذا. فقال عليه السلام: يا سدير، فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل أيضاً: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قلت: قد قرأته جعلت فداك. قال: أفمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كله. قال: فأوماً بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب، والله، كله عندنا، علم الكتاب،

(١) بصائر الدرجات ص ٣٢٠.

والله، كلُّه عندنا»^(١).

وعلى هذا الأساس فهم يمثلون منهج القرآن والسنة، في كل المبادئ والقيم والثقافة والسلوك والأخلاق، فدعوتهم هي تبليغ الرسالة وهداية الناس، فهم القدوة الحسنة والكاملة بعد رسول الله، ومن أهم أساليب دعوتهم إلى الحق والهداية هو أسلوب الحوار والانفتاح على الناس، فالحوار في منهجهم هو مبدأ وكذلك ضرورة، ويكمن ذلك في الأسباب الآتية:

أولاً- التعريف بالإسلام وحقيقته، فهو السبب لهداية الناس والتزامهم، وفي ذلك يقول الصادق عليه السلام: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَا تَبْعُونَا»^(٢)، وأسلوب الحوار من أهم الأساليب لتحقيق هذا المطلب.

ثانياً- التعريف بالمذهب، لأنَّ شعائر الإسلام عامة، وتصدق على كل المذاهب، لكن كان من الضروري بيان الخصوصية خصوصاً بعد ظهور المذاهب الإسلامية المختلفة، وهي كثيرة، وإن اشتهرت تلك تلك المذاهب الأربعة التي تمثل منهج أهل السنة والجماعة. فالتعريف بالمذهب نسبة إلى تلك الظروف، وإلا فأهل البيت ومنهجهم ودعوتهم هي دعوة للإسلام والقرآن، لكن من أجل التمييز اقتضت التسمية (بالمذهب الجعفري) نسبة للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وخصوصية ذلك أي النسبة للظروف التي أتاحت للإمام عليه السلام أكثر من غيره في إبراز الأحكام والتعاليم والمفاهيم الإسلامية، وهي فترة أفول دولة بني أمية، وبداية مجيء الدولة العباسية.

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٢٦ ص ١٩٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام. بحار الأنوار ج ٢ ص ٣٠.

ونتيجة لجو الانفتاح، كان الاختلاف في أمر الدين ومفاهيمه ظاهرة وسمة ذلك العصر. ولهذا السبب أيضًا استغل الحكام والطغاة كثيرًا من العلماء واستعملوهم ليكونوا مطية لحكمهم ومصالحهم التي تتعارض مع مبادئ الإسلام والعدالة، في حين نجد المذهب الجعفري الذي يمثل الخط الإمامي بدءًا من إمامة علي عليه السلام وبقية الأئمة يمثلون السنة المطهرة التي أوصى بها النبي عليه السلام في حديث الثقلين المتواتر والمتفق عليه عند علماء الأمة*، الذي يضمن العصمة وسلامة المنهج الإسلامي ومسيرته المباركة، وعلى هذا الأساس نجد الأئمة عليهم السلام جميعًا يتمتعون بالاستقلالية الكاملة رغم الصعاب والضغط والتحديات.

ثالثًا- مواجهة الانحرافات والضلالات الفكرية والعقدية بالخصوص، إذ انتشرت في تلك الحقبة وفي ظل الانفتاح والانفراج السياسي الأفكار الإلحادية والزندقة والمرجئة، وكذلك العقائدية مثل الأشاعرة والمعتزلة وغير ذلك. لكن السؤال المهم كيف واجه الإمام الصادق عليه السلام هذه الانحرافات وكذلك الأئمة من بعده؟ والجواب ومن خلال القراءة الموضوعية والمنصفة والاطلاع الواسع إلى تلك الحقبة وحقيقة الأمر نجد الآتي: أن الإمام استخدم أساليب كثيرة كلها تخضع إلى المبادئ القرآنية والإسلامية، أي تمثل حقيقة الدعوة الإسلامية من خلال:

أ- بث القيم والتعاليم الإسلامية، عن طريق الحديث مع الناس جميعًا بدون تمييز، ومن خلال تربية العلماء والمبلغين. وينقل لنا التاريخ أن الإمام خرّج أربعة آلاف عالم وفي كل المجالات والاختصاصات، وحثهم على نشر العلم والعلوم، ولذلك نجد الروايات التي تنقل عنه هنا وهناك وفي كل

البلاد الإسلامية المترامية الأطراف ينقلون عنه ويقولون حدثنا أبو جعفر الصادق عليه السلام. ولهذا يعدُّ الإمام الذي اتخذ من المدينة المنورة مركزاً له، لأنها دولة الإسلام الأولى بقيادة الرسول الأكرم ومهبط الوحي كذلك بعد مكة المكرمة، وكذلك المركز الروحي والإيماني والعلمي، فالمدينة هي مدينة رسول الله ﷺ، وهي المركز الإسلامي الأساسي التي تهوي إليها القلوب وتطمع فيها النفوس، وتشرب إليها الأعناق وتتطلع إليها الآفاق والعقول، وهذا ميزة وخصوصية في ذلك الوقت، ولذلك كانت المدينة وفي ظل قيادة الإمام عليه السلام ونهجه تمثل جامعة، فيها كل الاختصاصات وليس فقط العلوم الدينية والشرعية.

ونتيجة لذلك نجد كل العلماء وأصحاب المذاهب الإسلامية في ذلك الوقت يشدُّون الرحال رغم الصعاب والعناء إلى هذه الجامعة ويتعلمون على يد الإمام عليه السلام، وهذا سبب تخرج كثير من العلماء، لكن السياسات فعلت فعلتها ودورها في استقطاب العلماء لترسيخ منهجها السياسي والانفراد بالسلطة دون حساب، ولذلك نجد تلك التوجهات التي تبنت هذا النهج لها منهجها الذي يخضع إلى تلك السياسات والمصالح والتي تتناغم معه وترتبط بجهازه أشد الارتباط، حتَّى عُرفوا في أوساط المجتمع والجماهير بأنهم (علماء السلطان أو السلاطين)، فكانوا أشد بلاء من الحكام لأنهم يشرِّعون للحكام هيمنتهم وقبضتهم، والحديث في ذلك ذو شجون ويطول ليس هنا مجاله.

وما تميز به الأئمة المعصومين عليهم السلام هو الاستقلالية ومقاومتهم للضغوط، وسعوا أن يربوا الأصحاب والأتباع على ذلك، ومن سار على

نهجهم، ولذلك وُصفوا من قبل ومن بعد بأنهم (روافض)، فهذا شعار يطلق على الشيعة إلى عصرنا الحاضر وسوف يستمر بسبب مبدأ الاستقلالية. وهذه ضريبة الالتزام بالحق والنهج الإسلامي الأصيل، وهي غدت تهمة بدلاً من أن تكون نعمة ورحمة ومفخرة.

وهنا نشير إلى رواية واحدة تمثل الحقيقة وهي الاستقلالية ومواجهة الضغوط السياسية بالخصوص، لأنَّ السياسة في الغالب تنصب حول الاهتمام بالسلطة والثروة، ودون حساب واهتمام بالإنسان والإصلاح، ولذلك ساد هذه النهج في أغلب فترات المسيرة الإسلامية وفي أغلب الحُقب والبلدان والأوطان، ومن أهم عوامل ترسيخ السلطة بهذا المفهوم هو شرعنة الاستبداد والطُغيان، فكان لتلك المذاهب الإسلامية الأخرى الصفة العامة التي تتمحور حول طاعة السلطان واعتباره ولي الأمر بعد الله سبحانه والرسول ﷺ، ولهذا السبب كانت الكوارث والطامات التي حلت بالأمّة الإسلامية نتيجة الانحرافات وترسيخ السياسات الظالمة مما أفقد الأمّة هُويتها وقوتها ووحدتها ودورها الديني والحياتي والحضاري.

وهنا نشير إلى ذلك النهج السوي الذي سعى في المقابل لترسيخ الهوية الأصيلة التي تمثلت في منهج أهل البيت ﷺ، واستعصى على الطغاة النيل من شخصياتهم والتأثير عليهم. كتب المنصور العباسي (الدوانيقي) إلى الإمام الصادق ﷺ في إحدى المرات: «لِمَ لا تغشانا كما تغشانا النَّاسُ؟ (أي تدخل بيننا وتجالسنا) فأجابه ﷺ: ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا أنت في نعمة فنهنتك، ولا تراها نقمة فنعزيك، فماذا نصنع عندك، قال المنصور لكي تنصحنا، فرد عليه الإمام ﷺ: من أراد الدُّنيا لا ينصحك

ومن أراد الآخرة لا يصحبك»^(١)، وسأله أيضًا في إحدى المرات عن الذباب وهو يتطايح على وجهه حتّى اضجره، فقال له: يا أبا عبد الله لِمَ خلق الله الذباب؟ فقال الصادق عليه السلام: «ليذل به الجبابة»^(٢)، فسكت المنصور.

ب- عن طريق الحوار، كان الإمام الصادق عليه السلام يمثل مدرسة أهل البيت عليهم السلام ويجسّد تعاليم القرآن ومبادئ الإسلام، التي تحث على الحوار كأسلوب للهداية والإقناع، وكذلك في مواجهة الانحرافات الفكرية والعقدية مثل الإلحاد والزندقة والمعتزلة والأشاعرة والصوفية، وحتّى في جانب الشريعة مثل القياس والاستحسانات والمصالح المرسلة وسد الذرائع، فكل تلك التوجهات كانت حاضرة وبقوة هذا من جانب، ومن جانب آخر كان أهل البيت المعصومون عليهم السلام يفرضون شخصياتهم بالعلم الواسع والمعرفة الكاملة التي حباهم الله بها، كما أشرنا، مما أكسبهم الثقة، والقدرة على الحوار والمواجهة، بحيث يشهد لهم الداني والقاصي، بأنهم يملكون ناصية العلم ولا يضاهيهم أحد، كيف وهم يمثلون عيبة وعلم رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولذلك فهم يغتنمون الفرص في مواجهة الناس، خصوصًا للأعلام من الشخصيات وأئمة المذاهب، مثل أبي حنيفة إمام أهل العراق (٨٠ - ١٥٠)، والإمام مالك إمام أهل المدينة (٩٣ - ١٧٩)، المعينين من قبل الحكومة العباسية، والاثنان عاشا في فترة حياة الإمام عليه السلام (٨٠ - ١٤٨)، ثم جاءت المذاهب الأخرى مثل الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤)، والحنبلي الإمام أحمد بن حنبل (١٤٦ - ٢٤١)، وهناك كثير من المواقف والحوارات التي سجلها

(١) الإربلي في كشف الغمة ص ٤٢٧.

(٢) نور الأبصار للشبلنجي ص ١٤١.

التاريخ فيما بينهم. وكان لذا أثر كبير في تحقيق الحق وكشف الباطل.

ونتيجة لذلك ترسخت أصول المذهب الجعفري وعوالمه وخصوصياته ومبادئه، ولهذا السبب نجد المواقف الرسمية التي تمثل سياسات الحكومات من معاداة المذهب وترسيخ تلك المذاهب الأخرى التي تتفق مع تلك السياسات، وأصبح لها من الظهور والانتشار الواسع لهذه المذاهب في البلدان، بينما المذهب الجعفري أصبح تحت الحصار والإقامة الجبرية، ومع ذلك كان الإمام الصادق يمثل الدور الأبرز لالتزامه بالحوار والانفتاح ومجاراة كل التوجهات، وكان الاعتراف به من قبل الجميع بالفضل حقيقة لا تخفى على أحد، وفي مقدمتهم أبو حنيفة ومالك، وكل المصادر تتفق وتثبت هذه الحقيقة، ومن يراجع التاريخ في تلك الفترة والمصادر يقف عليها، أما هنا أشرنا إليها اختصاراً.

ج- التأكيد على الأخلاق الإسلامية، فهي جزء لا يتجزأ من المهمة في ظل الانفتاح والحوار مع الناس ومع حتى مع المعادين والمخالفين للمذهب، فالأخلاق مبدأ ثابت لا يتأثر بالظروف والاختلافات، فكما أن للحوار أهدافه وتأثيره في الوصول للحقيقة والإقناع، كذلك تأثير الأخلاق والسلوك، أي أن أهل البيت عليهم السلام ينطلقون من ثوابت إسلامية وهي حب الناس والحرص على هدايتهم، والشفقة عليهم، ونتيجة لذلك تتجلى في حياتهم وسيرتهم ومعاملتهم للناس من خلال مكارم الأخلاق في شتى الأبعاد الحياتية، ومن هذا الأبعاد هو الحوار، ولذلك أيضاً نجدهم في حواراتهم يلتزمون بالأخلاق، مهما كانت المهمة صعبة مثل مواجهة المعاندين والمكابرين والمخالفين، مصداقاً لنهج القرآن الذي يؤكد على مبدأ الأخلاق مع الجميع. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(١)، ففي هذه الآية المباركة تشير إلى أهمية الأخلاق وأنها لا تنفصل عن بقية الالتزامات الأخرى مثل العقيدة والعبادات.

وتتأكد أهمية الأخلاق في الحوار وفي ظل الاختلافات ومواجهة التيارات الفكرية لأنها منشأ الصِّراعات والفتن والانحرافات والتأثير في الغالب. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٢)، ونجد في ذيل الآية دور الشيطان الخبيث وعداوته الأبدية للإنسان، والاختلاف والعداوات مدخل رئيس للشيطان، حيث ينفخ في روح النفس البشرية ويزين الفتن ويخلق المشكلات ويكرس الأزمات.

وتعدُّ الاختلافات الفكرية أو الدينية التي لا تجد لها حلاً سلمياً من الفتن التي تستمر عبر الأجيال وتكرس الصِّراعات، من هنا نرى أن الفتن أشد من القتل، فالقتل قد ينحصر ويحتوى ويتوقف وينتهي أثره، فتأمل، ويؤكد القرآن كذلك على تأثير الأخلاق في النفوس وأسر القلوب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوْ حَظٌّ

(١) سورة البقرة: ٨٣

(٢) سورة الإسراء: ٥٣.

عَظِيمٌ^(١)، وعلى ذكر الصبر الذي هو من أمهات القيم الأخلاقية وصدارتها، والتي نحتاجها في كل التزاماتنا وحياتنا الخاصة والعامة، وفي ظل الاختلافات والحوارات بالخصوص، وفي نهج البلاغة يقول الإمام علي عليه السلام: «الصبر بمنزلة الرأس من الجسد ومن لا صبر له لا إيمان له»، لأنَّ الصبر هو الذي يجسد الأخلاق خصوصًا عند الصعاب والشدائد، أو ملاقة الأعداء، أو مواجهه الآخرين وأفكارهم وتوجهاتهم بأن نحاول تحمُّل ذلك ويكون عندها سعة صدر، ولذلك تعتبر الخلافات نوع من الابتلاء والامتحان ما بين النَّاس، فهو يمثل سنة في الحياة أو بتعبير أصح لا تنفك الحياة الإنسانية عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^(٣).

والأخلاق هي القيم المثلى والأساسية في مواجهه ظروف الحياة وتعرجاتها، وخصوصًا في التعامل مع النَّاس، وبالأخص في ظل الاختلافات والنزاعات والصِّراعات والاختلافات، فهي الدواء النَّاجع، والحل السليم، والطريق إلى تحقيق الاستقرار والأمن والسَّلام الكامل والتعايش، وتحقيق الأهداف الإنسانية والتنمية والتقدم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ رَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤)، و(كافة) يعني جميعًا، وإذا كان الخطاب للمؤمنين فهم الملتزمون والمستجيون، فهم الأولى

(١) سورة فصلت: ٣٤.

(٢) سورة هود: ١١٨.

(٣) سورة الفرقان: ٢٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩.

بالالتزام بالأخلاق. ولأن الأخلاق هي الجسر في بناء العلاقات المتميزة والثابتة، فهي أيضاً الدعامة الحقيقية في تجسيد المبادئ والقيم، والسلوك في التأثير والاحتواء، فلا يكفي أن تكون قناعاتنا راسخة، أو مبادئنا صادقة أو أفكارنا سليمة لإقناع الآخرين، بل نحتاج مع ذلك إلى الأسلوب الحسن والأخلاق الفاضلة، فهي التجسيد الحي لكل ذلك، من هنا نقول إن الأخلاق هي مهارة وتأتي في الصدارة، ولا يجيدها إلا المؤمنون الملتزمون والواعون ومن يحملونه مبادئ ويتطلعون إلى الأفضل والمستقبل. من هنا نعرف عواقب سوء الخلق في الحياة، ومع الناس جميعاً. وفي رواية تنقل عن النبي عيسى عليه السلام، يقول فيها: «داويت فأشفيتهم بإذن الله، وأبرأت الأكمه والأبرص بإذن الله، وعالجت الموتى فأحييتهم بإذن الله، وعالجت الأحمق فلم أقدر على إصلاحه، فقل: يا روح الله وما الأحمق؟ قال المعجب برأيه ونفسه الذي يرى الفضل كله له لا عليه ويوجب الحق كله لنفسه ولا يوجب عليها حقاً، فذاك الأحمق الذي لا يجيله في مداواته»^(١)، ويتضح من ذلك أن الأحمق الحقيقي في هذا التفسير ليس المصاب بعاهة في الدماغ وبعجز في إدراك الأمور بسبب مرض جسدي لأن مثل هذا المريض وإن استعصى علاجه بالطرق الطبيعية للمداواة لا يمكن بالطرق الإعجازية، لكن الأحمق يتمتع بدماغ سالم إلا أن مرض العجب والإحساس بأنه يعلم كل شيء، وهو من يفسد عقله بنفسه ويحكم على عقله بالموت نتيجة عدم استجابته للنداء والهدى.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى كلمة المفكر الإسلامي الشيخ حسن

(١) العقل والجهل في الكتاب والسنة، محمد الريشهري ص ١٨٩.

الصفار^(١)، في خطبة الجمعة بمناسبة وفاة الإمام الصادق عليه السلام لأهميتها وأبعادها عبر اليوتيوب، حيث عاش الإمام الصادق عليه السلام فترة تبلورت فيها المذاهب الفكرية والعقدية والمذهبية، وأصبحت هناك مناهج وليس مجرد رأي كما كان في السابق، أي مرحلة تأسيس، أمّا في السابق كانت الأحكام تُؤخذ من النصوص مباشرة، وكان مذهب أهل البيت عليهم السلام يمثل الخط الأصيل في الدين، لكن كيف تعامل الإمام عليه السلام مع تلك الأفكار والتوجهات والمذاهب؟

اعتمد الإمام نهج الانفتاح والتواصل من منطلق المبادئ الدينية التي تدعو إلى ذلك، وكذلك المبادئ الإنسانية، حيث يرى أن الإنسان له حق، ويتعامل معهم باحترام، فالإمام سلك هذا المسلك وهو الانفتاح والحوار، ومن أجل أن يعزز هذا النهج في ثقافة الأمة، لأن الاختلاف أمر طبيعي في الحياة، فهل السبيل تكون بالمقاطعة؟ كلا، النهج الصحيح هو الحوار والتواصل من أجل وحدة الأمة من التمزق، وكذلك الخوف من إقصاء مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو ما يريده الأعداء، فالإمام الصادق عليه السلام أراد إفشال هذا المخطط، ويمكن الإشارة إلى معالم هذا الانفتاح باختصار:

١ - بيان مدرسة أهل البيت عليهم السلام عقدياً وشرعياً وثقافياً، أي التعريف بالمذهب من خلال العلاقة مع الناس. أما الانغلاق فإنه يفتح المجال للمناوئين للتشويش على المذهب، فالإمام عليه السلام قام بجهد كبير في هذا المجال، وتأتي ضرورة ذلك في ظل الانفتاح ومن أجل الحصانة من

(١) سوف تأتي ترجمته في سيرة العلماء.

التأثيرات، ليكون الأتباع على بصيرة، فلم يحصل معرفة للمذهب بهذا الوضوح مثل ما كان في عهده.

٢- التأكيد على جامعة الإسلام في الأمة، فقرّر وأرسى جامعة الإسلام في ظل الاختلافات وفي ظل ثوابت الدين والالتزام من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن صلاة وحج وصيام وزكاة، فمن يلتزم بهذه الأسس فهو مسلم، أما الاختلاف في المسائل الأخرى والاجتهادية فلا يخرج من هذه الدائرة.

٣- الجامعة المفتوحة لأبناء الأمة، بدون تمييز أو الاقتصار على الأتباع والمذهب، ولذلك نجد في جامعة الإمام الصادق تخرّج كثير من العلماء الذين يشكّلون المذاهب المختلفة، كما ينقل التاريخ حيث تخرج أربعة آلاف عالم في مختلف الحقول.

٤- التواصل والحوار، مع أئمة المذاهب مع علمه بأنه يمثل الحق، لكن مع ذلك لم يقاطعهم بل تحاور معهم ويحترمهم، كما ينقل التاريخ عن أبي حنيفة إمام أهل العراق كلمته التي اشتهرت «لولا الستان لهلك النعمان»، وينقل أن المنصور العباسي قال له هيأ له مسائل عويصة من أجل تحجيم دور الإمام عليه السلام، فاستجاب للمنصور، فسأل الإمام أربعين مسألة، فأجابه الإمام عن كل مسألة وعن اختلاف الآراء في المسألة الواحدة، وقال: فربما وافقنا وربما خالفنا، فانبهر أبو حنيفة، وقال: أليس نروي أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس، وصار يتحاور معه حول مسألة القياس، فهو يمثل مدرسة القياس في الدين ويبيّن له الخطأ في هذا النهج وأن أول من قاس هو إبليس.

وكذلك مع مالك بن أنس صاحب مدرسة الحديث، فكان الإمام الصادق له علاقة وثيقة معه واحترام، وهناك رواية ينقلها الشيعة والسنة، ويرويها الشيخ الصدوق والمفيد: «قال محمد بن زياد الأزدي عن مالك: أدخل على الإمام الصادق عليه السلام وكنت أختلف زماناً عليه فيقدم لي مسنداً أو وسادة (كعنوان للاحترام والتقدير) فكنت أسرُّ بذلك، مع العلم أن مالكا هو أصغر سنًا من الإمام عليه السلام، فأحمد الله، ويقول وهو يصف الصادق عليه السلام: إنه لا يخلو من ثلاث إما صائماً أو قائماً، ويكثر من الحديث وكثير الفوائد»، ويقول أيضاً: «ما رأيت عين وسمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد فضلاً علماً وورعاً».

٥- معرفة الآراء الأخرى، فالإمام عليه السلام يفتي حسب الآراء الأخرى مما يتطلب أفقاً واسعاً وسعة صدر، فكان الإمام عليه السلام مطلعاً على كل الآراء والمذاهب، ولا يجد حرجاً بأن يفتي بذلك ويوصي أصحابه وأتباعه كذلك.

٦- توجيه الشيعة للاندماج في جمهور الأمة، فالإمام يأمر أتباعه بالاندماج مع وجود الاختلاف. روى زيد الشحام عن الصادق عليه السلام وهو يقول: «يا يزيد خالطوا الناس وصلوا في مساجدهم وعودوا مرضاهم واشهدوا جنازتهم...»، وعن أبان بن تغلب: «جالس أهل المدينة، فإني أحب أن يروا في شيعتنا مثلك»^(١). فالإمام عليه السلام يحذرنا من نهج الانطواء والانغلاق، ويؤكد على نهج الانفتاح والحوار والاطلاع على أفكار وآراء الآخرين، لكن من المؤسف أن هذا التوجه أي الانغلاق يكون في المذهب

(١) رجال الكشي - إختيار معرفة الرجال، ص ٣٣٠.

الواحد وأقصد مذهبنا حيث يأمر البعض أتباعه بعدم التواصل والانفتاح على أتباع المرجع الآخر، وهو من المذهب نفسه، فهذا يخالف نهج أهل البيت عليه السلام، ويعمل على العكس، فأى عقلية هذه؟! ولا يقوم بذلك إما بسبب سوء فهم الدين أو مريض نفسياً. والمتشددون لا يكتفون بالانغلاق والانطواء، بل يحاربون حالة الانفتاح، ويشككون في العلماء المنفتحين على الآخرين.

نماذج من سيرة أهل البيت عليه السلام مع المناوئين والمخالفين

١- الإمام الحسن المجتبي عليه السلام:

دخل رجل المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وآله فوجد رجلاً يركب فرسه عليه هية ووقار وحوله كوكبة من أصحابه يحيطونه من كل جانب وهم طوع إشارته، استغرب الشامي وتعجب في أن يكون في الدنيا رجلاً له المهابة من الهالة والتعظيم أكثر من معاوية في الشام فسأل عن الرجل، ف قيل له إنه الحسن بن علي بن أبي طالب، قال هذا هو ابن أبي تراب الخارجي؟ ثم أولغ سباً وشتماً في الحسن وأبيه وأهل بيته، فشهّر أصحاب الإمام الحسن عليه السلام سيوفهم كل يريد قتله، فمنعهم الإمام عليه السلام ونزل عن جواده فرحّب به ولاطفه قائلاً: يبدو أنك غريب عن هذه الديار يا أبا العرب، قال الشامي نعم أنا من أهل الشام من شيعة أمير المؤمنين وسيد المسلمين معاوية بن أبي سفيان، فرحّب به الإمام من جديد وقال له: أنت من ضيوفي، وامتنع الشامي، ولكن الإمام لم يتركه حتّى قَبِلَ النزول عنده، وبقي الإمام يخدمه بنفسه طيلة أيام الضيافة ويلاطفه، فلما كان اليوم الرابع بدأ على الشامي الندم والتوبة مما صدر منه، وكيف يقابل الإحسان فطلب من الإمام

أن يقبل عذره ويسامحه، وقال: كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحب خلق إليّ...»^(١)، ثم جرى الحوار الطويل بينهما في شتى الأمور.

٢- الإمام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة النعمان:

حدثت لقاءات كثيرة مع الإمام عليه السلام وأبي حنيفة النعمان، ومنها أنه دخل يوماً في بيته وتحدث معه في مسائل كثيرة في باب الفقه، فوجّه الإمام الصادق عليه السلام أسئلة خرجة تتعلق بالقياس في الدين، وأظهر له أن القياس ليس صحيحاً في استنباط الأحكام الشرعية، وأن أول من قاس هو إبليس، ومن هذه الأسئلة أيهم أعظم وأشد القتل أم الزنا؟ فقال أبو حنيفة: قتل النفس المحترمة، قال الإمام عليه السلام: إن الله قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة شهود! ثم قال له أيضاً: أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال الصلاة، قال الإمام عليه السلام: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فكيف -ويحك- يقوم لك قياس، فاتق الله ولا تقس الدين برأيك.

٣- الإمام الكاظم عليه السلام والنواصب:

فقد رووا «أن شخصاً من أحفاد عمر بن الخطاب كان يسيء للإمام الكاظم عليه السلام ويكيل السب والشتم لجده أمير المؤمنين عليه السلام فأراد بعض شيعة الإمام اغتياله فنهاهم عن ذلك ورأى أن يعالجه (أن يهديه) بغير ذلك، فسأل عن مكانه فقيل: أنه يزرع في بعض نواحي المدينة، فركب عليه السلام بغلته ومضى إليه متنكراً فوجده في مزرعته فأقبل نحوه، فصاح به: لا تطأ زرعنا واستمر الإمام حتى وصل إليه، ولما انتهى إليه جلس إلى جنبه وأخذ يلاطفه

(١) العوالم (الإمام الحسن) ٤٣ / ١٢١ نقلاً عن المناقب ٣ / ٣٥٢.

ويحدثه بأطيب الكلام والحديث، وقال له بلطف ولين: كم غرمت في زرعك هذا؟

فرد وقال: مائة دينار.

ثم سأله الإمام ثانية كم ترجو أن تصيب منه؟

فرد: أنا لا أعلم الغيب.

فقال الإمام عليه السلام: إنما قلت لك كم ترجو أن يجيئك منه؟

قال: مئتا دينار. فأعطاه الإمام عليه السلام ثلاث مئة دينار، وقال: هذه لك وزرعك على حاله فتغير العمري، وخجل من نفسه على ما فرط من قبل في حق الإمام عليه السلام، وتركه الإمام ومضى إلى الجامع النبوي فوجد العمري قد سبقه، فلما رأى الإمام عليه السلام مُقبلاً قام إليه تكريماً وانطلق يهتف: «اللَّهُ يعلم حيث يضع رسالته» فيمن يشاء، فبادر إليه أصحابه منكرين عليه هذا الانقلاب، فأخذ يخاصمهم ويتلو عليهم مناقب الإمام ومآثره ويدعو له، فالتفت الإمام عليه السلام إلى أصحابه قائلاً: أيهما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار؟^(١).

٤- الإمام الجواد عليه السلام:

كثر الحوار في عهد الإمام الجواد عليه السلام في ظل حكم المأمون العباسي وأخيه المعتصم، حيث كان المأمون يعظمه ويحترمه في الظاهر لغزارة علمه

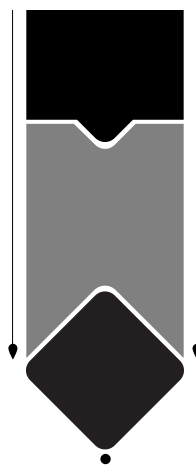
(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٨، والإرشاد وعنه في إعلام الوری ٢ / ٢٦ وكشف الغمة ومختصر في مناقب آل أبي طالب ٤ / ٣٤٤.

ومكانته، بالرغم من صغر سنه، فكان يقربه إليه، حتى زوجته ابنته أم الفضل، مما عارضه بنو العباس في ذلك، لصغر سنه وكذلك خوفاً من قربته من الأسرة الحاكمة واطلاعه على الأسرار، لكن أراد المأمون احتواءه وفرض الرقابة عليه، ومن جهة أخرى كان المأمون يكثر من عقد الندوات والحوارات والمؤتمرات العالمية بحضور علماء أهل الكتاب والأديان من أجل تحجيمه وإقحامه، لكن الإمام عليه السلام أثبت له ولهم بأنه عالي الكعب ولا يقارن بأحد، بل إن الإمام عليه السلام يخبرهم بما عندهم من علم وأثر ويجيب عن مسائلهم، لكنه أيضاً لا يسيء لأحد منهم، فقد كان يظهر الاحترام ويقدرهم. عكس أخيه المعتصم الذي كان شديداً وقاسياً على الإمام، فهو جاهل وأحمق.

«ينقل المؤرخون عن زرقان صاحب ابن أبي داؤود قاضي المعتصم قوله: «رجع ابن أبي داؤود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتم فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أني قدمت منذ عشرين سنة، قال: قلت له: ولم ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبي جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين، قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي فسألناه عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟ قال: فقلت من الكرسوع (الزند)، وما الحجة في ذلك؟ قال: قلت لأنَّ اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع، لقول الله في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، واتفق معي ذلك قوم. وقال آخرون، بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأنَّ الله لما قال ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، في الغسل دلَّ ذلك على أن حدَّ اليد هو المرفق. قال: فالتفت

المعتصم إلى محمد بن علي عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني مما تكلموا به، أي شيء عندك؟ قال الإمام عليه السلام: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه. فقال: أما إذا أقسمت عليّ بالله إني أقول: أنهم أخطأوا في السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف، قال المعتصم: وما الحجة في ذلك؟ قال الإمام عليه السلام: قول رسول الله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكر سوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، يعني بهذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، وما كان لله لم يقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الزند أو الكف^(١).

(١) بحار الانوار أنوار ٥٠ / ٧٠٥.



الحوار في مسيرة العلماء والقادة والمصلحين

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١)، وعن أبي عبد الله عليه السلام «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢)، مما يعني أنهم يحملون هم الرسالة والدين ويسعون لتبليغها للناس، ولذلك كل ما كان العالم قائداً ومصلحاً لا يمكن إلا أن يكون اجتماعياً ومنفتحاً على الناس ويُجيد الحديث والكلام مع الناس ويهتم بقضية الحوار والتواصل والانفتاح، وهذا ينطبق على العلماء الذي يسرون على خط أهل البيت عليهم السلام بالخصوص اقتداءً بأئمتهم ولأنهم يحملون أهدافهم، ويجسّدون سيرتهم، اعتقاداً منهم بأنهم يمثلون الخط الأصيل والمبادئ الحقّة والأخلاق الحسنة. ومما يميزهم أيضاً استنادهم على الإرث العلمي الغزير والفقه الواسع والنيّر، وكذلك الثقافة الإنسانية والمنطلقات الحضارية، لأنّ مذهب أهل البيت عليهم السلام هو الامتداد الطبيعي لرسالة الإسلام والقرآن والسيرة النبوية.

نعم، لا بُدَّ من الإقرار والاعتراف بأن إقصاء أهل البيت عليهم السلام في

(١) سورة الأحزاب: ٣٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٢ - ص ٩٣.

حياتهم كان له تأثير على مسيرتهم ومسيرة العلماء من بعدهم، مما اضطر العلماء إلى العزلة في فترات طويلة، وعملوا أحياناً بمبدأ التقية نتيجة الضغوطات والمضايقات والملاحقات أحياناً، فالظروف بشكل عام لم تكن في مصلحتهم ولم تخدمهم حتى يقوموا بواجباتهم الكاملة ليس تقصيراً منهم، بل بسبب سياسات الإقصاء المستمرة في كل زمان ومكان، لأنهم المذهب الوحيد الذي يقف في وجه الباطل وسياسات الجور والاستبداد.

وكان لهذه المواقف ضريبة أخرى ليس الإقصاء فقط، وإنما عزلهم عن جماهير الأمة، ونخبها ومثقفها، ومع ذلك كانت هناك محاولات لإيجاد السبل للتواصل خصوصاً مع العلماء من المذاهب الأخرى، وإن كانت متواضعة، للأسباب المذكورة، وعدم وجود وسائل التواصل الاجتماعي المتحضرة، مثل ما هو موجود في عصرنا الحاضر، كما أن العزلة في الماضي، تسببت في عدم بلورة الفكر والثقافة والوعي بالجوانب الحضارية، فكان الانكفاء والاهتمام بالجانب الفقهي والطابع الحوزوي هو السائد والغالب، والذي يستقطب الاهتمام الكامل، وانعكس ذلك أيضاً على جماهير الأمة وخصوصاً أتباع أهل البيت عليه السلام والموالين، فلم تكن الثقافة والأخلاق والبعد الاجتماعي محل اهتمام وتركيز، بل كان هناك تهميش شبه متعمد في فترات طويلة، وهذا سبب كبير أدى إلى عدم الاندماج والتعايش المطلوب في الأوطان ومع الناس في ظل الاختلافات الدينية والسياسية.

ولا شكّ هذا خطأ كبير أدى أيضاً إلى تعميق الهوة وتكريس الحواجز النفسية والاجتماعية مع الآخرين بالخصوص مع المسلمين، في كل البلاد الإسلامية، ولذلك بسبب هذه القطيعة والعزلة والإقصاء أثرت نفسياً، ومن

جهة أخرى انتشرت وتوسّعت تلك المذاهب الأخرى وكرّست مناهجها وثقافتها لتصبح هي المسيطرة، ونتيجة لذلك كان التشدّد والتعصّب في الدّين كرّس عوامل التفرقة والصّراعات مثل سياسة التكفير، والاختلافات وتمزيق وحدة الأمة، وما زالت الأمة الإسلامية تكتوي من آثار هذه الممارسات والسلوكيات والأفكار الهدامة التي جنت فيها على البشرية والحضارة الإسلامية، فكان التخلف سمة عامة لهذه الأمة والمجتمعات، وفقدان أهم عنصر أساسي وحيوي في حياتها ودورها الريادي وهو الانفتاح والتواصل والحوار الذي أكّد عليه القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

واليوم، وفي العصر الحاضر، ومع وجود التحولات على كل الصّعد، وفي ظل الانفتاح والتطوّر في وسائل التواصل، تبرز قضية ومبدأ الحوار والتواصل الاجتماعي والانفتاح في مقدمة المهام والأوليات والمسؤوليات، فسياسة الإقصاء والرقابة والحصار والتكميم لا يمكن أن تجدي نفعاً، ولا يمكن أن تحوّل من تحقيق هذا الهدف، سواء على مستوى الأمة من علمائها أو أبنائها ومذاهبها، وعلى الصعيد الحضاري ليشمل شعوب العالم، ولا بدّ من وضع الخطط والإستراتيجيات والأفكار الجادة لتحقيق التحوّل والتأثير المأمول، ونقول بكل وضوح: هذه الفرصة، في ظل المعطيات والتحولات، لمذهب أهل البيت عليه السلام وأتباعه أن يقوموا بدورهم المطلوب والإيجابي كي يستعيدوا دورهم ومكانته، ويقتدوا بأئمتهم، ويحققوا تطلعاتهم

(١) سورة الحجرات: ١٣.

المشروعة، ولا يتسنى لنا ذلك إلا من خلال مهمات واهتمامات، وهنا نحتاج إلى التأكيد على أمور:

١ - الاهتمام بالقراءة والاطلاع:

فالانتماء إلى مدرسة وجامعة أهل البيت عليه السلام لا يمكن أن تقبل أن يتفشى فيها الجهل والأمية والاهتمامات القشرية، أو الالتزام بالدين من دون فقه وفهم، ففي الرواية للإمام الصادق عليه السلام: «لَسْتُ أَحِبُّ أَنْ أَرَى الشَّابَّ مِنْكُمْ إِلَّا غَادِيًا فِي حَالَيْنِ: إِمَّا عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَرَطَ وَضِيعَ، فَإِنْ ضِيعَ أَثِمَ، فَإِنْ أَثِمَ سَكَنَ النَّارَ وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ»^(١)، ويقول الإمام الكاظم عليه السلام: «لَوْ وَجَدْتُ شَابًّا مِنْ شُبَّانِ الشَّيْعَةِ لَا يَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ»^(٢)، والروايات في هذا المجال لا تكاد تنحصر.

٢ - الاندماج والانفتاح في المجتمعات والأوطان:

فالعزلة ليس لها مبرر، والمطلوب هو التعايش مع الناس، من أجل التعريف بالمذهب، وكذلك تحقيق بنية سليمة في العلاقات والتعامل الحياتي، فليس المطلوب الاتفاق في الأفكار والدين والمذهب، فقد يحصل وقد لا يحصل، لكن لا يكون ذلك مانعاً من التواصل الإنساني والإيماني، لأن الاختلاف أمرٌ طبيعيٌّ في الحياة وحتى بين الاثنين وفي الأسرة الواحدة وفي المجتمع الواحد، بل في المذهب الواحد، فالاختلاف لا ينبغي أن يؤدي إلى القطيعة، خصوصاً مع الأرحام وأهل الإيمان. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ

(١) أمالي الطوسي ٣٠٣ / ٦٠٤.

(٢) المحاسن ١ / ٣٥٧ / ٧٦٠.

رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾، فالقطيعة محرمة عقلاً وشرعاً وأخلاقاً، حتّى مع الكافر. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ ﴿٣﴾.

ومن المؤسف أن هناك من يضع العراقيل والحواجز النفسية والاجتماعية في ظل الخلافات، حتّى لو كانت فقهية التي تعتمد على الاجتهادات، حتّى وجدنا البعض من أهل الصنف أي من طلبة العلوم الدّينية يقوم بهذا الدور السلبي بحيث يأمر مريديه إلى عدم التواصل والانفتاح على الآخر وفي المذهب نفسه، ويضع عليهم حصاراً ومراقبة ومساءلة وتحقيقاً، ولا أدري أهو خوف من النجاسة أم من الخروج الدّين؟ فهل يعقل هذا الأمر أن يصدر من متعلّم ومن خريجي الحوزة العلمية؟ «فهذا في الحقيقة إما جاهل بالدّين أو مريض نفسي» على حدّ تعبير المفكر الشيخ حسن الصفار.

إن هذا السلوك والثقافة لا يمتّ إلى الدين بصلة وتتعارض مع نهج أهل البيت عليه السلام ومع المصلحين. والأعظم والأدهى بأن يقوم هذا البعض بالتعبئة المستمرة لأتباعه بالتحريض على الآخرين، ويكيل لهم الشتائم والسباب، ولا يبعد التشكيك في دينهم والتزامهم وتكفيرهم، والطعن في شرفهم، لأنهم لا يقلدون المرجع الذي يقلده، حتّى وجدنا البعض من تأثر بذلك لا يظهر الاحترام والسّلام، بل يلقاك عابساً، ولهذا نجد المجتمع

(١) سورة هود: ١١٨.

(٢) سورة النحل: ٩٣.

(٣) سورة النساء: ١.

وبالخصوص في الأوساط الدينية والمتدينين متأزماً، فهل هذه ثقافة القرآن والإسلام ومنهج أهل البيت عليه السلام، الذين يحثون أتباعهم ومواليهم بالتواصل والانفتاح والأخلاق مع الجميع، وليس فقط اتباع المذهب. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الْحَسَنُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ، وَإِنَّهُ مِنْكَ أَحْسَنُ لِمَكَانِكَ مِنَّا، وَإِنَّ الْقَبِيحَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ وَإِنَّهُ مِنْكَ أَقْبَحُ»^(١)، إذا هذه السلوك والتصرف والمواقف غير مقبولة إطلاقاً، ويجب الوقوف ضدها وكشفها، وأن يتسلح المجتمع بالوعي الكافي، ولا يعيش التقديس والصنمية بحيث يسمع ويقبل كل ما قيل له، ويتعارض مع المبادئ، والنهج الأصيل لأهل البيت عليه السلام.

٣- الانفتاح والتواصل والحوار:

إن تحصين أبناء الأمة أو اتباع أي مذهب من التأثير على كل المستويات لا يكون بالعزلة أو التخويف أو التخوين للآخرين. كلاً، فهذا مؤشر على الضعف وعدم الثقة أو وجود مصالح ومنافع ذاتية أو حزبية وفئوية، كما أنه يفتح المجال للمناوئين لإعطاء صورة سلبية ويقال فيهم ما يقال. ونجد في هذه الرواية عن عبد السلام الهروي قال سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا، فَقُلْتُ لَهُ: فَكَيْفَ يُحْيِي أَمْرَكُمْ؟ قَالَ: يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ، فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَا تَبْعُونَا»^(٢)، فهذه الرواية واضحة المقاصد، وهي موجهة بالخصوص للعلماء وطلبة العلوم الدينية الذين يهتمون بتبليغ الدين وأحكامه وتحديد وظائفهم وهي:

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٤٧ - ص ٣٥٠.

(٢) بحار الأنوار ج ٢ ص ٣٠.

١- الاهتمام بالتحصيل:

لأحكام الدين وتعاليمه والاطلاع الواسع، من خلال مدرسة أهل البيت عليه السلام، فكرًا وعقيدةً وأخلاقًا وفقهاً، والاطلاع كذلك على عقائد وآراء الآخرين، بحيث يعكس ويلتزم بالنهج السوي، وليس حفظًا ورواية دون تفقه أو تأمل وتدبر، فالعلم هو التفقه ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١)، فهل هذا يتفق ويتلاءم مع تلك السلوكيات والتعبئة والتوجهات المتشددة؟ وهل من شأن ذلك إحياء الدين والأمر؟ وهل هذا له علاقة بقضايا الأمة والمجتمع التي تحتاج إلى اليقظة والتنبيه والحد من الانحرافات وتبني الإصلاحات؟ إن سياسة الانغلاق وتلك السلوكيات السلبية هي سبب وإضافة إلى المشكلات والأزمات، والناس يتوقعون من عالم الدين أن يكون في مستوى المسؤولية والقُدوة وليس معول هدم.

٢- تعليم الناس:

أي بث تلك العلوم والمبادئ إلى الناس، فهذه هو الطريق لتحسين الناس بالثقافة والفكر والأخلاق، خصوصًا في ظل الانفتاح والغزو الثقافي والانحطاط الأخلاقي. أما التركيز على الخلافات وتعبئة الناس، فهذا منحى خطير ووظيفة بعيدة عن الشعور بالمسؤولية. إن بناء الإنسان لا يكون إلا بالبناء الفكري الصحيح، وليس بالممارسات والطقوس الدينية أو المظاهر،

(١) سورة التوبة: ١٢٢.

وهذه مسؤولية كبرى تقع على عالم الدين وطلبة العلوم، بأن يحملوا همَّ الدين وتبليغه للناس، ونشر الثقافة الحياتية الصحيحة، كي يدرك النَّاس واجبهم ومسؤوليتهم اتجاه دينهم وأنفسهم وحياة أمتهم. إنَّ من أسباب انحراف النَّاس بالدرجة الأولى عدم استيعاب هذه الثقافة الدينية خصوصاً التي تثل منهج أهل البيت، أو عدم وجود القدوة الذي يمثل الالتزام بذلك، ولذلك تؤكد الرواية على محاسن كلام أهل البيت عليهم السلام، فما هي هذه المحاسن؟

الجواب: محاسن كلام أهل البيت هي تلك المبادئ الإنسانية والإيمانية والأخلاقية، والتي تعبّر عن نهج الإسلام والقرآن، وكل كلام يتعارض مع مفاهيم الإسلام والقرآن، هو مخالف بالضرورة لكلام وتعاليم أهل البيت، فهل أهل البيت عليهم السلام يدعون إلى العزلة أو إلى تمزيق الأمة أو إلى تكريس الخلافات والاختلافات؟ أم أنهم يسعون إلى بناء الإنسان أولاً بالعلم والثقافة والأخلاق، وكذلك بناء المجتمع بالقيم والإصلاح، وبناء الأمة على أساس المبادئ الإسلامية، والحضارة، لكن من أي منطلق؟

لا شك أن منهج أهل البيت عليهم السلام يسعى لتحقيق ذلك عبر الحوار والتسامح والتواصل الاجتماعي، والانفتاح على كل الاتجاهات والمذاهب والأديان، ويحاور الأفكار والنظريات، ولكن في ظل الأخلاق والاحترام والتقدير والآداب، ولو قرأنا واطلعنا على تجاربهم والتزمنا بطريقتهم واقتدينا بسلوكهم لتجاوزنا الكثير من السلبيات وواجهنا التحديات والعراقيل.

ومن المؤسف أن نجد مجتمعاتنا ومن يرفعون شعار المحبة والولاء

والطاعة لأهل البيت وقيمون الشعائر الخاصة بهم لكن لا نجد ذلك التطبيق الصحيح، بل نجد بعض من يحملون علم أهل البيت عليه السلام في الواقع يسيئون للمذهب بتصرفاتهم وتشددهم وتكريس الفتن والفوارق حتى على مستوى المذهب الواحد، تحت قضايا لا تمت بالدين، مثل اختلاف التقليد، بل نجد من يطعن في العلماء ويسعى لتحطيم شخصياتهم وإسقاطهم في المجتمع، ويصدر ضدهم الاتهامات ويحكم عليهم بالضلال والإضلال، ولو فتح هذا الباب والحديث عن ذلك لخرجنا عن موضوعنا وهدفنا من هذا الكتاب، فهل هذه الأخلاقيات والسلوكيات تبرز محاسن كلام أهل البيت عليه السلام؟ وأين هو الحوار والتواصل مع من نعتقد انهم على خطأ وضلال؟

وهذه دعوة إلى العلماء وطلبة العلوم وهم الوسطة في تبليغ الدين وكذلك نشر تعاليم أهل البيت، أن يتمثلوا بهذه الرواية التي تؤكد على إحياء أمرهم، وهو إحياء مفاهيم الدين الصحيحة، من خلال:

أ- القراءة الواعية:

لسيرتهم ومواقفهم وبالخصوص أقوالهم والتي تصبُّ في مصلحة الدين وحياة النَّاس، بما يكفل سعادتهم وتقدمهم في كل الظروف، وأن يكونوا فاعلين في هذه الحياة، وأن يفتحوا على الآخرين مهما كانت الخلافات، فكيف تكون المعاملة والعلاقة مع الموالين وفي المذهب الواحد؟ والخلاصة أن يكون العلماء في مستوى القدوة والمسؤولية، أو بنشر وبث العلوم الصحيحة. يقول الإمام علي عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل

الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»^(١)، وفي الرواية «حَدِيثُ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ تَرَوِيهِ»^(٢)، و(تَدْرِيهِ) بالفتح، والدَّرَاية هو العلم المانع من النقيض، ولذلك يستعمل في القضايا المهمة والعظيمة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

روى الكشي فقال: قال الصادق عليه السلام: «اعرف منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من روايتهم عنّا، فإنّا لا نعد الفقيه منهم فقيهاً حتّى يكون محدثاً، فقليل له: أو يكون المؤمن محدثاً؟ قال: يكون مفهّماً، والمفهم المحدث»^(٣)، ولا بُدّ أن نفرق بين العلم والفهم. كما قال تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾^(٤).

تبليغ الدين وظيفة لا يمكن أن تقارن بوظيفة أخرى، كما أن رجل الدين له مكانة في المجتمع وتأثير، لكن حينما يمارس الدور السلبي ويدعو الناس إلى الانطواء، ويعتبر نفسه هو المبلغ وصاحب الحق، ويعتبر أن وظيفته الأساسية هو التأثير وبث هذه الخزعات في المجتمع، ويحذر الناس من العلماء الآخرين ممن يتبنون فكر وثقافة أهل البيت عليهم السلام، فهذا يحتاج إلى علاج في الأساس وتوجيه وتحذير قبل غيره، وتنبيه من أساتذته ومرجعياته من بث هذه السموم، التي تعكّر صفو الأجواء، وتشغلهم عن مهامهم وأولياتهم، كما يقول الشاعر أبو الأسود الدؤلي:

(١) نهج البلاغة الحكمة ٤٧٨، خصائص الأئمة ١٢٥، تنبيه الخواطر ١٥/٢، غرر الحكم ٩٦٥٠.

(٢) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق ص ٢.

(٣) وسائل الشيعة الحر العاملي ج ٢٧ ص ١٤٩.

(٤) سورة التوبة ١٢٢.

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيره هَلَّا لِنَفْسِكَ كانَ ذا التعلِّمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لذي السِّقَامِ كيما يَصِحُّ به وأنتَ سقيمٌ
لا تنهى عن فعلٍ وتأتي مثله عارٌّ عليك إذا فعلتَ عظيمٌ

ب- الرهان على وعي المجتمع:

يجب على المجتمع والنَّاس بشكل عام أن يتسلح بالوعي لمثل هذه الأفكار والسلوكيات التي تؤرق المجتمع، وتنفر النَّاس عن مراكز التوجيه، ولا بُدَّ من التمييز والتحقيق، فهؤلاء المرضى قلة، لأنَّ من يتبع منهج أهل البيت عليه السلام لا يمكن ألاَّ يقتديَ بهم ويستنير بنور علومهم، كما يقول الإمام علي عليه السلام «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ»^(١)، فهؤلاء القلة تعتبر حالة استثنائية، وقد تكون ردة فعل لظروفهم، أو استجابة لإملاءات فوقية، والخلاصة هو تعبير عن انتكاسة في هذا الطريق وكذلك عدم شعور بالمسؤولية.

وعلى المجتمع الواعي الحذر والبعد عن هذه الشخصيات، وكشف حقائقهم مهما تلبسوا بزي الدين، لأنهم يمثلون انحرافاً واعوجاجاً عن الخط الأصيل لأهل البيت عليه السلام؛ بسبب بُعدهم عن مفاهيم الإسلام وثقافة أهل البيت وأخلاقيتها التي تعتبر ركيزة أساسية في الالتزام الصحيح وحركة المجتمع وتطلعه إلى البناء، والإصلاح، والتنمية، والتقدم. كما ينبغي الالتفاف حول العلماء الرساليين والقادة المصلحين، الذين يقودون المجتمع إلى عوامل التقدم والبناء، وهم معروفون باهتماماتهم ونشاطهم وحضورهم

(١) نهج البلاغة، ص ٤١٧.

الاجتماعي، وتركيزهم على القضايا التي تهم المجتمع دينياً وحياتياً وحضارياً، ومن المهم أيضاً الاطلاع على مؤلفاتهم وأفكارهم ودعواتهم لكل ما ينفع الناس، ويحذرون الناس من الانحرافات أو المشكلات التي تعيق حركة الإنسان والمجتمع على حد سواء.

٣- التعاون الفعلي في تحقيق وتعزيز الثقة:

من أجل تحقيق التأثير الإيجابي على مستوى الحوار أو المستوى الحياتي والمؤسسي وكذلك التعايش والسلم الأهلي والتسامح؛ لا بُدَّ من تفعيل طاقات وإمكانات المجتمع ليصبح خلية واحدة، بعيدة عن الخلافات والتشنجات، فلا نكتفي بالشعارات أو التنظير، إنما يجب بناء الواقع وتشيد اللحمة الوطنية، وهذا يتطلب التفكير على هذا المستوى، وكذلك المبادرة، من هنا نجد أهل البيت عليه السلام يوصون أتباعهم بحضور مجالس غيرهم، ويحضرون جنازتهم والصلاة معهم والمشاركة في أفراحهم؛ مما يدل على أهمية الانفتاح وتجسيد الشعارات في صناعة الواقع والمجتمع، بل إن هذه الالتزامات التي ترتبط بشعارات الدين تفتح لنا المجال للتعاون المشترك بقية الأمور والمهام والوظائف من باب أولى.

إن الاختلاط بالناس والحضور في أوساطهم يعزز الثقة والانتماء للامة والوطن، كما أنه يبدد الأوهام والهواجس التي تترتب على العزلة والمخاوف والانطواء، ففي الرواية «خالطوا الناس مخالطة إن متم بكوا عليكم وإن غبتم حنوا إليكم»^(١)، وينبغي أن تكون هذه الصلات بين كل الجهات الاجتماعية

(١) نهج البلاغة حكمة رقم ١٠ / ميزان الحكمة، ج ٣ ص ١٩٧٦.

وكذلك تكون ثقافة عامة، بمعنى أن نربي أبناءنا وأجيالنا على هذا النحو، وإذا كانت هناك خلافات في الدين وغيره فإن الطريق والعلاج هو التفاهم والحوار، وليس الانغماس واجترار الخلافات من الماضي، فتلك حقبة لها ظروفها، ولا نُسأل عنها، إنما نحن مسؤولون عن واقعنا ومستقبلنا، ونستخلص العبر. قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، والقرآن نفسه يأمرنا بالتعاون البناء، الذي يتوقف عليه بناء المجتمع والوطن. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

ولا بُدَّ من التفكير في إيجاد المؤسسات والمراكز المختلفة التي تجمع بين أطراف المجتمع والوطن الواحد، لتعزيز الثقة كما أشرنا ولتحول العلاقات إلى جسور للبناء والتعاون على كافة المجالات والأصعدة، ولتكون النظرة الإيجابية للآخرين، هي الأساسية التي تحمل بشائر الخير والسلام والاستقرار، وبذلك نستطيع أن نضع الحلول لكل المشكلات، والصّراعات الجانبية، وتجاوز الأزمات والظروف، مهما كانت حتى في الشأن السياسي، أي يجب ألا تفرقنا السياسات بل تعزز وحدتنا وتظافرنا، ليكون المجتمع متجانسًا مع بعضه بعضًا، وليس متكلفًا، تجمعهم قيم مشتركة ومصالح متبادلة. إن الارتقاء إلى هذا المستوى وإن كان صعبًا في بداية أي مشوار لكن ليس مستحيلًا أو مستعصيًا خصوصًا إذا كان هناك عقل وتفكير جمعي

(١) سورة البقرة: ١٤١.

(٢) سورة المائدة: ٢.

وإحساس بالمخاطر والشعور بالمسؤولية والسعي لتحقيق رضا الله وأهداف الدين الإسلامي وهوية الأمة.

ومن جهة أخرى يجب أن نقدّم أنفسنا للآخرين بصورة حسنة من خلال بناء الكفاءات الوطنية في كل المجالات، من الناحية العلمية والمهنية وكل التخصصات، وهو ما يعكس حقيقة الانتماء لمدرسة أهل البيت عليه السلام وعراقتها وبعدها الحضاري، فإثبات الوجود في ظلّ التعدد المذهبي والخلافات لا يتم عبر الجدالات والنقاشات الحادة، إنما بالتفاهم والحوار وحُسن المعاملة وبناء الكفاءات، كما أخبرنا القرآن الكريم عن النبي يوسف عليه السلام، مع العلم أنّ المجتمع الذي كان يعيش فيه كافرًا، لكن شعوره بالمسؤولية ودوره في البناء والإصلاح وتطلعه إلى المستقبل ساهم في تحقيق الهدف والبناء. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^(١).

٤- التربية على الحوار ^(٢):

لا بُدَّ أن تحتوي مناهجنا خصوصًا الدينية بقضية الحوار والانفتاح

(١) سورة يوسف: ٥٤ - ٥٦.

(٢) عنوان كتاب (التربية على الحرية) للكاتب والمفكر الشيخ محمد جاسم المحفوظ، من مواليد المملكة العربية السعودية المنطقة الشرقية عام ١٩٦٦م، كاتب أسبوعي في جريدة الرياض السعودية، ومدير تحرير مجلة الكلمة (مجلة فكرية تُعنى بشؤون الفكر الإسلامي وقضايا العصر، ومدير مركز آفاق للدراسات والبحوث وله مؤلفات عديدة منها:

والتواصل مع الآخرين، والاطلاع على مناهجهم وأفكارهم، وبالفقه الذي يلتزمون به، فالحوار مهمة ضرورية لتوسيع دائرة الاهتمامات وتحقيق المعرفة، فليس من الضروري أن ينحصر العالم في بلده ووطنه، فإذا توقفت المصلحة على السفر أو الهجرة لتبليغ الرسالة فلا بُدَّ من الاستجابة، فهذه فضيلة عظيمة، لا يحظى بها كل أحد، ومن الخطأ أن يعتكف طالب العلم سنوات طويلة دون أن يفتح ويجالس الناس. نعم، قد يكون نافعاً بالخصوص لمن يتطلع إلى الاجتهاد والمرجعية، التي تتطلب التفرغ، لكن بشكل عام علينا أن نحمل هذا الهاجس، فأرض الله واسعة، وكثير من الناس في هذا العالم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، وهم يتلهفون لسماع أو مناقشة أو حوار مع أهل الدين من العلماء، من هنا نؤكد على أمور أساسية:

١- بناء الكفاءات العلمية في ظل الحوزات والمراكز الدينية، ولا يكتفي الطالب بدراسة المناهج العلمية المعروفة دون أن يحقق أهلية في التبليغ والحوار.

٢- وفي ظل الاهتمام بالكفاءات الاهتمام باللغات، ففي ظل الانفتاح والتواصل عبر وسائل التواصل الاجتماعي نحتاج إلى تعلم اللغات من أجل

١- الإسلام والغرب وحوار المستقبل (المركز الثقافي العربي، بيروت).

٢- (الأهل والدولة بيان من أجل السلم المجتمعي)، دار الصفوة.

٣- الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت.

٤- الأمة والدولة من القطيعة إلى المصالحة لبناء المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت.

٥- حوار الأديان وقضايا الحرية والمشاركة، دار مدار، بيروت.

هذه عينات من كتبه الثمينة.

التفاهم والخطاب والحوار مع كل الأجناس، فهذا هو السبيل لهدايتهم وتوجيههم إلى الحق والفضيلة، فتعلم اللُّغة ضروري في هذا العصر، خصوصًا لعالم الدين. وتزداد أهمية اللُّغة حسب انتشارها وتأثيرها في العالم والمحيط، وفي الحديث: «مَنْ عَرَفَ لُغَةَ قَوْمٍ أَمِنَ شَرَّهُمْ»، فهذا مفهوم ليس حصريًا، هو يمثل جانب، إنما اللغة هي وسيلة للتواصل والتعارف والتعامل في الأساس.

من هنا نحتاج أمام هذه المهمة الدينية والحضارية (وهي الحوار) إلى التربية في الأوساط العلمية بالخصوص، لأنه يعتبر مهارة اكتسابية، فالبعض قد يكون عالمًا حاذقًا ومطلعًا جيدًا لكنه لا يجيد لغة الحوار، والأسلوب الحسن، مما يفشل في توصيل الفكرة والإقناع، وكذلك الشعور بالضعف أمام الآخرين، ولذا المطلوب من النخبة الفكرية والعلمية والثقافية التربية على الحوار، ومع مختلف الأفكار والتوجهات، لا نكتفي بالشعور بأننا نمثل الحق، إنما كيف نثبت هذا الحق للآخرين، وهذا يتوقف على نضج التفكير والقدرة على الحوار، وفي الأخير من خلال الأدلة والأسلوب الحسن الراقي.

ومن المؤسف أن نجد البعض والمحسوبين على الحوزات الدينية يفتقدون إلى سعة الصدر فلا يتحملون مسائل الخلاف أو المناقشة، بل يمتعضون ويزجرون من يناقشهم، ويستحقرونه، حتَّى وجدنا البعض لا يسأل خوفًا من الإحراج. فتجب المبادرة والتشجيع للحوار مع النَّاس: «يا جابر قوام الدُّنيا على أربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، ...،

فإذا ضيَّع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم»^(١)، هذا هو الشاهد من الرواية.

٣- استغلال وسائل التواصل والإمكانات الهائلة من خلال الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وكذلك الأجهزة الذكية، بأن يكون لنا صولات وجولات، فالحديث مع النَّاس والوصول إليهم أصبح سهلاً ومتاحاً وبكل الوسائل المؤثرة بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، ومن خلال الكلام أو الصور والمشاهدات عبر الفيديوها، فالعلماء والمصلحون هم أولى وأجدر باستغلال ذلك لصالحهم ولصالح دينهم وأوطانهم، فالتجارب البشرية تثري العقول وتوسع الآفاق، ومن يجيد لغة التعامل مع هذه الوسائل لا شك سوف يحقق الكثير من الإنجازات والمهمات.

وعكس ذلك تمامًا من يغفل عن هذا الجانب يعتبر في لغة اليوم أميًا، لكن من المؤسف أصبح من يجيد هذه الوسائل في الأغلب هم الجهلة بالدين ومن يروجون إلى تلك المحتويات الهابطة والمنكرات، فهم من يملؤون المواقع والشاشات، ويسرقون أوقات الشباب من الجنسين، ويستخدمون شتى الوسائل لإغرائهم وتشتيت عقولهم، كما أن الفراغ من أهم أسباب هذا التأثير كما في الرواية «الْفَرَاغُ مَفْسَدَةٌ لِلْأَخْلَاقِ»، فما هو البديل؟

الجواب: هو استغلال هذه الوسائل في طرق الخير والهداية، وكذلك التأكيد على الحوار كمدخل في إقناع النَّاس وجذبهم، فهذه مسؤولية دينية

(١) نهج البلاغة خطب الإمام علي عليه السلام ج ٤ ص ٨٨.

وحضارية، أي الاهتمام بحياة النَّاس وليس الامتعاظ والاستهزاء والتحقير، فهذا لا ينفع ولا يحل المشكلات. كم المطلوب من القنوات الدِّينية والاجتماعية الاهتمام بهذه الجيل واستيعاب ظروفه واهتماماته وتطلعاته، بالتركيز على الثقافة الدينية الصحيحة ومن خلال مدرسة أهل البيت عليه السلام.

نماذج من سيرة العلماء في ظل الانفتاح والحوار

لا يخفى على أحد أهمية دراسة التاريخ في حياة الفرد والمجتمع، لأنَّ التاريخ يكشف تجارب كثيرة مرَّت بها الأجيال، خصوصاً إذا ما ارتبطت بأشخاص كان لهم دور كبير ومساهمات إيجابية وخيرة ومؤثرة عبر تجاربهم المختلفة، ولا نقصد بالتاريخ مجرد معلومات وإحصائيات، بل كل ما يرتبط بالقضايا الإنسانية والدِّين والأخلاق والمصير، وهذا ما عناه القرآن من أخذ العبرة من القصص التاريخية والتي تساهم في تحقيق الوعي وبناء الإنسان وتعزيز التقدم في مسيرة المجتمعات والأمم.

إن الوقوف على هذه التجارب والأبعاد يعد رصيذاً في مشوار حياة النَّاس، والاختيار السليم للرموز والشخصيات التي تركت بصمات في تقديم ما هو نافع وفيه مصلحة عامة مهمة ضرورية وأخلاقية وحضارية، وفي هذا الجانب حين نقف عند بعض هذه الشخصيات سواء من الماضي البعيد أو القريب أو الحاضر يعتبر مشعلاً، وتعزيزاً لإرادة الإنسان وبناء قدرات المجتمع وتوجيه طاقاته نحو الإصلاح واستشراف المستقبل. وعلى سبيل المثال نجد القرآن يذكر النَّاس بالرموز، فيقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا^(١)، كما يذكر مجموعة من الأنبياء وصفاتهم ودورهم، ثم يوجه الخطاب للرسول ﷺ فيقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ^(٢)﴾. إذًا، نحن بحاجة ماسة للوقوف عند هذه الرموز التي ساهمت وقدمت الكثير لحياتنا وضحت من أجل تحقيق الأهداف المرسومة، والاهتداء بسيرتهم، فهم يمثلون القدوة في الالتزام الديني والأخلاقي، وممارسة الوعي والعطاء، وهي تمثل نخبة وشريحة في هذا الطريق وأتباع منهج أهل البيت عليه السلام، وليس المقصود الحصر أو التقليل من شأن الآخرين، فهي نماذج وأمثلة ليس إلا.

كما ينبغي التأكيد بالخصوص على تلك الآثار والمعالم والإنجازات التي تركوها، والتي تشكل الهدى والإضاءة، حتى تتم الفائدة والمصلحة المرجوة، وكذلك التركيز على دورهم واهتمامهم وافتتاحهم على الآخرين ودعوتهم وتأكيدهم على الحوار، والتسامح في ظل الاختلافات والتناحر والتعصب الديني والمذهبي، الذي تسبب في تراجع وتخلف الأمة، وما زلنا نعاني من هذا التطرف، فالحوار في عصرنا الحاضر يكتسب أهمية قصوى خصوصًا حينما ينطلق من الخطاب الديني، فهو الخطوة الأساسية والضرورية في مواجهة التطرف والفتن التي تحدث بنا، وتشغل الناس عن حياتهم وأهدافهم ومستقبلهم. ناهيك عن أعدائهم الذين يتربصون بالأمة، فالله المستعان فيما نختار ونقدم من أجل الخير والصالح.

(١) سورة مريم: ١٦.

(٢) سورة الأنعام: ٩٠.

١- حسين بن روح بن أبي بحر النوبختي:

ويكنى بأبي القاسم، فهو أحد الصالحين الذي خلدهم التاريخ وملاً صفحاته بمواقفهم وأدوارهم في خدمة الإسلام، وهو السفير الثالث للإمام المهدي (عجل الله فرجه)، في زمن الغيبة الصغرى، (ت ٣٢٦هـ)، خلف فيها الشيخ أبا جعفر بن عثمان العمري، استمرت فترة نيابته حدود الإحدى والعشرين سنة، كان يحظى فيها باحترام الخاصة والعامة، فهو منحدر من أسرة عريقة من الأسر البغدادية العريقة، والتي انتقلت بداية فترة الحكم العباسي من بلاد فارس إلى بغداد، حيث مقر الخلافة العباسية.

كان أفراد هذه العائلة من المقربين إلى حكام البلاط العباسي، لما يمتلكونه من رصيد علمي في شتى العلوم ولعل كلمة (نوبخت) تعني الحظ بالفارسية، واشتهرت هذه الأسرة بعلم التنجيم والكلام، ولهم كتب في مجال الحوارات والمناظرات التي أقاموها ضد الخصوم، فقد اهتموا الكثير إلى مذهب أهل البيت عليه السلام بسببهم، فأول كتاب في الملل والنحل ألفه أبو محمد بن الحسن بن موسى النوبختي، وأسماه (فرق الشيعة)، فله مناظرات وتصانيف كثيرة مع المعتزلة ومع مدعي السفارة كالحلاج، ولهم ردود على بعض الفرق كالواقفية والغلاة.

وأقدم الكتب الكلامية للشيعة هو (كتاب الياقوت) لأبي إسحاق إبراهيم النوبختي، فكانت حياة أبي القاسم حافلة بالعباءة العلمي والعملية، فقد كان قبل سفارته من المقربين إلى السفير الثاني وعمل كاتباً عنده ووكيلاً عنه في إدارة الأموال وأملاكه، وتسلم السفارة عام (٣٠٥)، كما أنه سُجن

بسبب الأموال التي تأتيه من الحقوق ما يقارب خمس سنوات، ولم تكن تلك المحاولات من التضييق والتخفي مانعاً من التواصل خصوصاً مع شيعته فقد كان يقوم بجميع المهام، فكان فقيهاً مفتياً بليغاً فصيحاً ذا عقل وكياسة، وكانت له مكانة اجتماعية كبيرة واشتغل قاضي القضاة، وبعض الوزراء يزورنه في بيته، كما كان فاضلاً ومن أوثق الناس، عمل بالتقية فجاري فيها محيطه وجلب بها قلوب الكثيرين، فكان شخصية منفتحة على الجميع ويتواصل مع الناس، ومن مواقفه:

روي عن أحدهم قال: قال لي: إني كنتُ أنا وإخوتي ندخل إلى أبي القاسم الحسين بن روح نعامله، قال وكانوا باعة، ونحن مثلاً عشرة تسعة نلعه وواحد يشكك، فنخرج من عنده بعدما دخلنا إليه تسعة نتقرب إلى الله بمحبته وواحد وقف لأنه كان يجارينا من فضل الصحابة ما رويناه وما لم نروه فنكتبه لحسنه عنه.

وروي عن أبي نصر هبة الله بن محمد قال: «حدثني أبو الحسن بن كبرياء النوبختي قال: بلغ الشيخ أبا القاسم رحمته الله أن بواباً كان له على الباب الأول قد لعن معاوية وشتمه فأمر بطرده وصرفه عن خدمته وهو من شيعته.

٢- السيد عبد الحسين شرف الدين رحمته الله:

هو عالم دين شيعي لبناني، اشتهر بكتابه (المراجعات) وهو عن سلسلة من الرسائل المتبادلة بينه وبين الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر حول مسائل الخلافة والإمامة. كان شرف الدين داعية للوحدة الإسلامية وله مواقف بارزة في التقريب بين المذاهب الإسلامية، كما كان له دور فعال في الحياة السياسية

والاجتماعية في جبل عامل.

ولد في مدينة الكاظمية بالعراق عام ١٢٩٠ - ١٣٧٧ هـ، ونشأ في أسرة علمية، وتلقى علومه الأولية في لبنان ثم سافر إلى العراق لإكمال دراسته في الحوزات العلمية في النجف وكربلاء وسامراء.

نال درجة الاجتهاد المطلق وعاد إلى جبل عامل واستقر في مدينة صور. كان من أبرز علماء عصره في مجال التقريب بين المذاهب الإسلامية، وله جهود كبيرة في هذا المجال.

توفي عام ١٩٥٧ م، نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

٣- الشيخ محمد جواد مغنية:

ابن محمود بن علي آل مغنية العاملي من أبرز علماء لبنان ولد سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٩٠٤ م في قرية طيرديا من جبل عامل، درس في نفس المدينة على المرجع الشيخ حسين مغنية، ثم سافر إلى النجف، وأنهى دراسته ثم عاد إلى الجبل وعُين إماماً للبلدة، خلفاً لأخيه الأكبر العلامة الشيخ عبد الكريم مغنية، ثم عين قاضياً شرعياً في بيروت ثم مستشاراً للمحكمة الشرعية العليا ورئيساً لها بالوكالة إلى أن أُحيل للتقاعد.

الشيخ الفقيه من الذين أبدعوا في شتى الميادين الإسلامية والاجتماعية والوطنية، تَوَجَّحَ بإنتاجه وأفكاره صورة خاصة إلى جيل الشباب في المدارس والجامعات والحياة العامة، فكان يعالج في كتبه المشكلات والمسائل التي تؤثرهم وتثير قلقهم مثل مسائل العلم والإيمان، والحضارة والدين، ومشاكل

الحياة المادية والعصرية، وكان يقضي في مكتبته بين ١٤ ساعة إلى ١٨ ساعة وقد كتب في أحد جوانبها «الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما».

وله أيضًا الكثير من المقالات والنشرات، غير المؤلفات التي تربو على ٦٣ كتابًا وموسوعة، وكان يهتم كثير بالذب عن التشيع ومواجهة الشبهات والافتراءات والتجنيات على المذهب.

كما كان له باع وسعي في التقريب بين المسلمين، فألف الكتب ونشر المقالات، توفي ليلة السبت في ١٩ محرم سنة ١٤٠٠ هـ، ١٩٧٩ م.

أشرنا إلى عدد مؤلفاته المتنوعة في كل المجالات والتي تركز على الوضوح والبيان لتعاليم الإسلام، وكذلك تميزه لمهامه الجليلة من خلال الانفتاح والتواصل والحوار، ونشير هنا إلى أهم الكتب:

- ١- الإسلام والحياة
- ٢- شبهات الملحدين
- ٣- مذاهب ومصطلحات فلسفية
- ٤- الإسلام بنظرة عصرية، وجمعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة في مجلد واحد (فلسفات إسلامية).
- ٥- وفي الجانب الفقهي اهتم الشيخ بالاطلاع الواسع ومعرفة آراء وأحكام المذاهب السنية، منها:
 - ١- الفقه على المذاهب الخمسة.
 - ٢- الحج على المذاهب الخمسة.
 - ٣- الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة.

- ٤- الوصايا والمواريث على المذاهب الخمسة.
- ٥- الوقف على المذاهب الخمسة، وجمعت الكتب الخمسة في مجلد واحد تحت (الفقه على المذاهب الخمسة).
- ٦- فقه الإمام الصادق (ثلاث مجلدات).
- ٧- كما أن له كتبًا في التفسير منها:
- ٨- التفسير الكاشف ٧ مجلدات.
- ٩- التفسير المبين (على هامش القرآن الكريم).
- ١٠- في ظلال نهج البلاغة ٤ مجلدات.
- ١١- فلسفة الأخلاق في الإسلام.

إن هذه المميزات في حياة الشيخ مغنية تعتبر تراثاً مهماً في الحياة على الصعيد الفكري والاجتماعي والإصلاحي، فهو بذلك شق له منهجاً متميزاً، ومن أهم سمات هذا المنهج كما لاحظناه في مؤلفاته أنه منفتح على كل التوجهات والأفكار وكذلك يتمتع بكاريزما (شخصية) في ظل الانفتاح والتواصل مع الناس، وشجاع في آرائه. يقول عنه الفكر الإسلامي الشيخ حسن موسى الصفار حينما يتحدث في أحد كتبه عن «شجاعة التعبير عن الرأي (محمد جواد مغنية أنموذجاً)». الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، أطياف للنشر والتوزيع، القطيف.

فهو يمثل خلاصة تجاربه وفهمه للدين والقرآن والاقتداء بسيرة أهل البيت عليه السلام، حيث تجد معالم هذه المدرسة في كيانه ونهجه وعلاقاته وطموحاته، فهو يعيش هموم الناس والأمة الإسلامية على وجه خاص، والشيعية بشكل أخص.

٤- الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي (سنة ١٣٥٤ - ١٤٣٢ هـ)

عالم شيعي، وأحد مؤسسي حزب الدعوة الإسلامية في العراق، وله نشاطات لتحديث نظام ومناهج الدراسات الدينية في حوزة النجف العلمية، كما يحمل شهادة أكاديمية، وكتب العديد من الكتب والمقالات، والكتب الدراسية التي أصبحت فيما بعد من المقررات الدراسية الدينية، وتصدى في كتاباته للمد الشيوعي الذي اكتسح العراق بفكره وثقافته آنذاك. وتميزت شخصية الشيخ الفضلي بأنه منفتح على أفكار وتجارب الآخرين، وعرف كذلك بالتواصل، تأثر بالفكر الحركي للسيد الشهيد محمد باقر الصدر والرؤية التجديدية للشيخ المظفر للحوزة العلمية.

جمع الدكتور الشيخ الفضلي بين الدراسة الحوزوية التقليدية والدراسة الأكاديمية الحديثة فاستحق لقب العلامة ثم آية الله، وحصل على مرتبة الدكتوراه من المراتب الأكاديمية. كان الشيخ الفضلي من رواد حركة الإصلاح والتجديد في الحوزة العلمية في النجف، وذلك بقوله

ربما كان العامل المساعد في أن أتوجه أنا أو غيري للاهتمام بمسألة التجديد في الحوزة هو الجو العام في النجف في ذلك الوقت، حيث كان هناك عوامل كثيرة تحفز بهذا الاتجاه، فهناك من يعملون ويحاولون تطوير الدراسة أو الوضع الدراسي الديني في النجف، حتى يصبح أكثر فائدة، فكان من هؤلاء عبد الحسين كاشف الغطاء، الذي أنشأ مدرسة نظامية لتدريس المقررات الحوزوية، ولكن لم يكتب لها النجاح

وزعت آثار الشيخ الفضلي بين تحقيق وتأليف، كتباً مستقلة وأخرى

مقالات في مجلات علمية، وبعضها رسائل جامعية... تربو على الـ ٦٠، وله من بينها ما هو مطبوع وما هو مخطوط، وكان مما اتسمت به هذه المؤلفات دعوتها للتجديد فيمكن تقسيمها إلى ثمان مجموعات:

- أولاً: مجموعة علوم القرآن
- ثانياً: مجموعة علوم الحديث
- ثالثاً: مجموعة العقيدة والمعارف العقلية الإسلامية
- رابعاً: مجموعة علم الفقه
- خامساً: مجموعة أصول الفقه
- سادساً: مجموعة علوم اللغة العربية وآدابها
- سابعاً: مجموعة المعارف العامة
- ثامناً: مجموعة الفكر السياسي الإسلامي
- ثورة الحسين في ظلال نُصوصها ووثائقها
- حضارتنا في ميدان الصراع
- الدولة الإسلامية
- رأي في السياسة
- في انتظار الإمام
- حديث الشهر، مقالات في الفكر السياسي الإسلامي
- مشكلة الفقر
- دليل النجف الأشرف
- من البعثة إلى الدولة
- غدير خم، دراسة تاريخية وتحقيق ميداني

- الكيان السياسي الإسلامي من خلال نصوص المالية العامة

ويمكن معرفة المزيد عن سيرته ونشاطه من خلال موقعه على النت.

٥- المفكر الإسلامي حجة الإسلام الشيخ حسن موسى الصفار:

- ولد في القطيف سنة ١٣٧٧هـ. والقطيف مدينة عريقة من المدن

الرئيسية في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

- هاجر إلى النجف الأشرف - العراق للدراسة في الحوزة العلمية

سنة «١٣٩١هـ - ١٩٧١م»، ثم انتقل إلى الحوزة العلمية في قم - إيران سنة

«١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م»، والتحق بمدرسة الرسول الأعظم العلمية في الكويت

سنة «١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م».

ونشير هنا إلى بعض مؤلفاته في كل المجالات واليادين، مما يدل

على اهتمامه وطموحه وشعوره بالمسؤولية، خصوصاً فيما يتعلق بالحوار

والتواصل والانفتاح، وكذلك اهتمامه بالقضايا المصيرية للأمة والاجتماعية

والوطنية، فليس هناك بُعد يرتبط بحياة الإنسان أو المجتمع وقضايا الأمة إلاّ

وتطرق إليه، ومن يتتبع هذه الآثار الكثيرة يجد ذلك واضحاً، ويتسنى له

بالخروج برؤى وأفكار وحلول لكثير من المشكلات الواقعية والمستجدات،

فهو حاضر في المجتمع بحضوره وروحه وفكره وأخلاقه وحيويته، وثمره

كل ذلك قدّم لنا هذه الإنجازات والفعاليات والأنشطة المختلفة في الشؤون

والمجالات منها:

١- السياسة النبوية ودولة اللاعنف، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ/

- ٢٠٠٤م، دار المحجة البيضاء، بيروت لبنان.
- ٢- كيف نقراً الآخر؟ الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان.
- ٣- الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.
- ٤- الاستقرار السياسي والاجتماعي، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان.
- ٥- المذهب والوطن: مكاشفات وحوارات صريحة مع سماحة الشيخ حسن الصفار أجراها الأستاذ عبد العزيز قاسم الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان.
- ٦- الشباب وتطلعات المستقبل، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف السعودية.
- ٧- الإمام علي وقضايا الأمة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف السعودية.
- ٨- الحوار المذهبي والمسار الصحيح (محاضرة الشيخ حسن الصفار وحفل تكريمه في اثنينية الشيخ عبد المقصود خوجة)، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف السعودية.
- ٩- الانفتاح بين المصالح والهواجس، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ /

٢٠٠٩م، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف السعودية.

١٠- الإصلاح الديني والسياسي حوارات مع سماحة الشيخ حسن الصفار (في جزأين). الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف، دار الصفوة، بيروت لبنان.

١١- الطائفية بين السياسة والدين، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، المركز العربي الثقافي الدار البيضاء المغرب.

١٢- شجاعة التعبير عن الرأي (محمد جواد مغنية أنموذجاً)، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، أطراف للنشر والتوزيع، القطيف.

١٣- موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف، السعودية.

١٤- خطاب الوحدة نقد وتقويم، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف، السعودية.

١٥- التعددية الدينية.. قراءة في المعنى، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م، أطراف للنشر والتوزيع القطيف السعودية.

١٦- مسارات في ثقافة التنمية والإصلاح (في عشرة أجزاء)، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م، دار المحجة البيضاء - بيروت، لبنان. أطراف للنشر والتوزيع القطيف السعودية.

١٧- حلم الإمام الحسن.. نهج للتسامح الاجتماعي، الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م، مركز الإمام الحسن للدراسات التخصصية - النجف الأشرف - العراق.

١٨- العقلانية والتسامح.. نقد جذور التطرف الديني، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م، دار الانتشار العربي - بيروت، لبنان. دار أطياف للنشر والتوزيع، القطيف، السعودية.

١٩- روافد في تنمية الوعي الديني والاجتماعي (خمس مجلدات) - الطبعة الأولى، ١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣م، دار روافد، بيروت - لبنان، دار أطياف للنشر والتوزيع - القطيف، السعودية.

٢٠- التسامح وثقافة الاختلاف.

٢١- الحوار والانفتاح على الآخر.

٢٢- إدارة الاختلاف في الاجتماع الديني.

- كُتِبَ عن الشيخ الصفار وترجم له في عدد من كتب التراجم والمجلات وهي كثيرة جداً، ومن يريد الاطلاع فليراجع موقع سماحته.

فمن الواضح بأنه سماحته يعدُّ رمزاً دينياً ووطنياً، لما يتمتع به من رؤية وآفاق، وحيوية وفاعلية ونشاط وحضور بارز على كل المستويات، فهو في طليعة العلماء في المنطقة وكذلك يمثل القيادة الناجحة بما تتوافر فيه من مؤهلات وكفاءات، وكذلك يتمتع بذهنية وقادة، من خلال استحضاره للأمور والشؤون، واهتمامه بالناس والسؤال عن أحوالهم، ومن جانب آخر فهو يتمتع أيضاً بأخلاق عالية وسعة صدر تتسع لكل المواقف المناوئة

والمخالفة لرأيه، فهو يعتمد سياسة الاحتواء وتكريس مبدأ الأخوة، فتجده متواضعًا مع الجميع، ويستقبل الناس في مجلسه، ويفتح المجال لآرائهم ومناقشاتهم، ويدور في مخيلتهم، فهو يشجع على النقد البناء، وتصحيح الأفكار والاهتمام بالمراجعات.

والحديث عن هذه الشخصية يطول ولا تتسع لها هذه الأوراق، ولكن من يجالسه ويقرب منه يعرف جيدا ما يمثله من قيم وسيرة عطرة وأخلاق نبيلة، فهو لا يخل على أحدٍ أو زائرٍ بالنصح والتوجيه والموعظة، ويمكن أن نلخص هذه الشخصية بأنها مباركة في الحياة من خلال جهده وعطاءه ومساهماته واهتماماته الواسعة، مما يدل على شدة الارتباط بالدين واتباع نهج سيد المرسلين وأهل بيته الطاهرين، فهو بحق قدوة ونموذج للعالم الرسالي، ودعوته دائماً إلى الحوار والتواصل الاجتماعي والانفتاح ليس من شعار أو حديث مستهلك، وإنما سلوك وسيرة ثابتة، وهمم راسخة وتطلعات وطموحات عالية، شخصية لا تعرف الكسل والملل والفتور، فهو يلتزم بنظام وبرنامج مستقر، هكذا عرفناه في المهجر وفي الماضي والحاضر وفي كل الظروف، أقل ما يقال في حقها إنها شخصية متميزة وفريدة. فهو بحق أيضاً مفخرة للمجتمع والوطن.

الخلاصة والخاتمة في هذا الباب نقول:

إن الحوار ضرورة ومبدأ إنساني وعقلاني وأخلاقي قبل أن يكون دينياً وقرآنياً، لأنَّ الإنسان بما هو إنسان هو المخاطب، كما أن الحوار هو الطريق الأسلم للوصول إلى قنوات وحلول للمشاكل والاختلافات، والأسلوب الحسن هو المطلوب الذي تُراعى فيه الآداب والأخلاق، فرقاً بينه وبين

الجدال أو الحوار الذي ينطلق لمآرب ومصالح أو من أحقاد وضغائن.

والحوار لا يكون حوارًا إلا إذا تساوى فيه الجميع، فليس هناك قوي وضعيف، أو معد مسبقًا ومحسومًا، فالقوة والإكراه ليس محلهما الحوار، لأنهما منفيان كذلك شرعًا وعقلًا وإنسانيًا، لأنه يكرّس الخلافات ويعمّق العداوات ويبعّد المسافات، وعادة مثل هذه الحوارات ليس لها نهاية أو فائدة، وعلى سبيل المثال (الاتجاه المعاكس) في قناة الجزيرة، حيث يحتدم النقاش بلا طائل، والهدف منه هو إبراز العضلات وإسقاط الشخصيات، وتسفيه الآخرين، وتغيب عن هذه الحوار الأَخلاق والآداب، وأقرب شبه لها هو ساحة المصارعة وحلبة الملاكمة، أي الهدف هو صرع الآخر بلكمات قاضية، ولذلك من المؤسف أن نجد في ساحاتنا العربية والإسلامية وفي ظل الخلافات والنقاشات والأحاديث البينية التي تتداول المواضيع العامة والمصالح إما أن تكون بعيدة عن ثقافة الحوار أو تكون خالية من الضوابط والآداب الأخلاقية وعن الأسلوب الحسن مما يفقده القيمة والمثالية والتأثير، بل تكون لها آثار سلبية على المحاورين أو من يتابع ويشاهد، أو من نجده في وسائل التواصل الاجتماعي، إلا القليل التي تسوده الجدية والهدفية والظهور بنتائج حسنة.

أما الحوار عند مدرسة أهل البيت عليه السلام فهو منهج راسخ، وليس كما يتصوره البعض أنه من باب التقية أو مجرد التعايش أو الوصول إلى مصالح، فهذه حيل العاجز وطرق ملتوية، تتنافى مع الإسلام فكيف بأهل البيت العصمة والطهارة الذين لا يتغنون ولا يرجون من الناس أجرًا ولا شكورًا، ولذلك يجب أن نهتم بقضية الحوار في حياتنا لتصبح ثقافة عامة وخاصة، في

كيان الأسرة والتربية والمجتمع والمدرسة وفي أروقة العمل والإدارات والمؤتمرات وكل النقاشات التي تتطلب المحادثات وتتعدد فيها الآراء ووجهات النظر، فالحوار مهمة كما أسلفنا إنسانية وحضارية. ومن دونها نفتقد إلى الحلول خصوصاً إذا تعلّق الأمر بالأوطان والتعايش والسلم والاستقرار والتنمية، من هنا القرآن يؤكّد على مبدأ السّلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١)، وهنا خياران:

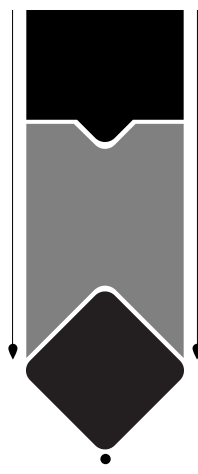
أ- إما أن نترك المشكلات والاختلافات تسود حياتنا وتستمر لتعكّر حياتنا وتنغص سعادتنا وتخلق لنا الأجواء المتأزمة التي يسودها القلق والاضطراب والانسداد. ثم أن نتفرّج ولا نبالي ولا نتحمل المسؤولية، فهذا خيار لا يمت ولا يتصل بالروح الإنسانية والإيمانية وحتى الوطنية.

ب- أو نلجأ إلى الحوار سبيلاً للحلول والعلاج والإصلاح.

فأي الخيارين هو الأصوب والأقرب لتصحيح المسار وتحقيق البنية الصحيحة للحياة التي تستحق منا كل خير وصلاح وبناء وفضيلة، الحياة التي أكرمنا بها الخالق وفضلنا على كثير من العالمين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ٢٠٨.

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.



تجارب رائدة في الحوار والتقريب

رسالة الإسلام:

فهي أكثر المجالات الإسلامية اتزانًا في حقبة غابرة من الحقب الماضية، ولها فضل لإحياء وإيصال نداء التقريب العلماء الإسلام ومفكره في العالم آنذاك، ويعاد طبع هذه المجلة لإحياء فكرة التقريب والتأليف بين قلوب المسلمين، وقد استهل مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية أعماله العلمية والإعلامية بهذا العمل المبارك.

صدرت هذه المجلة عن (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية)، حيث بدأ عملها سنة ١٣٦٨ هـ واستمرت حتى سنة ١٣٩٢ هـ، (١٩٤٩ - ١٩٧٢ م)، بأربعة أعداد سنويًا، بيد أنها عاشت مدً وجزر في الصدور حتى بلغ مجموع ما صدر منها ستين عددًا.

كانت دار التقريب مقرًا لنشاطات (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) بالقاهرة، وضمت الجماعة علماء من الطراز الأول ينتمون إلى مختلف المذاهب، وقام هؤلاء العلماء بتوطيد أواصر الأخوة خلال سنين طويلة كما أدرك بعضهم البعض الآخر وتفاهموا بينهم وتآلفوا على حب الله، فسادت الأخوة والثقة المبادلة أجواءهم.

لقد عاش هؤلاء العلماء الأختيار آلاما بسبب معاناة المسالمين الدائمة من التفرقة، والتشتت والضعف والامتهان والغلبة على أمرهم، كما انهم يشعرون بتلك المخاطر التي كانت تهدد الإسلام، لقد أدركوا تلك الحقيقة المرة المتمثلة بتفرق اتباع المذاهب الإسلامية مع وجود نقاط الالتقاء التي تجمعهم، مضافا مع تمسكهم بأصول الإسلام.

كان المؤسسون لدار التقريب من العلماء المتحمسين للإصلاح، وبعد سنين طويلة من المناقشات وتبادل الآراء وتلاحح الأفكار اتخذوا موقفا حكيما نابعا من رؤية إسلامية نقية، ومستندا إلى منهج منطقي منظم، حيث حذروا المسلمين من التفرقة والنزاع العقيم.

ان مجلة (رسالة الإسلام) هي المجلة المتحدثة باسم (جماعة التقريب) والناشرة لأفكارها وأفكار غيرها من الشخصيات الإسلامية حيث كانوا يعبرون عن آرائهم بشكل صريح في اطار المبادئ العامة والقواسم المشتركة التي تجمعهم مع التزامهم بانتمائهم المذهبي وبينهم علماء من المذاهب الأربعة لأهل السنة ومذهب الشيعة الامامية والزيدية وكان كل منهم يعرض مذهبه كما هو، مع رفض كل ما من شأنه التفرقة وسوء الظن. ومن بين الكتاب الذين رقدوا المجلة وحماة التقريب هم علماء الشيعة مراجعهم الكبار في النجف وقم، فمن الشيعة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، والشيخ محمد صالح المازندراني، والشيخ محمد جواد مغنية، والشيخ عبد الحسين الرشتي، والشيخ محمد تقي القمي، وآية الله السيد صدر الدين الصدر، وآية الله محمد تقي الخونساري، والمرجع الكبير آية

اللّه العظمى البروجردى، ومن أهل السنة شيخا الأزهر الكبيران الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، وجمع من علماء الأزهر أمثال الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد المدني (رئيس تحرير المجلة) والأستاذ الكبير عبد العزيز عيسى (مدير إدارة المجلة) وآخرون كثير، ومن الكتاب السادة أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأمثالهم.

علماء الأمة المصلحون:

«من يؤرخ للتجارب والمشاريع التي حملت صفة التقارب والتقريب بين مذاهب المسلمين في العصر الحديث، سيجد أنها جاءت بمبادرة من المسلمين الشيعة، واتّصلت بهم حركة ونشاطاً، خطاباً ورجالاً، وهذا ما وجدته من قبل، ورصدته ووثقته في كتابي (خطاب الوحدة الإسلامية.. مساهمات الفكر الإصلاحى الشيعي) الصادر سنة ١٩٩٦ م، وهذا ما سيجده كل من يؤرخ لهذا النمط من التجارب التقريبية. حينما نشير إلى هذه التجارب إنما من أجل تعزيز ثقافة الحوار والتقريب في العالم العربي والإسلامي، من أجل وحدة الأمة وهويتها الحضارية.

ولعل من أبرز التجارب التي يؤرخ لها في هذا النطاق، ثلاثة تجارب جاءت متعاقبة زمنًا وتاريخًا، وهي:

أولاً: تجربة الجامعة الإسلامية التي نهض بها السيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤ هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧ م) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، واتّصلت بعصر الدولة العثمانية، وجاءت في زمن تعرضت فيه هذه الدولة إلى تصدعات داخلية، وإلى مطامع وتآمرات خارجية

كانت تستهدف وحدة كيائها، والعمل على تجزئتها وتقسيمها إلى دويلات وكيانات تكون متباعدة ومتنافرة.

والذين درسوا تجربة الأفغاني وأرخوا لحركته الإصلاحية، عرباً ومسلمين وحتى أوروبيين، اعتبروا أنه أطلق أعظم صيحة في الدعوة إلى وحدة المسلمين في العصر الحديث، وحين تطرق الكاتب المصري أنور الجندي (١٩١٧-٢٠٠٢م) إلى هذا الأمر، نقل تأكيد الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ / ١٨٦٥-١٩٣٥م)، في اعتبار أن جمال الدين الأفغاني هو أول من دعا إلى الوحدة الإسلامية بإصدار مجلة العروة الوثقى (١٣٠١هـ / ١٨٨٤م).

هذه الدعوة إلى الوحدة الإسلامية جاءت في سياق اليقظة التي بعثها الأفغاني في الأمة، وقد عرف عند العرب والمسلمين في أدياتهم الفكرية والتاريخية بموقف الشرق، وحكيم الشرق، وباعث نهضة الشرق، وضمير العالم الإسلامي، وغيرها من أوصاف تشير وتؤكد عظمة الدور الذي نهض به في ساحة الأمة.

ومن هذه الجهة، يتقدم الأفغاني وبلا منازع على جميع رجالات النهضة والإصلاح في عصره وما بعد عصره، في الدفاع عن الأمة الواحدة والأمة الجامعة، حتى إن حركته عرفت بحركة الجامعة الإسلامية ومدرسة الجامعة الإسلامية. ليس هذا فحسب، فقد تحوّل الأفغاني إلى مصدر استلهم وإشعاع مضيء ومؤثر في هذا الدرب، وكل من اقترب منه سيرة وخطاباً تأثر به من هذه الجهة، التي باتت واضحة ومتجلية عند الباحثين والمؤرخين

لسيرة الأفغاني وحركته.

ثانيًا: تجربة جماعة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة التي تشكلت في النصف الثاني من أربعينات القرن العشرين، ودامت ما يقارب ربع قرن، من سنة ١٩٤٧ مع إقرار النظام الأساسي للجماعة، إلى سنة ١٩٧٢م مع توقُّف مجلة رسالة الإسلام لسان حال الجماعة آنذاك.

هذه التجربة مثَّلت أهم حدث فكري في تاريخ تطور العلاقات بين مذاهب المسلمين في العصر الحديث، وأسهمت في بلورة أفضل خطاب تواصلِي يشجِّع على التقارب والانفتاح، وينبذ التباعد والقطيعة بين مذاهب المسلمين، كما وأثمرت هذه التجربة كتابات ودراسات عُدَّت من أجود التراث الوجدوي والتقريبي في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر. رائد هذه التجربة الداعي إليها، والناهض بها هو الشيخ محمد تقي القمي (١٢٨٩- ١٣٦٩هـ / ١٩١٠-١٩٩٠م)، وهذا ما يعرفه ويذكره ويصرح به رجالات هذه التجربة الأوائل، وهكذا كل من وثَّق وأرَّخ لهذه التجربة، ومن بين الأقوال الكثيرة الدالة على ذلك، يمكن الإشارة إلى ثلاثة أقوال تنسب إلى ثلاثة من المؤسسين البارزين لهذه التجربة، وهي:

القول الأول: وينسب إلى الشيخ محمود شلتوت (١٣١٠-١٣٨٣هـ/

١٨٩٣-١٩٦٣م)، وجاء هذا القول في سياق حديثه عن قصة تأسيس هذه التجربة، وحسب قوله: «وكنْتُ أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الإمام المصلح محمد تقي القمي، ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه، ولا عمَّا لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول

من دعا إلى هذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد، بلد الأزهر الشريف، فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهدا بالسقي والرعاية بما أتاه الله من عبقرية وإخلاص، وعلم غزير، وشخصية قوية، وصبر على الغير، وثبات على صروف الدهر، حتى رآها شجرة سامقة الأصول، باسقة الفروع، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره».

القول الثاني: وينسب إلى الشيخ محمد المدني (١٣٢٥-١٣٨٨هـ/ ١٩٠٧-١٩٦٨م)، وجاء هذا القول في سياق رسالة بعث بها إلى الكاتب المصري أحمد بهاء الدين (١٩٢٧-١٩٩٦م) الذي كتب مقالة امتدح فيها فكرة التقريب، نشرها سنة ١٩٦٥ في مجلة المصور حين كان رئيساً لتحريرها، وفي وقتها كان الشيخ المدني رئيساً لتحرير مجلة رسالة الإسلام الصادر عن جماعة التقريب، في هذه الرسالة كتب الشيخ المدني يقول: «وكان أول من دعا إلى هذه الفكرة، وإلى تأليف هذه الجماعة، عالم من علماء الشيعة الإمامية بإيران - ما زال قائماً إلى الآن في مصر يحمل لواءها - هو سماحة الأستاذ محمد تقي القمي، أطل الله حياته. وقد اعتنق هذه الفكرة مئات الألوف في مختلف البلاد الإسلامية فانتسبوا إلى جماعتها، واتصلوا بدارها في القاهرة، ومجلتها رسالة الإسلام التي تصدر بانتظام منذ خمسة عشر عاماً، وتعالج دعوة التقريب على مستوى عال، وفي إنصاف وهدوء وبعد عن التحمس أو التعصب».

القول الثالث: وينسب إلى الأستاذ علي السيد الجندي، الذي كتب كلمة تحرير العدد الأخير من مجلة رسالة الإسلام، المؤرخ في رمضان

١٣٩٢هـ/ أكتوبر ١٩٧٢م، جاء في هذه الكلمة «لقد كان أول من دعا إلى تأليف هذه الجماعة، العالم الحجة المجتهد، الأستاذ محمد تقي القمي، منذ قدم مصر في أوائل الأربعينات، والتقى بصفوة رجالها وخيرة مفكرها الإسلاميين، وكان التقريب بين الطوائف الإسلامية شغله الشاغل، عاش معه، وحمل لواءه، وجاهد في سبيله، وبذل ما يملك من قوة مادية ومعنوية في الدعوة إليه، والتعريف به، وجمع السادة الأعلام من علماء السنة والشيعة على كلمته. وما زال أبقاه الله للمسلمين، يرفع فكرته، ويتعهد غرسه، ويوفر إقامته وأسفاره على كل ما يحقق أهداف التقريب، ويكسب النجاح لدعوته».

ثالثاً: تجربة المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي تأسس في طهران سنة ١٩٩٠م، وجاء امتداداً وإحياء ومتابعة لتجربة دار التقريب في القاهرة، ويذكر لهذا المجمع أنه نهض بأوسع نشاط فكري وتحقيقي وأكاديمي في تاريخ تطور فكرة التقريب بين المذاهب في ساحة الفكر الإسلامي القديم والحديث والمعاصر. فمن جهة، يعد هذا المجمع المؤسسة الوحيدة في العالم الإسلامي الذي ينظم مؤتمراً دولياً سنوياً، ومتخصصاً في قضايا ومسائل التقريب بين المذاهب الإسلامية بصورة خاصة، وقضايا ومسائل الوحدة الإسلامية بصورة عامة، ويحضره سنوياً جمع كبير من أصحاب المذاهب الإسلامية علماء ومفكرين وباحثين، ومن مختلف أقطار العالم الإسلامي، وقد حضرت العديد من هذه المؤتمرات، وكنت شاهداً على ذلك. ومن جهة ثانية، يعد هذا المجمع أيضاً المؤسسة الوحيدة في العالم الإسلامي، الذي ينشط في مجال النشر على مستوى الكتب والمجلات التي تعنى بصورة متخصصة بقضايا ومسائل العلاقات

والتقريب بين مذاهب المسلمين. وخلال السنوات الماضية، نشر المجمع عشرات الكتب المهمة بلغات عدة، منها العربية والفارسية والأردية والإنجليزية والفرنسية وغيرها، وهكذا على مستوى المجلات والدوريات، فلديه مجلة بالعربية تصدر كل شهرين بعنوان (رسالة التقريب) صدر العدد الأول منها سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ومجلة أخرى بالعربية صدرت شهرياً وتوقفت بعنوان (ثقافة التقريب) صدر العدد الأول سنة ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ومجلة بالفارسية فصلية بعنوان: (انديشه تقريب - فكر التقريب) صدر العدد الأول سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ومجلة بالأردية بعنوان (شعور الاتحاد) صدر العدد الأول سنة ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م. ومن جهة ثالثة، وفي خطوة متقدمة وطموحة وغير مسبقة أسّس هذا المجمع جامعة أكاديمية حملت اسم جامعة المذاهب الإسلامية، صدرت الموافقة عليها سنة ١٩٩٢م، وتكونت من ثلاث كليات، الكلية الأولى كلية الفقه والحقوق للمذاهب الإسلامية، وتضم خمسة فروع في مرحلة البكالوريوس هي: فقه وحقوق مذهب الإمامية، فقه وحقوق المذهب الشافعي، فقه وحقوق المذهب الحنفي، فقه وحقوق المذهب الحنبلي، فقه وحقوق المذهب المالكي. وفي مرحلة الماجستير تضم هذه الكلية ثلاثة فروع هي: الفقه المقارن والحقوق العامة الإسلامية، الفقه المقارن وحقوق الجزاء الإسلامي، الفقه المقارن والحقوق الإسلامية الخاصة.

الكلية الثانية هي كلية علوم القرآن والحديث، وتضم أربعة فروع في مرحلة البكالوريوس، هي: علوم القرآن، علوم الحديث، علم الرجال والتراجم، التاريخ الإسلامي، وفي مرحلة الماجستير تضم فرعين هما علوم

القرآن، وعلوم الحديث.

الكلية الثالثة هي كلية الكلام والفلسفة والأديان، وتضم ثلاثة فروع في مرحلة البكالوريوس وهي: الكلام والفلسفة والعرفان الإسلامي، الأديان، المذاهب.

تكشف هذه التجارب الثلاث عن أن فكرة التقريب أخذت من ناحية الزمن مسارًا يكاد يكون ممتدًا خلال القرن العشرين، وأخذت من ناحية المكان مسارًا يكاد يتحدّد في خط طهران - القاهرة، الذي يمكن أن نطلق عليه خط التقريب الحيوي في ساحة الأمة. إلى جانب هذه التجارب، كانت هناك مبادرات أخرى في التواصل بين علماء الدين الشيعة والسنة، بقصد التحوّل والتعارف والتقارب الفكري والمذهبي، واللافت أن جميع هذه المبادرات جاءت تقريبًا، وتحديدًا خلال القرن العشرين من الطرف الشيعي، وهذا ما توثقه لنا كتب السير والتراجم وكتب التاريخ. وفي هذا النطاق، يمكن الإشارة إلى نماذج من هذه المبادرات، منها وبحسب تعاقبها الزمني:

أولاً: مبادرة السيد عبدالحسين شرف الدين (١٢٩٠-١٣٧٧هـ) / ١٨٧٣-١٩٥٧م)، الذي وصل إلى القاهرة قادماً من بيروت سنة ١٣٢٩هـ / ١٩١٠م، وتواصل هناك وتحوّل مع شيخ الأزهر آنذاك الشيخ سليم البشري (١٢٤٨-١٣٣٣هـ)، وحضر درسه في الأزهر، وعدّه لاحقاً من مشايخه، وقال عنه: «أستاذنا الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الأزهر، وإمام علماء مصر في وقته، لقيته سنة ١٣٢٩هـ بمصر، وحضرت درسه في الأزهر مدة من الزمان، وكانت بيننا مناظرات علمية، ومراجعات خطية، مثلت ورعه وإنصافه

وعلو منزلته علمًا وأخلاقيًا وأدبًا، أجازني بجميع كتب أهل السنة، وبعض طرقه إلى صحيح البخاري».

ثانيًا: مبادرة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٤- ١٣٧٣هـ / ١٨٧٧-١٩٥٤م)، الذي ذهب إلى الحج سنة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م، ومن هناك توجه إلى دمشق، ومكث ما بين سوريا ولبنان ومصر مدة ثلاث سنوات، التقى فيها وتعارف وتحاور مع بعض العلماء والأدباء أمثال الشيخ أحمد طbare (١٨٧١-١٩١٦م)، وعبد الغني العريسي (١٨٩١- ١٩١٦)، وعبد الكريم خليل وأمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠م)، إلى جانب آخرين.

وفي مصر التي أمضى فيها الشيخ آل كاشف الغطاء أشهر عدة، التقى هناك وتعارف وتحاور مع علماء الأزهر أمثال الشيخ سليم البشري، والمفتي الشيخ محمد بخيت المطيعي (١٢٧١-١٣٥٤هـ / ١٨٥٦-١٩٣٥م).

ثالثًا: مبادرة الشيخ عبدالكريم الزنجاني (١٣٠٤-١٣٨٨هـ / ١٨٨٧- ١٩٦٨م)، الذي كانت له زيارة شهيرة إلى مصر سنة ١٩٣٦م، لقي فيها حفاوة مميزة من شيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨- ١٣٦٤هـ / ١٨٨١-١٩٤٥م)، الذي جمع كبار علماء الأزهر في لقاء تكريمي كبير له، عده بعض الحاضرين بالقول: «إن هذه هي المرة الأولى بعد أكثر من ألف سنة، تجتمع فيها كبار العلماء السنيين في الأزهر برئاسة أكبر زعيم ديني وهو شيخ الجامع الأزهر، لتكريم كبير علماء الشيعة الإمامية، وهو الإمام الشيخ عبدالكريم الزنجاني» وكانت هذه الزيارة فاتحة لبناء جسور من التواصل والتشاور ما بين الشيخين الزنجاني والمراغي، حول العديد من

القضايا الإسلامية العامة، كشفت عن ذلك المراسلات المتبادلة بينهما. كما احتفت به الصحافة المصرية التي تابعت وغطت أخباره ونشاطاته، وظلت تصفه برسول الوحدة الإسلامية.

ومن القاهرة توجه الشيخ الزنجاني إلى دمشق، والتقى هناك وتعارف وتجاوز مع علماء وأدباء الشام، أمثال الشيخ بهجت البيطار (١٣١١- ١٣٩٦هـ / ١٨٩٤-١٩٧٦م)، ومحمد كرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣م)، وألقى محاضرات في جامعة دمشق، وفي الجامع الأموي، وأقامت له جمعية التمدن الإسلامي احتفالاً كبيراً له في الجامع الأموي، أطلقوا على هذا الاحتفال يوم الوحدة الإسلامية، ووصفت مجلة التمدن الدمشقية الشيخ الزنجاني برسول الوحدة الإسلامية.

ومن بعد دمشق توجه الشيخ الزنجاني إلى فلسطين، بناء على دعوة من الشيخ أمين الحسيني (١٣١٢-١٣٩٤هـ / ١٨٩٥-١٩٧٤م)، الذي التقى به وتجاوز معه. إلى جانب هؤلاء الثلاثة، الذين اشتهرت زياراتهم إلى مصر، وتعارفهم وتجاوزهم مع علماء الأزهر في أزمنتهم، كانت هناك أيضاً زيارات أخرى لعلماء آخرين جاءت متصلة بهذا المسلك التقريبي، ففي سنة ١٩٦٣م زار الشيخ محمد جواد مغنية (١٣٢٢-١٤٠٠هـ / ١٩٠٤-١٩٧٩م) القاهرة، والتقى بشيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمود شلتوت، والشيخ مغنية من علماء لبنان الذين ساندوا جماعة التقريب في القاهرة، ونشروا مقالات في مجلة رسالة الإسلام.

وفي سنة ١٣٩٢هـ زار وفد من علماء إيران القاهرة، وكان يتقدمهم الشيخ محمد واعظ زاده والسيد هادي خسروشاهي، والتقوا هناك وتجاوزوا

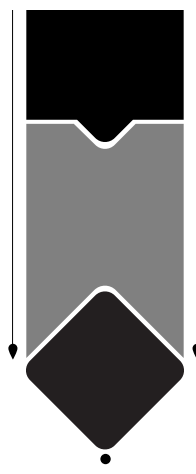
مع كبار مشايخ الأزهر، منهم شيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمد الفحام (١٨٩٤-١٩٨٠م).

وفي سنة ١٩٦٨م زار القاهرة السيد مرتضى العسكري (١٣٢٢-١٤٢٨هـ / ١٩١١-٢٠٠٧م)، والتقى هناك بالشيخ أحمد حسن الباقوري (١٣٢٥-١٤٠٥هـ / ١٩٠٧-١٩٨٥م)، الذي كان آنذاك مديرًا لجامعة الأزهر، وزار جامعة القاهرة وعقدت معه جلسة علمية مع بعض أساتذتها جرت فيها حوارات ومناقشات فكرية وتاريخية.

ويتصل بهذا السياق كذلك، مبادرة السيد موسى الصدر في لبنان الذي عرض على المفتي العام في ذلك الوقت الشيخ حسن خالد (١٣٤٠-١٤٠٩هـ / ١٩٢١-١٩٨٩م)، فكرة تأسيس مجلس إسلامي أعلى للمسلمين في لبنان سنة وشيعة، وحينما أبدى الشيخ حسن خالد تحفظه على هذه الفكرة، بادر السيد الصدر لتأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى سنة ١٩٦٩م.

هذه بعض التجارب والمبادرات التي تكشف وتؤكد ريادة المسلمين الشيعة، في إحياء ونهضة مشاريع التقارب والتقريب بين المذاهب الإسلامية في العصر الحديث^(١).

(١) منقول عبر الذكاء الاصطناعي بقلم الكاتب والمفكر الشيخ زكي الميلاد، من المملكة العربية السعودية (المنطقة الشرقية القطيف).



عبائر وعبارات في الحوار

- ١- الحوار لا ينحصر في ظل الاختلافات، فقد يكون للتطوير والمشاركة وفتح الآفاق وتقديم الخيارات، فهو مطلوب بشكل عام.
- ٢- في الحوار قد تكون جميع الآراء صحيحة وعلى حق، لتعدد الحثيات ووجهات النظر.
- ٣- الاتفاق قد لا يتحقق في الحوار نفسه، فقد يكون بعده بخطوة.
- ٤- حسن الأسلوب في الحوار يشد الانتباه وأكثر من فكرة الحوار أحياناً.
- ٥- هناك فرق كبير بين من يأتي للحوار من أجل الحقيقة والفائدة، وبين من يحاول كسب الجولة، فالأول رمز للتحضر والآخر للتخلف.
- ٦- عدم الاتفاق في الحوار لا يعني بالضرورة الفشل، كما أن النجاح يساهم في تعزيز الثقة والتواصل.
- ٧- إقناع الآخرين يتطلب مهارة عالية، تختلف عن الفكرة نفسها.
- ٨- الرأي يختلف عن الحقيقة، لأنَّ الرَّأي هو تفسير، أمَّا الحقيقة فهي

مبدأ ثابت.

٩- قوة الحوار تكون في الوسط لأنَّ البداية مقدمة، والنهاية نتيجة، كما أن الاختلافات تكمن في التفاصيل وليس في المبادئ والخطوط العامة.

١٠- الغرور والإعجاب والاستعلاء عوامل تُعيق استيعاب الآخر.

١١- يكون الحوار أحياناً وسيلة للإضاءة وتسليط الضوء، وليس دائماً لاتخاذ القرارات.

١٢- سوء الظن بالآخرين يعكّر الحديث ويُخرج الحوار عن هدفه.

١٣- الأصوات الرّفيعة كالنّعيق حالة ناشزة، وتخفي الجوانب الإيجابية.

١٤- إقحام الدّين من غير ضرورة يؤدّي إلى كثير من التجاوزات، وقد يكون ستاراً للأخطاء والملابسات.

١٥- ما يُعيق التقدم في الحوار ليس طبيعة الأفكار، وإنما طبيعة الأشخاص وسوء الفهم.

١٦- حينما تثبت أن فكرتك هي الصحيحة، فلا يعني أن فكرة الآخر خاطئة فليس هناك تلازم. نعم، قد تكون الأفضل والأحسن، وأحياناً ليس للآخر فكرة.

١٧- فهمك للآخر يختصر الطريق ويقرب المسافات ويوصلك إلى

النتائج.

١٨- الحوار الذي يفتقد إلى الموضوعية، لا يرجو منها أحد أن يخرج بنتائج إيجابية أو نصائح مقبولة.

١٩- في الأثر: «الكلمة الطيبة رسول للحقيقة، والنّابية مدخل للشيطان، فاختر أحدهما».

٢٠- في الأثر: «ما يضمّره الإنسان يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، فأضمّر الخير دائماً حتّى تكون الصّورة معبرةً ورائعةً وجميلةً.

٢١- الحقدُ مرضٌ دفينٌ، لا يبطن صاحبه إلا الشرّ، ويمكن أن ينفجر في أي لحظة.

٢٢- الحُبُّ المفرط كما البغض، وجهتان لحقيقة واحدة هو الغلو، فلا إفراط ولا تفريط. يقول الإمام عليّ عليه السلام: «الشَّاءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالْعَجْزُ عَنِ الاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ وَحَسَدٌ»^(١).

٢٣- في الحوارات نحتاج إلى الآداب والأخلاق كحاجتنا إلى المعلومات والحقائق.

٢٤- حسنُ الظنِّ بالآخر يحميك من الزلات والاتهامات والأخطاء.

٢٥- الخروج من الحوار بلا مبرّر واستئذان، كدخول البيوت من غير أبوابها، إلّا إذا فقد الحوار مشروعيته.

٢٦- الاطلاع الواسع يمنحك القدرة لانتخاب الأفضل من الخيارات

(١) نهج البلاغة.

والرد الكافي.

٢٧- في ظل الاستبداد تصبح الحوارات صورية وذات طابع رسمي ومحسومة النتائج سلفاً.

٢٨- في الدول الديمقراطية قد يُساء إلى الحُرِّيَّة للشعور بالأمن، كما يساء إلى الحرية في الأنظمة الدكتاتورية للشعور بالخوف.

٢٩- الحوار في أجواء الحُرِّيَّة قوة و طاقة إيجابية تمنح الإنسان القدرة على التعبير عن رأيه.

٣٠- يقول أحد العلماء^(١): «إننا نؤمن بالعبادات والواجبات، لكننا نكفر بالأخلاق وخصوصاً عند الاختلاف».

٣١- نحن نحتاج أن نتعلم الحُرِّيَّة وممارستها في ظل التربية ونحن صغار، حتّى تصبح ثقافة وسلوكاً وحضارة.

٣٢- الاستبداد يمثل لغة العنف والقهر والتنمر، ومن يتصف بذلك لا يمكن أن يكون على طاولة الحوار.

٣٣- الحوار هو الخطوة للاعتراف بالآخر، والطريق للتواصل وإزالة المعوقات. ومن لا يجيد الحوار بالضرورة يفتقد إلى القدرة للتواصل والمضي.

٣٤- بعض الدعايات والشعارات التي تسبق الحوار سبب لعدم

(١) العالم والمرجع الديني السيد فضل الله. عالم لبناني.

متابعتها، فإذا تكون مبالغاً فيها، أو لا تحظى بالمصداقية.

٣٥- الحوارات المفتوحة ومن دون جدولة الأفكار تبعث على الملل، مهما كانت أهميتها.

٣٦- كثير من أطراف الحوار يسيء إلى نفسه أولاً، وإلى الجهة التي يمثلها ثانياً.

٣٧- إدارة الحوار لا تقل أهمية عن الحوار نفسه، وأحياناً يكون هو البلسم وهو الأعلم والأرقى والأكفأ، وهذا هو المطلوب لتحقيق النجاح. والعكس أيضاً يكون سبباً في الفشل، مهما كانت كفاءة المتحاورين.

٣٨- النوم والاسترخاء قبل الحوار أو النقاش بشكل كافٍ يمنحك الجهد المضاعف وبذل ما بوسعك من الطاقة. والعكس صحيح.

٣٩- الحوارات من بعيد (غير المباشر)، وعبر الوسائل التواصل قد تكون أكثر فائدة وإيجابية في بعض الصور، لأنَّ الاهتمام ينصبُّ حول الفكرة وليس الشخص.

٤٠- ليس من يجيد الخطاب ويكون بارعاً في الكلام يكون على صواب؛ فقد يكون العكس لاختلاف الطبائع والمواهب.

٤١- قوة المنطق والكلمة أسرع من الصَّاروخ وأشدُّ من القوة المفرطة، لأنَّ الأول يلامس العقول والقلوب، وقيل إنَّ قوة المنطق تهزم شراسة الأبطال.

٤٢- أحياناً يكون الاهتمام بالمظاهر والأضواء أكثر من الاهتمام

بالحوار نفسه.

٤٣- كثرة الكلام والتكرار في الحوار ذو حدين، إما ينفعك أو يضرّك، فحاول أن تكون معتدلاً ووسطاً، تضمن الصواب.

٤٤- الاعترافُ بالخطأ طريقٌ لتصحيح الخطأ، والعكس صحيح؛ فالعناد طريق للتماذي والاستمرار في الأخطاء والانحراف.

٤٥- التسامح والتجاوز عن أخطاء الآخرين، طريق لمحبتهم واحتوائهم والأهم تصحيح أخطائهم؛ «لأنَّ النَّاسَ جُبِلُوا عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ».

٤٦- إذا كان الخط المستقيم هو أقصر الطرق بين نقطتين، فالحقيقة قد تكون في كلمة أو جملة، والباقي مضیعة وترف.

٤٧- في كثير من الحوارات يتم فيها التراشق بالكلام كالسهام، مما يعني أنَّ العقولَ نائمةٌ والأخلاقَ هامشية.

٤٨- في الحوارات السياسية لا يكفي أن تكون صاحب مبدأ، بل لا بُدَّ أن تكون مسنداً بالقوة، فالسياسة لا ترحم.

٤٩- في الحوار لا يكون هدفك إرضاء النَّاسَ والجماهير، فقد تنجح وقد لا تنجح. ليكن هدفك هو الحق ورضا الله، فما عند الله ينمو، وتصبح كبيراً في أعين النَّاسِ.

٥٠- في المأثور «دَعِ الْجِدَالَ وَلَوْ كُنْتَ مُحِقًّا»، والمقصود الجدال غير

الحسن.

٥١- التعصب سبب لإقصاء الآخر، فلا قيمة للحوار؛ لأنه لا قيمة للإنسان.

٥٢- من الضروري أن يعرف الإنسان نفسه، أو الجهة التي يمثلها حتى يكون التعبير علامةً فارقة ومميزاً، فأحياناً يتحدث الإنسان عن الآخرين دون رضاهم ومعرفتهم أو بخس حقهم.

٥٣- التصنع والتكلف في الحديث يفسد روح الحوار. وفي المقابل الوضوح والشفافية والتواضع يبعث على الثقة والاهتمام.

٥٤- الإنصات والاستماع الجيد لا يكون فقط بالتوجه والنظر، وإنما بالقلوب والعقول، حتى ينصب الاهتمام بما قيل وليس بمن قال. والإنصات والاستماع قد يكون سبباً للهداية والرحمة كما هو في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

٥٥- الإعلام الذي يُحيط بالحوار في الغالب ذو أهمية قصوى، وهو رسالة أخرى وواجهة، فإما تكون صادقة أو كاذبة، فالحذر الحذر أن تكون هذه الرسالة سبباً لإطفاء الحق والحقيقة ومصادقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

٥٦- كثير من البلاد العربية والإسلامية، لا تشجع على الحوار ولا تقيم له وزناً في الغالب، إلا عند الضرورة أو المصالح، لأنها إما غير شرعية، أو لا تريد نشر الوعي عند الناس أو المشاركة في القرار. ولهذا يعتبر المواطن

(١) سورة الصف: ٨.

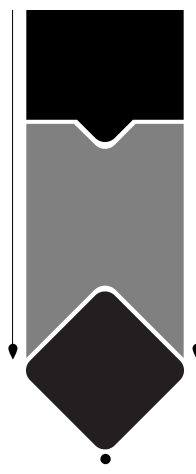
مهمشا، ومع ذلك مطلوب منه أن يتحمل الأزمات ويساهم في حلها؛ فهل
هذا عدل وإنصاف؟

والحمد لله رب العالمين على توفيقه

حبيب معتوق الخباز

١٣ / ربيع الآخر / ١٤٤٧

الموافق ٥ / أكتوبر / ٢٠٢٥



المحتويات

الإهداء	٩
التعريف بالحوار	١١
تمهيد	١٧
صراع الحضارات أم حوار	١٧
أولاً: الدَّعوة إلى السَّلام والكرامة	٢٥
ثانياً: ترسيخ قيمة الحُرِّيَّة والعدالة الإنسانية	٢٧
ثالثاً: الأخلاق الإسلامية	٣٣
رابعاً: الخطاب المعتدل	٣٧
خامساً: الحوار النّاجح	٤٩
أ- الإيمان بمبدأ الحوار	٤٩
ب- الإرادة والطموحات العالية	٥٥
ج- التّأكيد على القواسم المشتركة	٥٦
د- المساواة والإنصاف	٦٣
هـ- سياسة اللّين وتنوع الخطاب	٦٧
و- سياسة الانفتاح على العالم	٧٤

٧٨	مدرسة أهل البيت عليه السلام في ظل الانفتاح
٨٠	ترشيد الصحوة
٨٤	الإعلام والمهمة الحضارية
٨٧	مقدمة
٨٧	بيئة الحوار والثقافة
٩٥	إضاءة
٩٧	مبادئ الحوار
٩٩	أهم مبادئ الحوار في الإسلام
١٠٠	أولاً: الحق الإنساني
١٠١	ثانياً: مبدأ الأخوة الإسلامية
١٠٢	ثالثاً: لا قداسة في الحوار
١٠٣	رابعاً: مبدأ الأخلاق عند الاختلاف
١٠٥	المستوى الأول: احترام الآخر
١٠٥	المستوى الثاني: الثبات أمام أخطاء الآخرين
١٠٦	المستوى الثالث: التغاضي والاستغفار للآخرين
١٠٨	خامساً: لا بد أن يكون للحوار هدف
١٠٨	سادساً: الاستقلالية في التفكير
١٠٩	١- الاستعداد النفسي والتهيئة
١٠٩	٢- الإحاطة بموضوع الحوار
١١١	٣- النظرة الموضوعية
١١٣	ألف- الحقيقة بين الحب المفرط والبغض
١١٥	باء- النقد الذاتي
١١٨	جيم- حسن الظن بالآخرين

١١٩	دال- التحذير من الخصومة
١٢٠	الخصومة في الدين
١٢٢	١- الانشغال عن ذكر الله.....
١٢٢	ثانيًا: تورث النفاق
١٢٢	ثالثًا: وتكسب الضغائن
١٢٣	رابعًا: وتستجير الكذب
١٢٦	واو- ثقافة الاعتذار
١٢٩	هوية الحوار
١٣١	نموذج من تأثير الأخلاق الرفيعة
١٣٣	مفاهيم ضرورية
١٣٣	أولًا: بين الدين والحريّة والحوار
١٣٩	ثانيًا: مفهوم الحوار في القرآن
١٤٤	ثالثًا: فلسفة الحوار في القرآن وأهدافه
١٤٩	نماذج من الحوارات في القرآن الكريم
١٤٩	النموذج الأول - تبيان عظمة الخالق
١٥٨	النموذج الثاني: إبليس وخرق الطاعة
١٦٦	النموذج الثالث: الصبر والتواضع
١٦٩	النموذج الرابع - الاستنكار والتوبيخ
١٧٣	النموذج الخامس: التفكير المادي وعواقبه
١٧٤	١- النظرة الضيقة والمحدودة للحياة وللأشياء
١٧٨	٢- انقلاب المقاييس والمعايير في الحياة
١٨٠	٣- سوء الأخلاق

١٨٢	 يقظة
١٨٣	 النموذج السادس: الحوار السياسي
١٩٧	 النموذج السابع: المباهلة (المفاصلة)
١٩٨	 النموذج الثامن: حوار في العقيدة (إثبات البعث نموذجًا)
٢٠٤	 إنكار البعث
٢٠٧	١- الجواب على الافتراض الأول.....
٢٠٧	أ- وجود الهدفية والغاية والفلسفة من الحياة.....
٢١٠	٢- الجواب على الافتراض الثاني.....
٢١٠	أولاً: الدليل الفطري.....
٢١١	ثانياً: الدليل الحسي.....
٢١٣	ثالثاً: الدليل العقلي.....
٢١٣	١- أصل الوجود.....
٢١٤	٢- مفهوم الأولوية.....
٢١٥	٣- وجود النظام.....
٢١٥	٤- دليل الفاعلية والحركة.....
٢١٧	٥- دليل الغاية والمصير المحتوم.....
٢٢٠	 الجواب على الافتراض الثاني من القرآن
٢٢١	 رابعاً: الدليل النقلي
٢٢٥	 القصص القرآنية في ظل الحوار
٢٣٢	 قصة نبي الله يوسف عليه السلام نموذجًا
٢٣٣	 تأويل الرؤيا
٢٣٤	 الرؤيا الصادقة
٢٣٧	 الحوار في ظل مدرسة أهل البيت المعصومين عليهم السلام

- نماذج من سيرة أهل البيت عليهم السلام مع المناوئين والمخالفين ٢٥١
- ١- الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ٢٥١
- ٢- الإمام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة النعمان ٢٥٢
- ٣- الإمام الكاظم عليه السلام والنواصب ٢٥٢
- ٤- الإمام الجواد عليه السلام ٢٥٣
- الحوار في مسيرة العلماء والقادة والمصلحين ٢٥٧
- ١- الاهتمام بالقراءة والاطلاع ٢٦٠
- ٢- الاندماج والانفتاح في المجتمعات والأوطان ٢٦٠
- ٣- الانفتاح والتواصل والحوار ٢٦٢
- ١- الاهتمام بالتحصيل ٢٦٣
- ٢- تعليم الناس ٢٦٣
- أ- القراءة الواعية ٢٦٥
- ب- الرهان على وعي المجتمع ٢٦٧
- ٣- التعاون الفعلي في تحقيق وتعزيز الثقة ٢٦٨
- ٤- التربيــــــــة على الحوار ٢٧٠
- نماذج من سيرة العلماء في ظل الانفتاح والحوار ٢٧٤
- ١- حسين بن روح بن أبي بحر النوبختي ٢٧٦
- ٢- السيد عبد الحسين شرف الدين رحمته الله ٢٧٧
- ٣- الشيخ محمد جواد مغنية ٢٧٨
- ٤- الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي (سنة ١٣٥٤ - ١٤٣٢ هـ) ٢٨١
- ٥- المفكر الإسلامي حجة الإسلام الشيخ حسن موسى الصفار ... ٢٨٣
- الخلاصة والخاتمة في هذا الباب ٢٨٧

٢٩١	تجارب رائدة في الحوار والتقريب
٢٩١	رسالة الإسلام
٢٩٣	علماء الأمة المصلحون
٣٠٣	عبائر وعبارات في الحوار
٣١١	المحتويات